

دراسات في

تاريخ المغرب الإسلامي

الأحوال الجغرافية، الفنون الإسلامية،
قيام الإمارات و الدول
الحضارة الفكرية، الأحوال السياسية
و الاجتماعية و الاقتصادية

تأليف

د/صالح عمار الحاج

د/سوادي عبد محمد

الناشر

المكتب المصري لنوزيع المطبوعات (طباعة، نشر، تصدير كتب)

دراسات في
تاريخ المغرب الإسلامي
الأحوال الجغرافية.
الفتوح الإسلامية.
قيام الإمارات والدول
الحضارة الفكرية. الأحوال السياسية
والاجتماعية والإقتصادية

تأليف

د/صالح عمار الحاج

د/ سوادي عبد محمد

رقم الإيداع: 2004/2784

I.S.B.N. الترقيم الدولي

977-5841-79-7

الطبعة الأولى/ 2004

الناشر: المكتب المصري لتوزيع المطبوعات (طباعة، نشر، تصدير كتب)
حقوق الطبع والترجمة والانتهاض محفوظة للمكتب المصري لتوزيع المطبوعات
الإدارة: (5) ش مصطفى طوموم - المنيل - القاهرة
تليفاكس: 3655487

الإهداء

إلى الوطن الليبي ... تسري ...
شعلتان من المشرق متأججتان ... إلى غربة
الإسلام والعروبة
و الغبار تثيره ... سناولة ديولنا
على أحدهم ... حضارته العظمى

تقديم

إن خطة هذا الكتاب تقوم على دراسة تعالج حبة مهمة من تاريخ المغرب الإسلامي، منذ الفتح العربي حتى سقوط الإمارات المحلية في أربع الأخير من القرن الثامن الهجري، وقد باركت لعمل على إنجاز هذه الدراسة الملخصة لتزويد مكتبتنا و باحثين ودارسينا و طلبتنا بأحوج ما يكونون لى لمزيد من الدراسات لتاريخ هذه البلاد التى استعصت على الجبايرة والظالمين حين شرفه الإسلام و أصبحت جزءا لا يتجزأ من عالمه الذى بسط فى أكثر من ثلاثة أرباع العالم آنذاك.

و لا غرور، أن يلعب القارئ ، لجهود التى بذلت فى إعداد الكتب بما يضعه فى مصاف الكتب التى تصلح لتكون مراجع منهجية مساعدة و مقرة لدراسى التاريخ، والكتاب كذلك بمجملة دراسة موضوعية جامعية تنحو إلى التلخيص غير المخل بموضوعاته، نظراً إلى توضيحه وتيسيط عروضة التاريخية و بالاستناد إلى مصادر وافية و متنوعة بما تحمل من نصوص و أصول أولية قيمة و ما تتبع فى جمع مادته العلمية و ترتيبها و تنسيقها على نحو مفيد و متكامل.

و الكتاب بأبوابه و فصوله وموضوعاته وشروحه السوساسية و الاجتماعية والاقتصادية و الثقافية يقوم على أساس ' الكلية Totalite ' أى دراسة الشاملة و فى وحدة فيها شيء من التماسك الموضوعى و الخلاصة التحليلية التى دأبت على أن يكون التركيب الاجتماعى الاقتصادى الأساس لكل تحليل تاريخى فيه ، وليس واجهة ظاهرة لتاريخ المغرب الإسلامى و فى هذا الإطار ، فإن الدراسة التاريخية التى عول عليها الكتاب فيما يتعلق بالأحداث السياسية و العسكرية ووقائعها تضع الأساس للتاريخ الحقيقى لهذه البلاد الذى كان يتمثل فى عصوره المزدهرة فى جميع نواحي الحضارة الفكرية و العلمية.ذلك ليس لى الآن إلا أن أحرض طلبتنا و أبنائنا إلى التزود على حقائق تاريخنا فى جانبه المشرق ويتدبروها و يدركوا مقاصدها لى يسهل عليهم استلهاها لحاضرنا و مستقبلنا. و أغلب الظن، أن دعوتى لتوظيف كتاب دراسات فى المغرب الإسلامى لهذا الغرض سيساهم على إغناء طموحنا فى التوصل إلى استخلاصات مفيدة من الناحيتين النقدية و التحليلية

أ.د. صالح عمار الحاج

بين يدي القارئ

يصح القول، أن التاريخ، يحتل بين فروع المعرفة الإنسانية، مكانة متميزة، وتشغل المؤلفات التاريخية فيه نسبة كبيرة من الكتب والإصدارات في الشرق والغرب على السواء؛ وعلى الرغم من غلبة الاهتمام بالعلوم التكنولوجية والتطبيقية والطبية والرياضية والهندسية، على الاهتمام بما عداها، لا تزال المؤلفات التاريخية تحتل جانباً ضخماً مما ينشر كل عام¹، حتى أننا يمكن أن نستلقت النظر إلى هذا العصر الذي هو:

"عصر العقلية التاريخية" مما يتعين علينا، أن نكون لنا رؤية حضارية من خلال دراستنا لتاريخنا العربي الإسلامي بعالميه المشرقي والغربي.

وفي صفحات هذا الكتاب تتركز دراسة التجربة الإنسانية في عالم بلاد المغرب، الذي هو قطعة من العالم القديم توطد فيها الإسلام بما حمل إلى أهلها من بناء اجتماعي ومن مثل أخلاقي ومن غنى وتنوع لا حد لهما في العلم والسياسة والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي، بحيث أصبح هذا الغنى والتنوع مادة للتاريخ تثرى الحاضر والمستقبل في اعتبارها واستلهاها.

وغنى عن البيان، أن توزع المغرب الإسلامي إلى دول وإمارات وكيانات مطبقة مستقلة، كان مظهراً من مظاهر التماسك والقوة التي أنشأت ازدهار الحضارة الفكرية والمادية ووفرنا، الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ولعلنا نجد ذلك أو شيء منه في هذا الكتاب الذي سيكون عوناً لدارسينا ومتخصصينا في الدراسات التاريخية المغاربية.

وفي نهاية المطاف ندعو إخواننا وزميلاتنا الأستاذة والمهتمين، أن يقوموا بكتاب بأرائهم المتعددة وتوجيهاتهم الصائبة، كما نحث أبنائنا وإخواننا الطلبة والدارسين أن يجتثوا أكبر قدر من الفائدة، وأن تكون موضوعاته خطوطاً عامة

¹ أو بعبارة د/ حسين مؤنس، النوع الجديد من الكتب الذي يولاه نظر من أكاديم أهل الصداقة والأدب عن حواشي

التاريخ الجغرافي Current History ورجله أنظر، المؤرخون، دراسة في علم التاريخ ص 11

لدراساتهم وبحوثهم في المستقبل ، مع تقديرنا لكل من تكون كلمته منصفة للمضي
ومبجلة للباطل، فيبين مواضع القوة في هذه الدراسة أو مواطن الضعف فيها، بنقد
نزيه بناء يوم على الموضوعية والتجرد ويستهدف تعميق النظرة لتراثنا التاريخي
والخروج منه بمفاهيم وآراء يمكن توظيفها لخدمة حاضرنا ومستقبلنا.

أ.د. سوادى عبد محمد

مدخل إلى المغرب الإسلامي

على مدى القرون الثلاثة التي سبقت دخول الإسلام إلى بلاد المغرب كانت الموجات الجرمانية المتبربرة ولاسيما الوندال والسواك و الأثن قد وضعت هدفها لها في الوصول إلى هذه البلاد، نظرا لثرواتها الوفيرة ولم تستطع الإمبراطورية الرومانية التي كانت تسيطر هيمنتها عليها أن تصد هذه السيول الجارفة، غير أن الوندال تفردوا في الظهور على السواحل الأفريقية ؛ ولكي يحكم هؤلاء سيطرتهم على المغرب نشروا الدمار والموت والخراب في أكثر المدن والمراكز الحضرية فيه، وما لبسوا بعد أن تمكنوا من هذه المدن، أن اجتاحتها موريثانيا الطنجية وطرابلس..

وفي منتصف القرن السادس قبل الميلاد، استطاعت القبائل المغربية سكان البلاد الأصليين، أن تلجؤ ضد الوندال بدخل مقاتلوها فرطاجنة ثم راحوا يحرقون منهم الواحدة تلو الأخرى.. ولكن هذه البلاد عادت لتقع هذه المرة في قبضة الإمبراطورية البيزنطية التي احتفظت حتى سنة 21هـ/642 م حيث بدأت المحاولات الأولى بقيادة عمرو بن العاص لتحريرها، ففي سنة 48هـ/647 م فتحت ليبيا وتونس ثم استكمل فتح شمال أفريقيا سنة 82 هـ/ 701م على يد الفاتح العربي عقبة بن نافع الذي أسس مدينة القيروان كقاعدة عسكرية ثم انطلق نحو الغرب حتى وصل إلى شواطئ المحيط الأطلسي ثم أعقبه بين سنتي 82 هـ/ 701 م و 92 هـ/710م موسى بن نصير الذي أتم فتح ما تبقى من بلاد المغرب.

وهكذا ينبغي علينا أن نصف الأحداث التي توجت بدخول المسلمين إلى بلاد المغرب بأنها كانت إلهاماً لولادة جديدة لهذه البلاد في ظل الإسلام التي أنجبت مولودها " المغرب الإسلامي " .

المقدمة

نطاق البحث - تحليل المصادر

يعرض هذا الكتاب محاولة لدراسة التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي لبلدان المغرب الإسلامي منذ الربع الأخير من القرن الثاني الهجري حتى نهاية القرن العاشر، ويمكن للمتخصصين والمنتبهين أن يجنوا بعض الفائدة مما يكتسب فيه من جهد من حيث العرض والروح التحليلية والنقدية وتمحيص الروايات واستجلاء الحفنة التاريخية بالاستناد إلى المعلومات الموثقة بالنصوص والأصول المعتمدة إلى جانب التماس العروض الواضحة والمفيدة لموضوعاته ولصوله وإصابتها تبسيطاً لا يخل بعق مبادئه العلمية.

ومع أن الحقبة التي تناولتها هذه الدراسة، استغرقت أكثر من ثمانية قرون استوعبت أحداثاً غير قليلة، يحتاج كل منها إلى تفاصيل خاصة، ولكن تحقيق التوافق الموضوعي يقتضي استعراض تاريخها من جوانبه السياسية والعسكرية والحضارية بما فيها الأحوال الفكرية والاجتماعية والاقتصادية، وباعتقادنا أن الدراسة على هذا الأسلوب، تعين الباحث على تقديم صورة واضحة لمسيرة التاريخ العربي الإسلامي وأحداثه، وتساعد على استنتاجات مهمة للأخص التي تركز عليها الحضارة العربية الإسلامية. كما أن الموضوعات التي عثت فصول هذه الكتاب باستيعابها وخصوصاً فيما يتعلق بالتاريخ السياسي والعسكري، سيكون لها تأثيراتها في مجرى التاريخ الحضاري في المغرب الإسلامي ومستقبل عليها تطورات بعيدة المدى في تاريخ العالم الإسلامي لذلك حاولنا جهدنا أن تطبق هذا المنهج ونعتمده، ولعل القارئ يلمس ذلك من خلال تتبعه لهذه الدراسة واستيعابه لخطوطها العامة و سيتضح له أخيراً أنها تقدم معنى فيه بعض التوضيح للنظرة الشاملة للحقبة التاريخية.

يقوم الكتاب على ثلاثة أبواب رئيسية، و يتخذ في كل باب منها بعدد من الفصول، فالباب الأول الذي يعنى (بالأحوال العامة في بلاد المغرب) يضم ثلاثة

فصول أولهم في خريطة بلاد المغرب بدراسة الحدود التي جاءت في كتب الجغرافيين المسلمين و المناطق المسهلة و الواحات و التقسيمات الإدارية والإقليمية والموارد المائية وفي سكان المغرب الإسلامي منهم العرب و القبائل المغربية .وثانيهم الفتح الإسلامي لبلاد المغرب و يكرس هذا الفصل محاولات الفتح الأولى ثم الفتوح الإسلامية في ليبيا و تونس و الجزائر، أما الأخير فيدرس عصر الولاة وخاصة ولاية المغرب في العصر الأموي ، كما يحى بتوضيح سياسة الانفصال في المغرب الإسلامي .

وينتصب الباب الثاني (قيام الإمارات و الدول و أحوالها و علاقاتها السياسية و الإدارية) على ثمانية فصول، تتقدم في الفصل الرابع منها دراسة إمارة بني مدرار في المغرب الأقصى، قيامها و تأسيس عاصمتها سجلماسة ثم علاقاتها السياسية بالخلافة العباسية و بالرسنميين و الأدارسة، وفي الفصل الخامس بحث عن إمارة بني رستم في المغرب الأوسط و تنصده محاولة عبد الأعلى بن المسمع المعطري إقامة إمارته في منطقة غربي طرابلس يعرف باسم ' الصيد ' غير أن جهوده فشلت و لم تستطع الحركة الإباضية التي كان يتزعمها أن تصمد أمام الجيوش العباسية. و لكن عبد الرحمن بن رستم و هو أحد رجاله استطاع أن يؤسس إمارة خرفت بالإمارة الرسنمية في مدينة تاهرت التي شيدها و أصبحت قاعدة وعاصمة إمارة. ويستكمل هذا الفصل بموضوع العلاقات السياسية بين قرسنميين والأدارسة وأسيوي الأندلس. أما إمارة الأدارسة فقد تخصص فيها الفصل السادس من حيث قيامها وبناء مدينة فاس حاضرة لهم و علاقاتهم مع الخلفاء العباسيين التي تميزت بالطابع العدائي، و تضمن الفصل السابع دراسة عن إمارة الأخالفة في المغرب الأدنى و اشتراطات الخلافة العباسية لتصبيهم و إقامة كيان لهم يكون حليفاً لها في المنطقة و اتخاذهم القيرون عاصمة لهم و جهودهم العسكرية في فتح جزيرة صقلية و التوقف عند علاقاتهم المتميزة بالخلفاء العباسيين.

أما قيام الخلافة الفاطمية في بلاد المغرب فقد تضمنها الفصل الثامن من حيث تنصده تمهيد عن الفاطميين و قلهورهم على مسرح التاريخ وسعيهم في استكمال

قيام دولتهم بتأسيس مدينة المهدية و انخراطها عاصمة و تطرق الفصل إلى علاقاتهم السياسية في نطلق وجودهم في المغرب الإسلامي و بخاصة مع دولة بني العباس فشرح موقف العباسيين منهم و كذلك طبيعة المناوشات فيما بينهم حول جزيرة صقلية التي كانت تحت نوايا الأغلبية ، و تطلمعهم نحو السيادة المصرية و حملاتهم العسكرية التي توجت بانتقال دولتهم إليها. و تذييل هذا الفصل بالتحديث علاقات الفاطميين مع أمويي الأندلس. و في الفصل التاسع من هذا الباب نقرأ دراسة عن دولة المرابطين و أصلهم و تأسيسهم لمدينة مراكش التي أصبحت من أهم المراكز الحضارية في المغرب الإسلامي وعلاقتهم مع الخلافة العباسية التي تميزت بالإعتدال و التقارب ، و يبقى الفصل العاشر بعض الضوء على دولة الموحدين و تحول دعوتهم الدينية إلى حركة سياسية استهدفت إسقاط دولة المرابطين و إقامة دولتهم على أنقاضها . كما شرح علاقات الموحدين بخلفاء بني العباس حيث قطعوا الخطبة لهم و تلقبوا بلقب أمير المؤمنين و هو لقب الخلافة و لم يعترفوا بالتقليد والأعلام والشارات التي كانت ترسلها الخلافة لمن ينضوي تحت لوائها، و بهتم الفصل الحادي عشر بدراسة إمارة بني مرين التي خلفت الموحدين بعد أن قوضت دولتهم و كذلك مساهمتهم في إيجاد أهل الأندلس من تمردات القشتاليين و المعارك الأنشائية الشمالية و دراسة الإمارات العظيمة في المغرب الإسلامي حيث أفكسر على إمارتي بني عبد الواد و إمارة بني حفص فضلاً عن الدور الذي كان يلعبه المغرب الإسلامي في إحتضان العرب المسلمين المهاجرين من الأندلس بعد سقوط مملكة غرناطة.

و استوعب الباب الثالث الذي عقد لموضوع تلخيص حضارة المغرب الإسلامي فصلين، الفصل الثاني عشر منهما عن الحضارة الفكرية و الثقافية حيث أوضح إسهامات بني رستم و بني مدرار والأدراسة والأغلبية والفاطميين والمرابطين و الموحدين و بني مرين في تشجيع العلم و المعرفة والأخذ بيد العلماء و الفقهاء و الشعراء و أصحاب الفكر والفلسفة وإقامة المساجد والجوامع و دور العلم و منشآته و المدارس والمكتبات وإحتواء الكتب و المجلدات و التصنيفات وعقد المناظرات

العلمية حيث كان العلماء والمفكرون يتناقشون و يتناظرون و يتطرحون في العلوم الدينية والعقلية واللغة والشعر وغيرها من صنوف المعرفة والأدب .

لما الفصل الثالث عشر و الأخير لقد نعلق بالنظم السياسية والاجتماعية و الاقتصادية للإمارات و الدول التي احتواها المغرب الإسلامي فتحدث عن نظام الوراثة في الحكم و القوانين و الرسوم التي كانت تحكم سياستهم و إدراتهم طبقاً لمبادئهم و مذاهبهم واتجاهاتهم و كذلك فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية داخل حواضرهم وعواصمهم ومدنهم و مراكزهم و الوضع الاجتماعي لقبائل المغرب الذي تشكل بعد قيام إماراتهم ودولهم و النفوذ الاجتماعي للفئات و العناصر التي كانت تدبر النشاط الاقتصادي الذي كان يتمثل بالزراعة والصناعة والتجارة والنظام النقدي و السكة.

أما القول هنا، أن هذا الكتاب يقدم صورة ربما فيها من التوضوح ما يساعد على الفهم الحضاري للتأثيرات التي تركها المغرب الإسلامي في الجوانب الفكرية والثقافية والعلمية في مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية و في جوانب الحضارة الروحية والمادية التي نشأها المسلمون في هذه المنطقة من العالم الإسلامي.

لقد تطلبت هذه الدراسة، الرجوع إلى مصادر و مراجع كثيرة ومتنوعة، عربية وغير عربية، مخطوطة ومنشورة، تاريخية وجغرافية، لغوية وأدبية، وموسوعات وقواميس وبيبليوغرافيات ومعاجم وفهارس وموارد وغيرها، فلي هذه المجموعات من الكتب مادة على قدر من الأهمية لموضوعاتها، و خصوصاً فيما يتعلق بالأحوال و العلاقات السياسية والعسكرية، غير أن مهمتنا فيما يخص المساهمات و الجهود في نطاق الحضارة الروحية والفكرية والمادية وفي النشاط الاجتماعي و الاقتصادي لبلدان المغرب الإسلامي و أهله، كانت صعبة، لأن المصادر التاريخية المعاصرة للحقبة التي نضى بدراستها قليلة ومنقودة و المعلومات فيما يتوفر منها مشتقة و موزعة بين هذه الكتب.

ولعل من أبرز المصادر التي استندنا عليها لتوثيق دراستنا و شكلت معلوماتها هيكلها عاما لبحوث الكتاب و فصوله يأتي في مقدمتها، كتاب المالكي(المكوفي في

نهاية القرن الرابع الهجرى) الموسوم رياض النفوس فى طغات القيروان وأفريقية
وكتاب أبى عبيد البكرى (المتوفى فى 487 هـ) "المغرب فى نكربلاء
أفريقية والمغرب" وكتاب ابن عذارى (المتوفى فى 695 هـ) "البيان المغرب فى
أخبار الأندلس والمغرب" كما نقرأ فى كتاب القيروانى (المتوفى فى النصف الأول
من القرن الخامس الهجرى) "تاريخ أفريقية والمغرب" وكتاب محسى الدين
المراكشى (المتوفى فى 647 هـ) "المعجب فى تلخيص أخبار المغرب" وكتاب ابن
خلدون (المتوفى 808 هـ) "العبر وديوان المبتدا والخبر" وكتاب ابن أبى
دينار (المتوفى 1092 هـ) "المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس" وكتاب المقرئ
(المتوفى 1041 هـ) "تلح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" حقائق مكملة
لمعلوماتنا عن بلاد المغرب الإسلامى. أما الشريف الأندلسى (المتوفى 558 هـ) فى
كتابه "صفة المغرب وأرض السودان" (وهو قطعة من كتاب نزهة المشتاق فى
إفتراق الأفاق) والمؤلف المجهول فى كتابه "الإستبصار فى عجائب الأمصار" وابن
شاهين الظاهرى (المتوفى 873 هـ) "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والممالك"
والحميرى (المتوفى 960 هـ) فى كتابه "الروض المعطار فى خبر الاقطار" فإن
هؤلاء المؤرخين يبرزون طبيعة بلاد المغرب وأفريقية من الناحيتين السياسية
والإدارية. و تحدثت المصادر عن حواضر المغرب ومدنه وبخاصة مدينة فاس فقد
ذكر ابن أبى زرع (المتوفى 720 هـ) فى مؤلفه المصنوع "الأنيس المطرب بروض
القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" والجزائلى (المتوفى فى آخر
القرن الثامن الهجرى) فى كتابه "زهرة الآس فى بناء مدينة فاس" وكان لهذين
المصدرين أهميتها فى إعداد دراسة مفيدة عن مدينة فاس التى كانت تمثل مركزاً
حضارياً مهماً من مراكز المغرب. أما المصادر التى استقينا منها معلوماتنا عن
تاريخ دول الخوارج فى المغرب الإسلامى فيقدمها كتاب ابن الصغير المائلى
(المتوفى فى نهاية القرن الثالث الهجرى) الموسوم "أخبار الأئمة الرسميين" وكتاب
أبى زكريا (المتوفى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى) "السيرة وأخبار
الأئمة" وكتاب الترجينى (المتوفى منتصف القرن الرابع الهجرى) "طبقات

الإباضية كما يقدم لكل من إسماعيل الدين بن الخطيب (المتوفى 940 هـ) ضمن كتابه "أعمال الأعلام" وهو مغربي، وابن الأثير (المتوفى 630 هـ) في كتابه "الكامل في التاريخ" وهو من أهل المشرق، معلومات متفرقة عن أحداث مختلفة لهدف مساس مباشر بأبواب الكتاب وقصوده.

ومن الكتب والمصنفات الجغرافية الإسلامية نقتبس معلوماتنا في جغرافية بلاد المغرب، حدودها ومناطقها وتقسيماتها الإدارية والإقليمية وسكانها ومواردها وعلى رأس هذه القائمة من الكتب، كتاب البغوي (المتوفى 284 هـ) "البلدان" وكتاب ابن خرداذبة (المتوفى 300 هـ) "المسالك والمعالك" وكتاب ابن حوقل (المتوفى 367 هـ) "صورة الأرض" وكتاب المقدسي (المتوفى 375 هـ) "المعجم التقسيم في معرفة الأقاليم" وكتاب ياقوت (المتوفى 626 هـ) "معجم البلدان" وكتاب أبي (المتوفى 732 هـ) "تقويم البلدان".

أما الفصل الذي عقد لموضوع الفتح الإسلامي في بلاد المغرب، فتوثقه كتب الفتح ومنها تذكر، كتابي ابن عبد الحكم (المتوفى 276 هـ) "فتوح مصر والمغرب" والآخر "فتوح أفريقيا والأندلس"، وكتاب البلاذري (المتوفى 279 هـ) "فتوح البلدان" وذلك ضمن المصادر التي اعتمدناها في دراسة الفتح الإسلامية في ليبيا وفتح البلاد التونسية (منطقة المغرب الأدنى) وفتح الجزائر (منطقتي المغرب الأوسط والأقصى).

وفي الدراسات الحديثة نجد بعض الآراء والتحليلات المفيدة لبحوثنا في هذا الكتاب وخصوصاً لدى الدكتور عبد العزيز سالم في كتابه "المغرب الكبير" والدكتور الحبيب الجلهاني في كتابه "المغرب الإسلامي" والدكتور محمود إسماعيل في كتابه "الخوارج في المغرب الإسلامي" وفي دراسة الدولة الفاطمية التي يُعد تاريخاً مرحلة مهمة من تاريخ المغرب السياسي والاجتماعي والحضاري، وكتب الدكتور حسن إبراهيم حسن، كتابه الموسوم "تاريخ الدولة الفاطمية" والدكتور موسى لحيال وكتابته "تور كتابه في تاريخ الدولة الفاطمية" حيث أوردنا تمحيصاً دقيقاً للروايات والنصوص المتعلقة بهذا الجانب.

ونقرأ في كتاب المستشرق فاسيلي بارتكود المغرب تاريخ الحضارة الإسلامية وكتاب المستشرق آدم منر المغرب "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري" معلومات عن الأنشطة الحضارية والمدنية للإمارات و الدول التي تفككت المغرب الإسلامي كما إننا وجدنا بعض الآراء المفيدة في عدد من الكتب الأجنبية يمكن أن تمن في إيضاح بعض المعلومات في موضوعات مختلفة من بحثنا ومن هذه الكتب كتاب المستشرق مارسيه

• W.Marcais "La Berls Musulane" et "Oriënt aumagenage" وكتاب هيد
Hoyed.W."Hostoire du Commerce du Levant au Mogen-age"

بريسكوت W.Prescott History of Ferdinand and Isabella the catholic
ويجدر بنا قبل أن نفرغ من هذه المقدمة، أن نردد مع أنفسنا في الأكل إننا بذلنا جهوداً غير قليلة في تأليف هذا الكتاب و إعداده، ويمكن للقارئ أن يتلمس هذه الجهود من خلال تصفح الكتاب و استعراض أبوابه و فصوله بما يجعله يقتنع، إن اهتمامنا كان منصّباً على السير نحو الهدف الذي كنا نسعى إليه، وهو تبيان الحقيقة و إظهارها بطريقة صحيحة و بأسلوب موضوعي و بمنهجية علمية، و الابتعاد عن المبالغة في وصف الماضي التي لا تجدي نفعاً، إذ إن معرفة هذا الماضي على حقيقته أقوم في خدمة الإنسان المعاصر في سعيه إلى غد مشرق وضاء. كما إن العرض التاريخي الذي التمت به مادة الكتاب، به من الوضوح والتميز، بحيث ينال للمتخصص و المبتدع والقارئ، أن يستلهم تاريخ المغرب الإسلامي في صفحاته المشرقة لحاضره و مستقبله.

ومهما يكن من أمر، فإنه ينبغي أن تحت موضوعات الكتاب، المتخصصين في تاريخ المغرب والأندلس و القراء المنابعين و طلبة الأعراف، على المزيد من الإطلاع على المصادر و المراجع المختلفة الأخرى التي لم يتح لنا تناولها بغية الحصول على معلومات جديدة و لتحقيق التوثيق التاريخي و اجتناء أكبر قدر ممكن من الفائدة العلمية. ولكن يجب علينا أن لا نبالغ في الحد الذي يجعل من الصعوبات التي واجهتنا خلال العمل على إنجاز، عبئاً في إعداد بحث منهجي

يقوم على الموضوعية، فقد أمكن تخطي هذه الصعوبات، غير أنها ظلت سطحية لا تمس ما انتهينا إليه في هذا البحث من نتائج على قدر من الأهمية التاريخية.

وإلى تعالى من وراء القصد

الباب الأول
الأحوال العامة في بلاد المغرب

ثلاثة فصول

الفصل الأول

جغرافية بلاد المغرب

1. حدود المغرب في كتب الجغرافيين المسلمين
2. المناطق السهلية و الجبلية والواحات
3. التقسيمات الإدارية و الإقليمية
4. سكان المغرب الإسلامي
 - أ. العرب
 - ب. القبائل المغربية
5. الموارد المائية: الأنهار، الأمطار، العيون.

الفصل الأول

جغرافية بلاد المغرب

حدود المغرب في كتب الجغرافيين المسلمين:

اصطلح على جميع البلاد التي تلى مصر غرباً حتى المحيط الأطلسي بما فيها أفريقية الشمالية ، منذ القدم العصور بأسماء مختلفة فكان الإغريق يسمون الجزء الشمالي منها الذي يسكنه العنصر الأبيض باسم "ليبو" أو "لوبيبا" أو ليبيا فيما كانوا يسمون الصحراء ببلاد الأحياء السود. ولفظ أفريقية Africa أطلقه الرومان على الإقليم الذي يقابل اليوم الجزء الشمالي الشرقي من البلاد التونسية وهو يشمل على قرطاجنة و ما حولها حتى نومديا، وكان يعرف على عهد الرومان بولاية أفريقية القتصلية. الذي غرب فيما بعد إلى كلمة أفريقية وقد أطلقه العرب في بادئ الأمر على جميع بلاد المغرب فيما عدا طرابلس و برقة ثم انحصر اسم أفريقية بعد ذلك على جميع البلدان التي تلى مصر غرباً حتى بجاية و أطلق اسم المغرب على البلاد التي تلى بجاية غرباً حتى المحيط الأطلسي .

أن أصل كلمة أفريقية مشتق من كلمة أفري Aphri التي أطلقها الفينيقيون على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون مدينتهم يونكا Utica وعاصمتهم قرطاجنة ثم عثم اليونانيون على جميع سكان البلاد الذين يسكنون المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي . وقد أجمع المؤرخون و الجغرافيون العرب على أن بلاد المغرب تمتد من طرابلس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً وإن من طرابلس إلى الشرق لا يدخل في اصطلاح المغرب .

ومن الجدير بالذكر، أن الجغرافيين المسلمين تناولوا في كتبهم وتأليفهم اصطلاح المغرب ، فيشير المؤرخون و الجغرافيون المغاربة ومنهم ابن عبد الحكم إلى أن المغرب هي البلاد التي تلى بجاية حتى بحر (الظلمات) المحيط الأطلسي⁽¹⁾

⁽¹⁾ فتوح أفريقية والأندلس ص 42-43

ويحدد البكري، أفريقية طولا من برقة شرقاً إلى طنجة في المملكة المغربية غرباً⁽¹⁾. أما الحدود التي رسمها ابن عذاري المراكشي لبلاط المغرب، فهي من تاهرت (عاصمة الرستميين) إلى مدينة سلا ويسمى بلاد طنجة و يدخل الأندلس في هذا الإقليم⁽²⁾، ويذكر عبد الواحد المراكشي تحديدين لبلاد المغرب: الأول ويسميه أفريقية ويبدأ من تطاليس في ليبيا شرقاً إلى قسطنطينية في الجزائر غرباً، والثاني يسميه المغرب ويبدأ من قسطنطينية في الجزائر شرقاً إلى مدينة طنجة غرباً⁽³⁾، ثم يقول: ما بعد قسطنطينية فهو من المغرب غير أفريقية⁽⁴⁾. ونجد في كتاب السلوى تحديداً للمغرب ويبدأ من برقة في ليبيا شرقاً إلى المحيط الأطلنسي غرباً بما في ذلك إقليم طرابلس⁽⁵⁾.

أما في كتب الجغرافيين المشارقة فهناك تعريفات مختلفة أحياناً، يذكر ابن حوقل، إن المغرب " من مصر وبرقة إلى أفريقية وناحية تنس إلى سبتة وطنجة"⁽⁶⁾ ويجعل المقدسي حدود المغرب من مصر إلى السوس الأقصى وجزيرة صقلية و الأندلس⁽⁷⁾ أما ياقوت فيحدد أفريقية ويجعل ضمنها المغرب بقوله أفريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة صقلية و ينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس⁽⁸⁾، ثم يقول أيضاً: "وحد الأفريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة و الأستغفريية إلى بجاية"⁽⁹⁾.

(1) المغرب في بلاد الأندلس و المغرب ص 21.

(2) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 1 ص 5.

(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 347-357.

(4) المصدر نفسه ص 442.

(5) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 33.

(6) صورة الأرض ص 662.

(7) احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص 216 .

(8) معجم البلدان ج 1 ص 228، 229 .

المناطق السهلية و الجبلية و الواحات

ترتبط بلاد المغرب جغرافياً وتكنولوجياً بالإمتداد الطبيعي لجبال الأطلس المنفرعة من المجموعة الألبية التي تتوسط المغرب و تمتد من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق وذلك بسلسلتين: إحداهما شمالية وتسمى جبال الريف التي تمتد قريباً من السواحل الواقعة بين طنجة و مليلة، ثم جبال الأطلس التي ولاتيهما، جنوبية تمتد في الصحراء الداخلية اعتباراً من جنوب وادي السوس عبر الصحراء إلى جبال أوراس وجبال زغوان التي تقع جنوبي تونس. إن سلسلة جبال الأطلس الشمالية، وهي السلسلة الأولى وتنقسم إلى مجموعتين: الأولى جبال الريف أو جبال أطلس الغربية وتظهر فيها جبال أطلس الساحل المتاخمة للنهاية الجنوبية الغربية لجبال سيرا نيفا و الإسبانية و يطلق عليها (جبال شلير) وهي كبلية الإرتفاع وأكثرها إرتفاعاً جبل بني حمن الذي يبلغ إرتفاعه ما يقرب من ألفي متر. وتكون هذه الجبال شكلاً أقرب إلى القوس يحتضن الساحل الشمالي الممتد من سبتة إلى مليلة، ويترك سهلاً ضيقاً في هذه المنطقة. أما المجموعة الثانية فهي جبال الأطلس التي وهي سلسلة تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي باستمرار لجبال الريف السطحية وتعتز هذه السلسلة بإرتفاعها وحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية وكذلك نحو أعراض الأنهار الجنوبية المنعزلة بين جبال الأطلس التي وأطلس المتوسط وخصوصاً في القسم الغربي من منطقة المغرب الأوسط. أما الجزء الشرقي من هذه المجموعة فلكل إرتفاعاً وأكثر تقطعاً ثم تستمر جبال الأطلس التي

في الإمتداد شرقاً حتى تنتهي بجبال خمير في منطقة المغرب الأدنى.

أما السلسلة الثانية فهي جبال الأطلس الجنوبية أو الأطلس الصحراوي ويسمونها إين خلدون (جبال درن)⁽¹⁾ وتبدأ من منطقة المغرب الأقصى وتسمى جبال الأطلس الكبير وهي أكثر جبال الأطلس إرتفاعاً، كما إنها عديمة الممرات، مما تركبت تأثيرها في منطقة المغرب الأقصى عن سائر بلاد المغرب، وتجد في هذه السلسلة

⁽¹⁾ صحر وديوان المبدأ والخروج 6 من 100.

(جبال القياشي) الذي يتراوح ارتفاعه بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف متر. ثم عسمر جبال الأطلس الكبرى بامتدادها إلى المغرب الأوسط وهي تشتمل على (جبال القصور) (جبال العمور) (جبال أولاد نابل) و (جبال الزاب) و (جبال أوراس) وتنتهي بـ (جبال زغوان) في المغرب الأدنى، وأغلب هذه الجبال تكتسوها الغابات وتتوجها الثلوج. و نلاحظ أن الهضاب أو السهول المرتفعة تنحصر بين هاتين السلسلتين حيث يشتغل فيها السكان برعى الماشية، وإن أغلب هذه الهضاب تقع بين جبال الأطلس شتلى و الأطلس الصحراوي في المغرب الأوسط كما تقع إلى شمال سلسلة جبال الأطلس الكبرى سلسلة جبال الأطلس الوسطى وتسمى أحيانا الأطلس الصغرى ولكن يقب عليها طابع الهضاب أكثر من الطابع الجبلي وبخاصة في الجنوب الغربي منها ، وتبدو واضحة المعالم في حدودها الجنوبية الغربية حيث تشرف على سهل تادلا وكذلك حدودها الشرقية حيث يجري هناك نهر ملوية، أما في الشمال فيقع ممر تازة وهو المدخل الوحيد إلى منطقة المغرب الأقصى، ونتيجة لانحصانها بجبال الأطلس الكبرى فإنه من الصعب تمييزها عنها في حدودها الجنوبية.

وتعد جبال الأطلس الوسطى، المصدر الدائم لمياه الأنهار والعيون ونلاحظ أن الهضاب المغربية تمتد بين جبال الأطلس الكبرى والوسطى حتى المحيط الأطلسي، وفي منطقة المغرب الأقصى توجد (هضبة المزيता) وفي منطقة المغرب الوسطى تمتد هضبة الشطوط التي تتميز ببحيراتها وبنها يقع ممر تازة .

أما المناطق السهلية فأغلبها تقع على ساحل المحيط الأطلسي و ساحل العود والبحر المتوسط، وفي ساحل البحر المتوسط تظهر السهول بمناطق محدودة وأشهر سهول المغرب الأقصى "سهل شاوية" و "سهل نكالة" و "سهل عيدة" أما سهول المغرب الأدنى الساحلية فتتكد لا تنكر لضيقها وذلك بسبب إقتراب الجبال من الساحل التونسي .

وقد تكونت بعض السهول حول وديان صغيرة تجري فيها النهار ومنها سهل مأكنة و "سهل زيق" في منطقة مدينة وهران بالجزائر و (سهل وادي شليف) في

منطقة المغرب الأوسط و"سهل وادي مجردة" في منطقة المغرب الأدنى و"سهل وادي مجردة" في منطقة المغرب الأدنى و"سهل وادي ملوية" و"سهل مكناس" في منطقة المغرب الأقصى وكلا هذين السهلين مرتفع.

كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية:

الأولى تمتد من مصب نهر تسيغت إلى وادي ملوية ويضمها السهل المطل على المحيط الأطلسي و(سهل سيو) و(سهل معر تازة) و(سهل ملوية الدنيا) التي تتشكل فيها الطرق الطبيعية الممتدة بين جبال الأطلس ومنطقة المغرب الأوسط؛ والمجموعة الثانية تشتمل على (سهل الحوز) الذي يخترقه نهر تسيغت ثم منخفض تادلا. أما سهول المغرب الأدنى في الولاية الليبية والتونسية فتشتمل على سهول داخلية يقع أغلبها حول الواحات، وقد أشار إليها ابن خلدون، فذكر منطقة الجريد جنوب المغرب الأدنى، وهي (تفطة ونوزر وفضة) وهذه جميعا تسمى بلاد قسطينية.⁽¹⁾

⁽¹⁾ المصدر السابق ج 4 ص 104 -

التقسيمات الإدارية والإقليمية

بدأت منذ القرن الثاني الهجري تظهر في مسميات العرب لبلاد المغرب مفاهيم وإصطلاحات، تدل على تقسيمات إدارية وإقليمية ثلاثة لهذه البلاد أولاً: المغرب الأدنى:

وكان يسميه العرب في كتاباتهم وتأليفهم "أفريقية" فيذكر البكري أفريقية نضى صاحبة السماء "كما إنها سميت كذلك لأن أفريقي بن أبرهة ابن قراش غزا نحو المغرب حتى ألتهى إلى أرض طنجة فبنى أفريقية فسميت باسمه، وقيل سميت بأفريق بن إبراهيم عليه السلام من زوجته الثانية قنطورى. وقال آخرون، إنما سُموا الأفارقة " لأنهم من ولد فاروق بن مصرم، وقد زعموا أن اسم أفريقية امرأة لبيبة سميت ببنت يافوخ بن بونش الذي بنى مدينة منلبس بمصر، وقد ملكت هذه المرأة ملك أفريقية لجمع فسمى بها.⁽¹⁾

لقد أطلق اسم المغرب الأدنى على هذه البلاد لأنها أقرب إلى الإدارة المركزية للدولة العربية الإسلامية ودار الخلافة في بلاد الشام أو العراق. ويمتد المغرب الأدنى من طرابلس شرقاً حتى بجاية أو مدينة ناهرت شرقاً، وأحياناً يحددها بعض المؤرخين والجغرافيين من خليج سرت شرقاً حتى المحيط الأطلنسى غرباً، ويمكن القول إستناداً إلى بعض المصادر أن مركز المغرب الأدنى هو مدينة "الفيرون". أما في الوقت الحاضر فإن هذا المفهوم يشمل ليبيا وتونس وبعض الجزاء الشرقية من الجزائر .

ثانياً: المغرب الأوسط:

ويمتد من مدينة ناهرت شرقاً حتى وادي نهر ملوية وسلسلة جبال تازة غرباً، ومركز هذا الإقليم مدينة ناهرت عاصمة الدولة لرسنمية الإباهضية وبالقرب من ناهرت Tiatat في وهران Oran في بلاد الجزائر.

⁽¹⁾المسلك والملك ج 2 ص 471.

ثالثاً: المغرب الأقصى:

ويمتد من وادي نهر ملوية شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، كما لأنه امتداد للمغرب الأوسط، ويفصل بينهما نهر ملوية، وتتمثل مناطق المغرب الأقصى اليوم بالمملكة المغربية. كما إن بعض المؤرخين الممثلين يجعل الأندلس ضمن المغرب الأقصى وبعضهم الآخر يحدده ضمن المغرب الإسلامي عامة، وإن أفريقية كانت تشمل المغرب الأدنى وليبيا وإقليم تونس حتى مدينة قسطنطينة شرق الجزائر. أما مفهوم المغرب الإسلامي الذي تكرر في كتب المؤرخين والجغرافيين والبلدانيين فيطلق على جميع المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وربما الأندلس إعتباراً من خليج سرت شرقاً أو برقة حتى المحيط الأطلسي أو شبه جزيرة إيبيريا، وهناك من يقول إن لفظ المغرب اسم إضافي على مكان في جهة الشرق وتحديداً على مصر. وقد اكتسب اللفظ مفهوماً جغرافياً وسياسياً خلال التاريخ الإسلامي والتعريف الذي نعني به بلاد المغرب الإسلامي يستند إلى ثلاثة أسس، أولها الحواجز الطبيعية مثل الجبال والسهول والأنهار أو المناطق الصحراوية وثانيها التركيب البشري والمكاني الذي يتحدد في الأقاليم التي تشكل هذا المفهوم وثالثها، الوضع الإدارية والظروف السياسية التي تعود خلال الحقب التي مرت منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ومهما يكن من أمر فإن مفهوم المغرب الإسلامي، هو سياسي يختلف من عصر إلى آخر. ونقرأ اصطلاح 'شمال أفريقية' الذي يشير إلى جميع المناطق التي تقع ضمن كل من تونس والجزائر والمغرب باستبعاد ليبيا وهذا الاصطلاح يتضمن حسب المصادر العربية لفظة 'أفريقية' التي كانت تختلط أحياناً بالمفهوم الكلي لكلمة المغرب التي لابد أن تتضمن جميع الدول الواقعة شمال أفريقية ابتداء من ليبيا حتى سواحل المحيط الأطلسي.

سكان المغرب الإسلامي

بتألف سكان المغرب، بعد توطد الفتوحات الإسلامية فيه من عناصر مختلفة وأهمها:
أولاً: العرب

يشكل العرب اليمانيون العنصرين الغالبية في مجموع العرب الساكنين في بلاد المغرب، وكان يطلق عليهم "عرب المغرب" أو "العرب البلبليون" أو "العرب الأفرقة" وأكثرهم من اليمن وأهل الحجاز ويمثلون الأكثرية الساحقة من سكان المغرب. والظاهر أن هؤلاء العرب هم أنفسهم الذين كانوا التحقوا في الحملة المتوجهة من مصر إلى شمال إفريقيا لغرض الفتح فاختلطوا لهم خلطاً في مدنسة القيروان وصاروا خلال القرن الأول الهجري يولفون جزءاً كبيراً من سكانه في القرون التالية ...

ويمكن القول، إن العرب الأفرقة هو في الواقع من أقدم بيوت العرب المحررين الذين إستقروا بإفريقية منذ تأسيس مدينة القيروان على يد القائد العربي عقبة بن نافع الفهري، وكان معظم هؤلاء العرب يقيمون في مدينة "تلمسة" التي تعرضت فيما بعد إلى هجوم بعض القبائل المغربية التي استهدفت لوجود العربي هناك حيث أبعد أكثر من سبع مائة من وجوه العرب وأبطالهم معا آثار حفيظة عرب إفريقيا عامة وإلى مقدمتهم عرب تميم وعرب الجزيرة العربية وقبائل عرب الأربس (أو الأربس قرية كبيرة تقع شمال مدينة تونس) وكذلك بنى باجة حيث اتحدوهم ضد هجمات القبائل وتعدياتها.

ولما حل موسى بن نصير وإياها للمغرب آزرد العرب اليمانيون حتى سنة 96 هـ حيث برز بعد ذلك العرب القيسيون على مسرح الأحداث بقودها إوالي محمد بن يزيد القيسي، غير أن نفوذ العرب اليمانيون لم يلبث أن عاد من جديد في عهد ولاية يزيد بن أبي المسلم سنة (101-103 هـ) ولكن مع ذلك فإن نفوذ العرب القيسيون ازداد انتشاراً في البلاد ولم يسدل الستار عنهم إلا بعد أن تولى بشر بن صفوان اليماني، ثم استمر العرب اليمانيون بمسودون في البلاد حتى سنة

116هـ. حيث ولى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب الذي كان قيسياً. فأعاد سيادة العرب القيسيين. ومن المفيد القول أن العلاقات بين اليمنية والقيسية في بلاد المغرب هي في الحقيقة بين البلدين من عرب المغرب وبين العرب الطازنين عليه من المشرق وهم الشاميون سواء من القيسية أو اليمنية معا.

والعرب الشاميون هم من القيسيين ومعظمهم كان يناصر أو ينفق إلى جانب العباسيين في صراعهم على السيادة النهائية في المغرب، وقد انضم أغلبهم للجيش العباسي وأصبحوا فيه من العناصر المهمة التي يمكن الإعتماد عليها في قمع الحركات والثورات المضادة للنفوذ العباسي هناك، وقد لعب عرب تميم الذين استقروا في تونس دوراً حاسماً في الوقوف ضد السيادة غير العربية إما قبيلة صدف العربية في كهلان التي كانت تقيم هناك وبالقرب من القيروان فقد لعبت هي الأخرى دوراً مؤثراً في الصراع نتج عنه الموقف المعروف بالميل نحو العرب بصورة عامة في بلاد المغرب الإسلامي.

ولعل معظم العرب في بلاد المغرب هم جند أو مقاتلة يمكن استتفازهم في ظروف معينة وبخاصة في نوافات الحروب أو التعبئة لها، وعرف عن هؤلاء الجند أنهم يفضلون أن يفودهم من هو أرفع منزلة ونسباً وبدون ذلك فلقد طالما أعلنوا ثورتهم وتمردوا بوجه الأمراء أو الولاة أو العمال الذين لا يشدهم أي شعور بالولاء نحوهم.

والعرب في بلاد المغرب ينقسمون إلى فريقين، الأول وهم الأكثرية الذين يشكلون سكان المغرب وأغلبهم من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب الذين كانوا قد سكنوا هذه البلاد. وينضم إلى هؤلاء جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق في العصرين الأموي والعباسي واستقروا في أفريقيا وأصبحوا أهل البلاد. أما الفريق الآخر فهم من العرب الوافدين على المغرب في العصر العباسي ومن الذين كانوا قد اشتركوا في الجيوش التي جردها الخلفاء العباسيون لاستكمال فتح هذه البلاد وكان

هؤلاء ألفوا طبقة متميزة عرفت بـ"طبقة الجند" وكانت تستقر حينما تشاء في أنحاء المغرب وتتمتع بامتيازات كثيرة .

أما فيما عرّف في تاريخ المغرب الإسلامي " بالطوائع العربية " فإن أول طائفة هي طائفة موسى بن نصير وتتمثل بالجيش الذي قاده هذا القائد وأغلبه من عرب الحجاز الذين عرفوا فيما بعد "بالهذليين" لاختلافهم بأهل البلاد. وكان هؤلاء قد فضلوا ترك بلادهم والهجرة إلى المغرب للابتعاد عن الإضطهادات التيموية التي كانوا يتعرضون لها وقد بدأت هذه الإضطهادات في موقعة (الحرّة) وهي منطقة قرب المدينة في الحجاز حيث استعرت بعد هذه الموقعة وخلال الأحداث التي رافقت حركة عبد الله بن الزبير سنة 63 هـ .

أما الطائفة الثانية فتمثل بالجيش الشامي الذي كان يفوده كلثوم بن عيسى القشيري لفتح المغرب، ويؤلف هذه الجيش من عرب الشام ولعل هذه الطائفة لم تلق ترحيباً من العرب الحجازيين أو التيمانيين وذلك بسبب خشيتهم بشأنهم وبما يشاركونهم في الامتيازات التي أو الحصول على الأراضي والمناطق التي كانوا قد استحوذوا عليها.

وكان يفود الطالع الثانية بلج بن بشر القشيري، وفقدت هذه الطائفة بحوالي التسعة آلاف رجل أكثرهم من عرب الشام مع أقلية من الجند المصريين. ومن الملاحظ أن هذه الطائفة لم يسبق لها الاستقرار في بلاد المغرب، بل تهيأت لها الظروف المناسبة للعبور إلى بلاد الأندلس حيث أتيح لها السكنى هناك .

ومن الجدير بالذكر أن عرب تميم المستقرين في تونس ينتسب أنفسهم إلى الأغلبية، وقد حازوا لأنفسهم امتيازات وافرة، غير أن حكام الأغلبية إقتلبوا عليهم وجردوهم من امتيازاتهم وقتلوا جماعة منهم ولابد أن يكون السبب في ذلك تمويه الأوضاع لصالحهم والخروج عن طاعة الأغلبية وعدم الإمتثال لأوامرهم وبخاصة فيما يتعلق بالموقف من العباسيين، حيث إن أغلب عرب بني تميم من ينف موقفنا مناونا للسلطة العباسية وانتظر بعين العداء للجيوش العباسية في المغرب خلال هذه الحقبة ومعروف أن وفود الأغلبية ضد العصر العربي في المغرب كان بسبب

ما أضرموا من فتن وتمردات وغارات مستمرة على المراء والعمال والجهاد من بني الأخطب مما كان يشكل خطراً يهدد كيان دولتهم وأصبحوا بمرور الزمن يفتنون سواء بالعرب ويستغلون بهم و يمحون أحياناً في الفتك بهم وسفك دمائهم ⁽¹⁾.

ثانياً: القبائل المغربية

وتتوزع هذه القبائل في جميع أنحاء المغرب الإسلامي من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسي ويؤلفون العنصر السكانية الأصلية لهذه البلاد، وكان الرومان أطلقوا على سكان إقليم مورطانية (منطقة طنجة) اسم مور Maures وما لبث هذا الاسم، أن أطلق على سائر سكان المغرب، ويشير ابن خلدون إلى أن أفريقشي بن قيس بن صيفي هو الذي حدد العلاقات بين القبائل المغربية بعد أن فتح المغرب ⁽²⁾، ومن المرجح أن هذه القبائل تنقسم إلى مجموعتين أولاهم الحضارية التي كانت تسكن المدن والحوضر والقرى الكبيرة وتمتحن الزراعة وتربية الحيوان وبعض الصناعات اليدوية، وثانيهما القبائل الرحل الذين كانوا ينتشرون في الصحاري ويعيشون على الرعي.

وكانت القبائل المغربية تنفرع إلى بطون وعشائر وتتصف بالشجاعة والخشونة وحب القتال وحدة الخلق كما انقسموا إلى جذمين كبيرين: الأول قبائل البرانس الذين استقروا في المدن وتحضرُوا بالحضارة اللاتينية، والثاني جذم متهد يسكن البادية ويسمون قبائل البئر ومنها قبيلة زلانة، ولعل هذا التقسيم لا يمكن الأخذ به لأن هذه القبيلة من أكثر القبائل حضارة وعمراناً على حد قول ابن خلدون ⁽³⁾، مما يجعلها فرعاً مستقلاً عن سائر القبائل الأخرى، ثم إن المتحضرين كانوا فئة ضئيلة بالنسبة للمبتدئين الذين يؤلفون السواد الأعظم من سكان البلاد .

(1) ابن خلدون، البيان المغرب ج 1 ص 130 .

(2) المعمر وبيوان المبدأ والخبر ج 6 ص 88 .

(3) المعمر نفسه ص 90 .

أما التفسير اللغوي لكلمتي البرانس والبر، فتعني الأولى القبائل المتدثرين بالبرنس والثانية بأنهم العارون من الثياب، ولكن هذا التفسير لا صحة له فليس لزاماً على البري أن يكون عارياً من البرانس كما أنه ليس شرطاً أن يكون البرانس مرتكياً له.

والقبائل البرانسبة سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكنانة ومصمودة وعجيسة وأريفة وأزدواجة، وقيل عشرة فيضاف إليها لمطة وهكسورة وجزولة⁽¹⁾. وتعد صنهاجة بنو زيري ابن مناد والمعتشون(المرابطون) وقد غلب على صنهاجة طابع البداوة فتفرقت في أنحاء المغرب. وأكبر قبائل صنهاجة قبيلة زناجة التي كانت تتخذ من جبال الأطلس المتوسط جنوبي تازة حتى منطقة بني حلال موطنها لها، كما احتلت بعض قبائل صنهاجة جزءاً مهماً من إقليم الريف، واحتضنت قبائل أخرى من صنهاجة بمنطقة أزموور .

أما قبيلة كتامة فقد لعبت دوراً مهماً في قيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، كما تعد قبيلة مصمودة من أهم قبائل البرانس حتى إن بعض المؤرخين يجعلونها فرعاً قديماً بذاته. ومن قبيلة مصمودة تخرج قبيلة غمارة التي تحتل منطقة الحدود من الريف وقبيلة برغواطة وهم سكان تلمسنا وأهل جبل درن، ومن مصمودة، المستقرون في السهول ومنهم قبيلة تكدلة التي تنزل جنوبي وادي أم الربيع وقبيلة وجراجة على وادي نهر تنسيفت وإن جميع المصامدة متحضرين قد تعودوا حياة الاستقرار في المدن.

وتنقسم قبائل البري إلى أربع قبائل هي: ضريبة ونفوسة وأداسة وفوارة وتتفرع ضريبة إلى قبيلتين هما: مكناسة وزفانة ويخرج من قبيلة زناجة قبائل: جيراوة ومغراوة وبنو بقرن وبنو زيات وبنو مرين .

أما من حيث الجنس فهذه نوعين مختلفين لهذه القبائل، الأول وهو الأغلبية من سكان البلاد يتميز بلونه الأصفر وشعره الأسود ورأسه المستدير وخدييه البارزين وأنفه القصير وجبهته المقوسة وهي الصفات لنفسها التي تتوفر في سكان

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 90.

جنوبي أسبانيا وإيطاليا وفرنسا، والثاني ويقتصر على سكان الريف والشلوح في منطقة المغرب الأقصى وسكان جبال جرجرة في منطقة المغرب الأوسط ويتميز بشقرة لون الشعر وزرقة العينين واستطالة الرأس ودقة الأنف ورقة الشفتين وتسطح الجبهة⁽¹⁾.

ومن الجدير بالذكر أن العداء كان مستكماً بين قبائل البرانس والبتتر فقد حاثت قبيلة زناتة البترية المسلمين الفاتحين لبلاد المغرب منذ وطأت أقدامهم أرض هذه البلاد، فيما تولت بعض القبائل البرانس مهمة مقاومتهم والحبولة دون إنتشار الإسلام بين قبائل المغرب، كما حاثت قبيلة كنانة ليرثسية الفاطميين في المغرب وخدمت مصالحهم في حين عثت قبيلة زناتة البترية تحالفاً مع لمويين الأندلس الذين كانوا يشكلون الحزب المعارض للعباسيين، وبعد ظهور الطوبيين في المغرب ممثلاً بالأحرسة، نشطت صنهاجة البرانسية لمخالفتهم.

ومن الممكن من أمر فإن قبائل البرانس كانوا يتميزون بنشاط سياسي أكثر وذلك بمحاولتهم الظهور ممثلين في صنهاجة للتغلب على المغرب كله وتأسيس دولة الممتونيين (المرابطين) كما ظهروا في دولة الموحديين بقيادة قبيلة المصامدة حيث لعبت كلتا الدولتين دوراً رئيسياً على المسرح السياسي في المغرب والأندلس، ولا غرو فإن كثيراً من المؤرخين، يعلنون تاريخ المغرب وأحداثه على ضوء الصراع السياسي و الاجتماعي والديني بين قبائل البرانس وقبائل البتر⁽²⁾.

لما انتشر الإسلام بين القبائل المغربية فصح أن نشير إلى الدور الذي قام به والي إفريقية عقبة بن نافع الفهري حيث مهد الطريق أمامها للدخول إلى الإسلام فأبنتى مدينة القيروان سنة 50هـ/675 م لتكون مهداً لبعض القبائل واتخذ من مسجدها الجامع مركزاً لبث الإسلام وتعميقه بين صفوفهم ثم استمر تولد العرب

⁽¹⁾ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص 20-21 نقلاً عن:

Andre Julien,Histoire " Afrique du Nord,P.50-53, Terrasse(Henri) I,art Hispano Mauresque des origines au .p.17

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق ج 1 ص 37، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 3 ص 134، د. السيد عبد

العزيز سالم، المغرب الفهري ج 2 ص 248.

بعدوا يواصلون سياسة نشر الإسلام وقد توج ذلك بدخول قبيلة أوربة وأصبحوا قوة في الجيش الإسلامي. وتذكر المصادر المتوفرة أن بعض الولاة في المغرب ومنهم حسان بن نعمان اتجهوا بسياسة المؤلخاة بين القبائل فجنّدوا منهم أنجناداً في الجيش الإسلامي وعهدوا إلى ثلاثة عشر فقيهاً من كبار التابعين بتعليم بعض القبائل القرآن ومبادئ الإسلام واتخذوا من المساجد مراكز لهذا النشاط⁽¹⁾ كما أسسوا مدينة تونس حيث ضمت العلماء والفقهاء والمعلمين لتتكيف القبائل بالعلوم الدينية وأصول الشريعة ولم تَمْضِ إلا فترة قصيرة حتى غلب الإسلام على المغرب.

ومن المثير أن تذكر أن قبائل البرانس الرئيسية وهي أوربة وصنهاجة ومعمودة وكلمة قد حققت لها دوراً سياسياً كبيراً في ظل الإسلام سواء تأسيسها الإمارات مستقلة تحتل بالأصالة أو بموالاتها للحركات السياسية والفكرية التي تهيأ لها تأسيس أنظمة سياسية في المغرب، إن هذا الدور الذي مثله قبائل البرانس جعلها في مصاف القبائل المغربية الرائدة في صنع الشخصيات والزعامات القليلة في الحياة السياسية سواء في بلاد المغرب أو على نطاق العالم الخارجي⁽²⁾، كما يلاحظ أن هناك حضوراً ملموساً لقبائل البرانس دون البتر في الحروب والمعارك والثورات التي شهدتها المغرب وذلك على الغلب الاحتمال بسبب كثرتهم حيث أشار إلى ذلك ابن خلدون من طرف خلفي قائلاً " أن البرانس أوفر القبائل وأكثرهم عدداً فلا يقدح قطر من القطر يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسوط حتى زعم الناس أنهم الثلثان من مجموع القبائل"⁽³⁾

غير أن بعض القبائل المغربية أصيبت بخيبة أمل عندما صدموا بتصرف بعض الولاة من الأثيوبيين أو من العباسيين وتسلطهم على معتكلاتهم ورفقائهم وإرهاقهم

⁽¹⁾ ابن عذاري، المصدر نفسه ص 37، الفيلاني، فتوح القبائل ج 2 ص 273، ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ ج 9 ص 183.

⁽²⁾ د. موسى لحيال، دور كلمة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 67.

⁽³⁾ العبر وديوان المبدأ والخير ج 6 ص 152.

بالضرائب والجزيات والمغارم؛ وفي هذا الصدد يمكن أن نشير إلى ولاية عبيد الله الحجاب على الأريفة سنة 114 هـ التي تمثل قمة الإسراف في هذه السياسة⁽¹⁾. ولكن في خلافة عمر بن عبد العزيز تم التحول إلى سياسة جديدة تقوم على إقامة العدالة واستبعاد الولاة والعمال والجباء الذين عرفوا بالظلم والتعسف، كما تم تعيين عدد من كبار الفقهاء المشافهة للاستهداء في فهم أصول الدين وفروعه والسير والتوحيد والشريعة إلى جانب علوم اللغة والفلسف والعلوم الإسلامية وأصبحت المساجد في القيروان وتونس وتلمسان وأغمت هيلجة ومسجد الرباطي وجامع الزينونة مراكز متألقة ومعاهد للدراسة والتحصيل في العلوم الدينية وعلوم العربية وسائر صفوف المعرفة، وهكذا يمكننا مجازاة ما ذهب إليه الدكتور/ موسى لقبال، أن الفتح الإسلامي كان في جوهره إقراراً بالمباداة للدولة العربية الإسلامية ولم يكن يعني في حقيقته دخولاً في الإسلام ولا تقريباً، فاعتناق الإسلام سيكون من عمل القبائل المغربية أنفسهم، أمل التعريب فإنه يستوجب الإنتظار قروناً لكي يستمر ويكتمل⁽²⁾.

⁽¹⁾ الفريق القيرواني، تاريخ الأريفا والمغرب ص109، ابن الأثير، الكامل ج5 ص69، ابن عمار، قبائل المغرب ج1، ص52.

⁽²⁾ دور كتابة ص88.

الموارد المائية، الأنهار، الأمطار، العيون

يتحدث اليعقوبي الذي كان يتجول في منطقة المغرب عامة وفي منطقة المغرب الأقصى بصورة خاصة عن النهر العظيم الذي يقال له نهر (فاس) وهو أعظم من جميع أنهار الأرض⁽¹⁾ وربما تكمن أهميته في الاعتماد عليه في الإرواء الزراعي. ويؤكد ابن حوقل أن هذا النهر كبير غزير المياه⁽²⁾ مما ساعد على تحويل منطقة فاس إلى أراضٍ خصبة صالحة للإنتاج الزراعي. كما يقول البكري فسي معرض حديثه عن مدينة فاس «وعلى دار الرجل فيها رحاء ويستات به بأشواخ الثمر وجداول الماء تخرق داره»⁽³⁾.

يبدو مما جاز به هؤلاء المؤرخين أن منطقة مدينة فاس حاضرة القارسة كانت ولحيرة المياه حيث يزودها نهر فاس فضلاً عن كثرة العيون التي تزيد على الستين عينا، فكانت مياهها تفيض على الأرض المسبحة فتروى الفيض ذات الأنهار العتقة المطردة العيون والأنهار»⁽⁴⁾.

أما النهر الآخر فهو نهر ملوية الذي يسميه اليعقوبي نهر زيز فتقوم الزراعة على المياه التي يوفرها هذا النهر والذي تقع على منحدراته مدينة سجلماسة عاصمة إمارة بني مدرار في منطقة المغرب الأقصى وأن جميع المناطق التي تحيط بالمدينة هي سهول فيضوية صالحة للزراعة، إلى جانب ذلك فقد كانوا يحفرون الخللجان ويشقون القنوات ويبنون الأحواض وخصوصاً عندما يفيض هذا النهر بفرعيه الشرقي والغربي، لذلك شهدت المنطقة تقسيماً إلى أحواض زراعية تملأها الفروع والقنوات وجداول التي يغذيها النهر طوال موسم الأمطار.

⁽¹⁾ البلدان ص 357.

⁽²⁾ صورة الأرض ص 90.

⁽³⁾ المغرب في بلاد أفريقيا والمغرب ص 117 .

⁽⁴⁾ البكري ، المصدر نفسه ص 118 .

وفي منطقة المغرب الأوسط يشاهد الأصفهري وهو من أهل القرن الرابع الهجري، مدينة تاهرت وقد أحرق بها الأنهار ونبضت حولها الأعين.⁽¹⁾ كما يشير ابن حوقل إلى أن أهل تاهرت لهم مياه كثيرة تدخل بيوتهم على أكثر نورههم⁽²⁾، أما البكري فهو أكثر إطلاعا فيقول عن تاهرت إنها "نقع على نهر يسمى "مينة" ونهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى "تاتش" ومنه شرب أهلها وأرضها - (3).

وإذا استعرضنا وديان الأنهار التي كانت تلتحق بالمناطق التي تقع تحت نفوذ إمارة الرستميين في المغرب الأدنى والأوسط فإننا سنقرأ أهم هذه الوديان ومنها وادي نهر شلف الذي يتفرع منه نهر "مينة" حيث يمتد مجراه حتى يصل إلى مدينة تاهرت من جهة الجنوب، وادي نهر "سولجيج" الذي يتجه شرقا فيلتقي بوادي نهر "الفرعة" ثم بوادي نهر "الوحش" كما أن كمية الأمطار التي كانت تسقط بغزارة، تؤثر في تكوين السهول الخصبة. فيذكر النفوس أن موقع تاهرت في مكان "جيد الهواء كثير المياه، وقد افادوا كثيراً من هذه المياه فشقوا القنوات للزراعة - (4).

وأهم المرابطون بتوفير المياه اللازمة لشرب الناس والدواب فانشأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السقيات واستغلوا العيون وخصوصاً في منطقة مدينة مراکش، كما بدأ الموحدون عهداً جديداً بعد المرابطين في استعمال جلب المياه وصناعة الأسقييات واستغلال العيون والآبار إلى مدينة مراکش والمدن الأخرى. وفي مدينة "فلمس" إحدى المدن التونسية في المغرب الأوسط، ويذكر البكري أن فيها الماء من عين خزانة (أي أنها تشكل شلالا يصب الماء من أعلى الجبل) وفي مدينة "القصرين" في المنطقة نفسها، عين ماء ثرثار تنشعب منه أنهار تسقى زرعهم وتخلهم ولعاههم⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ المسالك والمعالك ص 34.

⁽²⁾ صورة الأرض ص 86.

⁽³⁾ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 66-67.

⁽⁴⁾ المسالك والمعالك ج 2 ص 663.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه ص 666.

الفصل الثاني

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

- 1- محاولات الفتح الأولى
- 2- الفتوح الإسلامية في ليبيا "المغرب الأدنى"
- 3- الفتوح الإسلامية في تونس "المغرب الأدنى"
- 4- الفتوح الإسلامية في الجزائر "المغرب الأوسط والمغرب الأقصى"

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب

محاولات الفتح الأولى:

لم تدخل بلاد المغرب في حوزة الدولة العربية الإسلامية، دفعة واحدة بل مرت بسلسلة من المعارك والحروب، استمرت حوالي السبعين عاماً متوالية بدأت من عام 21هـ/642 م وذلك في السرية الأولى التي قادها عقبة بن نافع الفهري، الذي يعد من أكابر التابعين وأفاضلهم ، بعد اشتراكه في فتح بلاد مصر مع القائد العربي المعروف عمرو بن العاص، وانتهت بالحملة التي قادها موسى بن نصير والخضع فيها جميع المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي عام 90هـ/708 م .

غير أن هناك بعض المعونات تشير إلى أن المسلمين، بفتح المغرب عقب فتح مصر بعلمين، أي في عام 22هـ/643 م ،حيث سار عمرو بن العاص غرباً متوجهاً إلى برقة فتحها وصالح أهلها على الجزية ، ثم دخل طرابلس الغرب بعد حصار دام شهراً ثم أوعز لقائده عقبة بن نافع لاستكمال الفتح إذ سار إليها على رأس حملة استطلاعية من برقة حتى لوبيا (ليبيا) وأفريقية فافتتحهما ⁽¹⁾ وبذلك تكون ليبيا قد تم فتحها على يد القائد العربي عمرو بن العاص وعقبة بن نافع عام 22هـ/643 م. وفي خلافة عثمان بن عفان (رض) دخلت الجيوش الإسلامية في قفار أفريقية وذلك عندما عهد الله بن أبي سرح ، عمرو بن العاص، حيث سار إلى أفريقية في نحو عشرين ألف مقاتل⁽²⁾، وسارت معه حامية بقيادة عقبة بن نافع، وكان عمرو بن العاص قد ولاء على تلك الأتباع⁽³⁾ .

ولعل من المفيد أن نستعرض من محاولات المسلمين في فتح بلاد المغرب وتخليصها من السيطرة البيزنطية، حيث كللت بالإنجاز، والنضواء هذه البلاد تحت

⁽¹⁾ ابن الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ص 71 .

⁽²⁾ ابن عسار ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 1 ص 8 .

⁽³⁾ ابن الحكم ، المصدر السابق ص 187 .

لواء الدولة العربية الإسلامية. وقد بدأت هذه المحاولات منذ الربع الأول من القرن الأول الهجري بالتشاور جيوش عمرو بن العاص في برقة ومشارف طرابلس الغرب، إذ تُعد الباب للدخول و التوغل في بلاد المغرب، فقد استطاع عمرو بن العاص أن يكسب تأييد بعض القبائل المغربية إلى جانبه ويدخلها الإسلام فضلاً عن جهود عقبة بن نافع في هذا الصدد حيث كتب هو الآخر عدداً من هذه القبائل التي أصبحت لها دور مهم في إرساد الجيش الإسلامي، ولدينا تفصيلات مهمة لأوردها المصادر^(١) عن وصول الجيوش الإسلامية إلى مناطق واسعة من ليبيا وتونس، غير أننا نجد بنا أن تشير إلى الانتصار الحاسم على البيزنطيين عند مدينة "سيطة" عام 28 هـ/648 م حيث فتح جميع المناطق من برقة شرقاً حتى سيطة غرباً.

ولعل من المفيد أن نلخص إلى تفصيلات عن الفتوح الإسلامية في البلاد الليبية حتى ندخل المغرب الأقصى:

^(١) يمكن الرجوع إلى المصادر والمراجع الآتية للتوسع :

- أ- ابن أبي الحديد، فتوح إفريقية والأندلس ص 34 .
 - ب- البلاذري، فتوح البلدان ص 224-226 .
 - ج- أبو عبد الباقى، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 171 .
 - د- ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 1 ص 8 .
 - هـ- ابن خلدون، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج 1 ص 10-12 .
 - و- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ج 1 ص 122 .
- ثم المراجع الثانوية:

- 1- حصن مؤنس ، لغز الأندلس .
- 2- السيد عبد العزيز سالم خارج المصميين وأثرهم في الأندلس .
- 3- محمد عبد الله خان ، دولة الإسلام في الأندلس .
- 4- من جديد عن فتح العرب للمغرب نشره المستشرق ليلي بروستال في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمغربي (المجلد الثاني -1984) .

1- الفتوح الإسلامية في ليبيا ' المغرب الأدنى '

انتشرت الجيوش الإسلامية في ليبيا بقودها عمرو بن العاص لحسين وعسولته بركة صالح أهلها على الجزية ثم شرع بعد عدة لفتح مدينة طرابلس بغية التمهيد للدخول إلى أفريقيا، وكان إزاماً عليه أن يزحف إلى طرابلس من الساحل والداخل، فلما يتعلق بدخول البلاد بعث إليها قائد عتبة بن نافع حيث بلغ مدينة فزان ومنها وصل إلى مدينة زويلة ، وفي غضون أشهر قليلة أصبحت جميع المناطق التي تقع بين بركة وزويلة ضمن النفوذ الإسلامي وبذلك ضمن عمرو بن العاص إخضاع الولايات الداخلية التي كانت مصدر تهديد للإستحكامات العسكرية والمواقع الإسلامية في المدن والمناطق المفتوحة وخصوصاً السلطانية منها. وكانت مدينة طرابلس أخذت من إهتمام عمرو بن العاص ففي عام 22 هـ حاصراً سورها شهراً ولم يظهر بها ولكنه إرتد إلى المدن المجاورة لها وخصوصاً مدينة صيراته ⁽¹⁾ وكان البيزنطيون قد أحكموا سيطرتهم عليها مما جعله يعاود الكرة على طرابلس باتخاذ خطة تقوم على مهاجمتهم عن طريق الساحل مستغلاً إحصار الميناء عن سواحلها وبذلك حقق الإستيلاء على الجزء الشرقي منها ، وخلال أسابيع ففتح طرابلس جرد عمرو بن العاص كتيبة من الفرسان لمعاودة الهجوم على مدينة صيراته مرة أخرى حيث تحصن أهلها داخل الأسوار بعد فرار الحامية البيزنطية التي كانت تدافع عن المدينة، عن طريق البحر فحاصرها المغاربة المسلمون وما لبثوا إن سقطوا المدينة في غفلة من أهلها الذين كانوا قد فتعوا أبوابها لتسرح بها ماشيتهم فلم ينج منهم أحد واحتوى عمرو على ما فيها ⁽²⁾

ثم أمد عمرو بن العاص، كتيبة بقيادة ' بشر بن أرطاة ' لفتح مدينة ودان فالتحقها سنة 23 هـ وبذلك تم لعمر بن العاص الإستيلاء على بركة والجزء الشرقي من طرابلس، وعقدت بادر البيزنطيون إلى تحصين المدن وإقامة الحاميات

⁽¹⁾ ابن عبد الحکم، فتوح إفريقية والأندلس ص 28 يقول القرواني اسمها ' صيرة ' وفيه بك معصور تمتلح قبيلة زواعة (المسالك والممالك ج 2 ص 665) -

⁽²⁾ ابن عبد الحکم، المصدر السابق ص 28 .

ليما إلى مدينة صيراته إلى الغرب طوقاً من الزحف الإسلامي وكتب عمرو بن العاص كتاباً إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأنه فتح أفريقيا باتجاه الغرب، وقد جاء فيه: 'إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين أفريقيا إلا تسعة أيام'. ولكن الخليفة رفض الاستمرار في فتح أفريقيا فاضطر عمرو بن العاص على العودة إلى مصر بعد أن ثبت قائده عتبة بن نافع على المناطق الداخلية المفتوحة في البلاد الليبية، وقد استطاع هذا القائد أن يستقطب إليه بعض القبائل المغربية مثل قبيلة لواته وقبيلة نفوسة وقبيلة نغزارة وهي أكبر القبائل حيث دخلت الإسلام وأصبح معظم رجالها ضمن المقاتلة في الجيش الإسلامي.

وفي عام 49 هـ خرج عتبة بن نافع وبصحبه من الفواد العرب: بشر بن أرطاة وشريك بن سحيم المرادي، فنزل بغدامس ثم تابع سيره إلى مدينة ودان فاعاد فتحها بعد أن ترك فرقة من جيشه بقيادة زهير بن قيس البلوي في منطقة سرت، ومضى عتبة بن نافع إلى قصور قران واقتحمها فصرأ فصرأ ثم افتتح قصور كوار واستولى على قصر جاون ومن هناك تصرف إلى مدينة زويلة التي كانت تُعد منطلقاً للفتوح الإسلامية في الأراضي الليبية.

وبعد الإخفاقات التي منى بها المسلمون لتثبيت الفتوحات الإسلامية في المغرب نتيجة المقاومة التي عرضت بها القبائل المغربية بمساعدة البيزنطيين الذين كانوا يسيطرون على المدن والمناطق، درج حسان بن نعمان الغساني قائد الجيوش الإسلامية عام 81 هـ على إقامة أكبر قاعدة عسكرية في مدينة برقة استغرق تأسيسها أربع سنوات ثم بدأ يترقب وصول النجدة التي وعد بها الخليفة عبد الملك بن مروان لتعزيز هذه القاعدة، وقد أشاد هناك قصوراً سميت قصور حسان. ولما وصلته الإمدادات وتوافد عليه فرسان العرب ورجالهم زحف بجيوشه لمقاتلة الكاهنة التي يقال لها 'داهية بنت مائية ابن ثعلان' ملكة جبال أوراس التي رفعت لواء العصيان ضد المسلمين، وقد بعثت الكاهنة بابنها إلى حسان بن نعمان ليطالبها بالأمان لنفسيهما فأمنهما، أما هي فقررت أن تحارب المسلمين. وفي عام 82 هـ التقى حسان بن نعمان بجيوش الكاهنة عند منطقة البئر بالقرب من

جبال أوراس فهزمها هزيمة نكراء وسحق أتباعها وقتلها، وبذلك استطاع أن يستأصل جميع أوكار المقاومة ضد المسلمين في بلاد المغرب الإسلامي عموماً .

2- الفتوح الإسلامية في تونس ' المغرب الأكنى '

بدأت طلائع الجيش الإسلامي تنتشر في مناطق تونس سنة 28 هـ بقيادة عبد الله بن أبي سرح وذلك لفتح المناطق وصولاً إلى طنجة، وفي طريق زحفها التقت مع جيوش البيزنطيين التي يقودها الحاكم البيزنطي ' كريكوريوس ' الذي تطلق عليه المصادر العربية ' جرجير ' بالقرب من المدينة التونسية ' سبيطة ' حيث قُتل كريكوريوس وتفرق جيشه وتم الاستيلاء على حصن سبيطة، ثم تحركت جيوش عبد الله بن أبي سرح نحو حصن الأجم فحاصره ثم سقطه، ولم يلبث هذا القائد أن عاد إلى مصر مكثفاً بما حققه من فتح معظم البلاد التونسية . وخصوصاً الخط الممتد من سبيطة إلى مدينة سوسة في الشمال ثم من سبيطة إلى مدينة قفصة من الشرق والشريط الساحلي الضيق فيما بين قابس⁽¹⁾ وشط الجريد من الجنوب. ويبدو أن هذه المناطق قد انتفضت على الحاميات الإسلامية أيام الخلافة الأموية مما جعل مغوية بن حديج الكندي يلود جيشاً عدته عشرة آلاف مقاتل وقد استصحب معه عدداً من قواد العرب منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير بن العوام وعبد الملك بن مروان ويحيى بن الحكم بن العاص حيث وصلوا بكتائبهم جنوبي قرطاجنة التي لا تبعد عن مدينة تونس إلا بضعة كيلو مترات، وهناك واجهوا البيزنطيين بالقرب من مدينة سوسة إذ دخلها المسلمون بقيادة عبد الله بن الزبير بن العوام بعد الهزيمة التي ألحقوها بالبيزنطيين. كذلك استطاعت فرقة أخرى من المسلمين بقيادة عبد الملك بن مروان الاستيلاء على مدينة جلولاً ثم اتجه مغوية بن حديج بأسطوله في البحر المتوسط إلى جزيرة

⁽¹⁾ وهي مدينة حديثة مسورة بالمصر من بنيان الأول ذات حصن واربض وأسواق وقسطن وحمامات كثيرة وقد أعطى بها خلق غير يعبرون إليه الماء فقد الحاجة (الفرق ح 666) .

صقلية عام 46 هـ وانفتحها ومضى في فتوحاته فدخل مدينة بنزرت ثم عرج والمسلمون نحو جزيرة جربة⁽¹⁾ فدخلها .

وفي عام 49 هـ تابع عقبة بن نافع فتوحاته فهاجم مدينة قلصة وسقطت بيده وانبعثا بقسطنطينة واختتم هجومه بموضع القيروان الذي كان ألقاه معاوية بن حديج فلم يزل إبعاده وانتقل منه إلى موضع المدينة الكبرى التي عرفت فيما بعد بالقيروان جنوبى مدينة قرطاجنة. وكان عقبة بن نافع قد ابلى مدينة القيروان سنة 50 هـ بعيدة عن الساحل استجابة للضرورات العسكرية لكي لا يتركها العدو البيزنطى على حين بقاء عن طريق البحر .

والمدينة أشبه بمسكن حيث اختط عقبة بن نافع دار الإمارة وأقام الناس الدور والمساكن ثم اختط المسجد الأعظم وعمرت المدينة بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت والعمائر وشد الناس إليها فرحال واتسعت بالأسواق والمراكب وأصبحت القيروان مركزاً وقاعدة توجه منها الحملات العسكرية الإسلامية على جبال أوراس لمواجهة لها. وقد اجتذبت هذه المدينة عدداً كبيراً من القبائل المغربية التي دخلت الإسلام. وفي عام 55 هـ تولى قيادة الجيوش الإسلامية فى بلاد المغرب، أبو المهاجر دينار بعد أن عزل معاوية بن أبى سفيان، عقبة بن نافع وكان أبو المهاجر قد نزل فى موضع غير القيروان حيث اختار موضعاً بعيد بمقدار ميلين عن المدينة واقتطع بها مدينة أخرى وأمر بحرق القيروان، وبدأ بالتحف على المدن التونسية التي لم تفتح بعد أو التي ثمرت على المسلمين فتم له الإستيلاء على مدينة تلمسان ثم شن هجوماً كبيراً سنة 59 هـ على مدينة قرطاجنة، ثم تركها بعد أن تخلى له البيزنطيون عن الجزء الواقع جنوبى قرطاجنة. وفى سنة 60 هـ استعاد عقبة بن نافع قيادة الجيوش الإسلامية فى المغرب فعاد إلى القيروان وهو أشد عزماً وقوة فى الفتح ثم أمر بتخريب المدينة التي أقامها أبو المهاجر دينار وأعاد الناس إلى القيروان وترك بها جنداً من

⁽¹⁾ ويسمى جزيرة فرقة فيها آثار بنيان ومرامل للماء والرياض وأرضها خصبة (البحرى المصدر نفسه ص 664).

المسلمين استخلف عليهم قائد زهير بن قيس البلوي وأعاد فتح قرطاجنة ثم حاصر المتمسك وهي أعظم مدن قرريقية واستولى عليها. وفي خلافة عبد الملك بن مروان سار زهير بن قيس البلوي بجيوشه في حملة لاسترجاع القيروان بعد أن احتلها البيزنطيون وكذلك لمواجهة كسيلة بن لمزم الذي كان يقود المقاومة ضد المسلمين في الساحل التونسي والمتحصن في مدينة قرطاجنة، ولكن، لما بلغ كسيلة، قدوم زهير بن قيس إليه، رحل عن القيروان بجيشه إلى موضع يعرف 'ساقية ممس' يقع بين القيروان ونيسا وذلك لحصانته ومناعة موقعه، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس أما القوات الإسلامية، فقد تمركزت مشارف القيروان ثم بدأت بالحرق نحو العدو وذلك بعد أن عقد القائد زهير بن قيس هدنة مع البيزنطيين الذين اشتركوا معه لكي يعزل كسيلة بن لمزم ويتفرغ لقتاله، وعلى وادي ممس دارت رحى معركة فاصلة أحرز الجيش الإسلامي فيها انتصاراً ساحقاً وقُتل كسيلة ومضى المسلمون يتعقبون قلوب جيشه فقتلوا منهم عدداً كبيراً وطاردهوا ما بقي منهم حتى نهر وادي ملوية ثم عاد زهير بن قيس إلى القيروان ونظم إدارتها ثم عاد إلى يرقة وفي طريقه وبالقرب من طريق نصب البيزنطيون كميناً له ودارت بين الطرفين معركة غير متكافئة استشهد وفيها زهير، كما قتل عدد من المسلمين .

وبغياب زهير بن قيس توقفت الفتوحات الإسلامية في المغرب لمدة أربع سنوات ولكن الخليفة عبد الملك بن مروان، أمر بإعداد جيش كبير مسلح بكل أنواع الأسلحة والمعدات وجعل على رأسه قائداً قديراً هو حسان بن النعمان الضماني، وقد اتبع هذا القائد سياسة تقوم على استمالة القبائل المغربية فلتضم إليه عدد كبير من هؤلاء، فزحف إلى القيروان التي كان البيزنطيون قد احتلوها بعد مقتل زهير بن قيس، ثم أعد عدته لمقاتلة ما سمي بملك قرطاجنة البيزنطسي فوضع خطة تقوم على الدخول إلى هذه المدينة التي لم تثبت في كل مرة بدخولها المسلمون يعود عليها البيزنطيون ويستردونها، وتجت خطته فقد دخلها، وهرب قلوب الجيش البيزنطي إلى مدينة صقلية وبنزرت فحلفت بهم القوات الإسلامية وهزمهم. ثم أصبح حسان بن النعمان أمام مشكلة جديدة وهي اجتماع بعض

القبائل المغربية المعادية للمسلمين والتي كانت منضوية تحت إمرة الكاهنة التي سبق أن أطيح بها في مناطق جبال أوراس وقتلت وفداً أسرت جيوش هذه القبائل عدداً كبيراً من المقتلة المسلمين

لترجع الجيش الإسلامي إلى برقة ولم تكف بذلك بل صعدت القضاء على جميع مظاهر العمران في منطقة تونس لكي تمنح كل أثر من آثار الفتوحات الإسلامية ، وانتهاز البيزنطيون هذه الفرصة فأغاروا على الحامية الإسلامية في قرطاجنة وقتلوا عدداً من رجالها وسلبوا وغنموا ، بيد أن الإمدادات التي كان وعد بها الخليفة عبد الملك بن مروان وصلت إلى حسان بن النعمان فسخرها في الإستمرار في الفتوحات في تونس ، فاتجه لتطهير قرطاجنة من الحامية البيزنطية التي اضطرت على الفرار بحراً ، فاسترد المسلمون المدينة ، ولكن المسلمين كانوا يخشون أن يهاجمهم البيزنطيون من البحر فأراد أن يؤسس مدينة أخرى تجاه قرطاجنة في مواقع البحر تشرف على قرطاجنة ، فهي تونس على بعد كيلو مترات شرقي قرطاجنة .

وكانت تونس قبل ذلك مدينة قديمة يطلق عليها " تونيس " ولم تكن عند بنائها إلا قرية صغيرة⁽¹⁾ التحولها حسان بن النعمان إلى قاعدة بحرية تقطع منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً للصناعة السفن حيث عول على الصناعات الألبان في صناعة المراكب ، ثم شيد بها مسجداً جامعاً وداراً للإمامة وثكنات وحاميات للجنود . وقد قدر لهذه المدينة الصغيرة في بدايتها أن تكون أعظم ثغور أفريقية بعد مرور ثلاثة عقود من الزمن على يد والي أفريقيا عبيد الله بن الحبحاب ، حيث نمت واتسعت وأقبل الناس إليها من جميع الأقاليم وأقيم فيها أعظم جامع بالمغرب الأدنى وهو جامع الزيتونة ثم بدأ حسان بن النعمان بوجه غايته للتنظيم البلاد من الناحية الإدارية فنوع الدواوين ونظم الطراز وعمل على نشر الإسلام واللغة العربية . وهكذا يمكن القول ، إن حسان بن النعمان ، فتح بلاد المغرب عسكرياً وثقافياً واجتماعياً في آن واحد .

⁽¹⁾ فكر البكري ، أن تونس كانت تسمى في بعض تواريخها بحر تونك ويسمى موسى رأس ' (المغرب في ذريعات أفريقيا والمغرب ص 37) .

الفتح الإسلامي في المغرب الأوسط والأقصى:

أطلق عقبة بن نافع بجيوشه مكثباً شمال أفريقيا كله وهو يطارد البيزنطيين ويدمر معاقلهم حتى دخل المغرب الأقصى سنة 62هـ حيث اترب من مدينة طنجة واستمر متدفعا بلقائه حتى مدينة وليلة أو تليسى كما داب على مطاردة القبائل المغربية التي سالت البيزنطيين حتى مدينة درعة ثم واصل هجومه الكبير حتى وصلت قدماء ارض الموس الأقصى وانتهى به المطاف إلى مدينة إيقيران بطرف التي تقع على ساحل المحيط الأطلسي، وكان قد الفتح في طريقه مدن أشكات وريكة ووادي تلمس وإيجلى القريبة من مدينة دركالة ثم انتشرت جيوشه في مدينة ماسه الواقعة أيضا على المحيط الأطلسي، غير أنه عاد إلى القيروان مارا بإيخيران بطوف وتارنا ومنها إلى رباط شاكور فدخل إقليم دركالة حتى بلغ طنجة ومنها إتجه نحو المغرب الأوسط فلما بلغ مدينة طينة أمر بتفريق جيشه والتمسير في طرق أخرى وسار هو في منطقة جبال أوراس ولكنه ما كاد يقترب منها حتى اعترضه كسيلة بن لمزم مع قبيلة أوربو البراتسية بجموع جيشه الذي يقدره المؤرخون بخمسين ألفا وقطع على عقبة بن نافع خط الرجعة ثم دارت معركة عند مدينة كهودة سنة 63هـ واستشهد فيها عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين وأسر الباقون ولكن صاحب قلعة اقتادهم وبعث بهم إلى زهير بن قيس التلوي الذي عاد هو الآخر إلى قصره في مدينة برقة وأقام فيها حتى أيلم عبد الملك بن مروان واستولى كسيلة على مدينة القيروان سنة 64هـ وأسفر ذلك عن خروج أفريقية من أيدي المسلمين وضاعت بذلك جهود أربعين عاما فضاها المسلمون في الجهاد والفتوح، غداير أن المسلمين لم يفتقوا كل شيء، إذ تركوا كثير من القبائل المغربية كانت قد تحولت إلى الإسلام فوقفوا ضد كسيلة بن لمزم.

ولما تولى موسى بن نصير المغرب خرج ذاتا من أفريقية إلى طنجة فقتل بعض القبائل التي لا تزال معادية للفاحين المسلمين ومنها قبائل هواة وزنانة وكثامة. وفي عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك عظمت منزلة موسى بن نصير لدى

تخفية، فأول عمل عسكري له هو الدخول في مدينة طنجة إذ فتحها وترك فيها
 حامية كبرى على رأسها القائد طارق بن زياد، ثم واصل فتوحاته فاجتاز نهر
 درعة وأرسل حملة تأديبية إلى مدينة سجوجا التي خرجت على المسلمين وكان
 إلى رأس هذه الحملة أولاد عقبة بن نافع وهم عياض وعثمان أبوعيدة . وهكذا
 استكمل موسى بن نصير فتح الجزائر وبلاد المغرب الأقصى ولم تستعص عليه
 سوى مدينة سبنة لعناعتها ووصول الإمدادات إليها من أسبانيا القوطية عن طريق
 البحر وكان يحكمها من قبل القوط في أسبانيا حاكم اسمه خولييان Julian ويسميه
 العرب يوليان وقد اختلفت المصادر في شخصيته فبعضها يذكر أنه قوطي والآخر
 يزعم أنه بيزنطي وربما كان حاكما على إقليم موريطانيا الطنجية الخاضعة
 للإمبراطورية البيزنطية فلما عجز البيزنطيون عن حمايته طلب الانضمام إلى
 أسبانيا القوطية .

وأغلب الظن، أن انصراف موسى بن نصير عن فتح سبنة وكان بمستطاعه ذلك
 بسبب ما استجد من أفكار لهذا القائد الإسلامي في فتح بلاد الإنديس ووضع الخطط
 والإعداد لها بالاستعانة ببوليان ورجاله ومعداته.

الفصل الثالث

عصر الولاة

1- ولاية المغرب في العصر الأموي

أ- موسى بن نصير

ب- محمد بن يزيد

ج- اسماعيل بن عبدالله بن أبي دينار

د- يزيد بن أبي مسلم

هـ- بشر بن أبي صفوان

و- عبيدة بن عبدالرحمن السلمي

ز- عبيد الله بن الحبحاب

ر- عقبة بن قدامة

ح- كلثوم بن عياض القشيري

خ- حنظلة بن صفوان

2- سياسة الإنفصال في المغرب الإسلامي

الفصل الثالث

عصر الولاة

وبعد أن توطن الفتح العربي الإسلامي ورسخ الإسلام في بلاد المغرب وتهددت آمال المقاومة على يد القائد العربي موسى بن نصير وانتهى آخر صمود لها، أصبحت هذه البلاد في عداد التولاة العربية الإسلامية وتولاها عدد من الولاة منذ أن فصلت عن ولاية مصر وجعلها ولاية تابعة للخليفة العباسي بصورة مباشرة.

ولاية المغرب ابتداءً من موسى بن نصير:

1- موسى بن نصير:

وبعد أن عزل حسان بن النعمان من قيادة الجيوش الإسلامية في بلاد المغرب تولى موسى بن نصير على إفريقية بأمر من عبد العزيز بن مروان والي مصر ولأنه في أن موسى بن نصير هو من أهدر رجال الدولة الأموية وأكثروهم كفاءة وأخلصهم لها، وكان الخليفة عبد الملك بن مروان قد عبثه عاملًا على العراق ثم ولده على إفريقية فافتتح ولايته بفتح قلعة زعنوان وهي من المواقع التي استعصت على الفاتحين الأول. ويصح القول إن فتح بلاد المغرب الإسلامي قد تم أخذه على يد هذا القائد ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى لذلك وضع خطة تقوم على تتبع القبائل التي لا تزال تقف ضد الإسلام وخرج على رأس جيش مؤلف من وجوه العرب فاختصم قبائل هواة وزناتة وكنامة . ولما توفي الخليفة عبد الملك بن مروان سنة 86هـ وولى الخليفة بعده ولده الوليد عظمى منزلة موسى بن نصير لديه واشتد عجبه به مما أتاح لهذا الأخير المعنى في تنفيذ خطته لاستكمال فتح المغرب الأقصى حتى بلغ مدينة طنجة حيث ترك فيها حامية كبرى على رأسها قائده طارق بن زياد، وكان عدد جنده هذه الحملة يتجاوز تسع وعشرين ألفاً أغلبهم من القبائل المغربية التي أسلمت وحسن إسلامها. ولأول مرة في تاريخ المغرب يجازي موسى بن نصير بجيشه نهر درعة ويقوم بإرسال حملة تكفيلية إلى مدينة سجوجما التي تسكنها بعض القبائل المغربية التي اشتركت في المعركة ضد عقبة بن نافع التي أدت إلى مقتله. وكان قادة هذه الحملة أبناء عقبة بن نافع (عياض وعثمان وأبو عدة) فقتلوا لأبيهم من قتلته شر إقتسام، وهكذا نجح موسى بن نصير في إخضاع بلاد المغرب للإسلام ولم تستعص عليه سوى مدينة

سبباً لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر. ولكن بعد أن تطلع موسى بن نصير إلى فتح الأندلس ثم إحتواء حكام سببة "خلويان" ويسميه العرب يوليان فتكون سببة حينئذ قد أصبحت ضمن المغرب الإسلامي .

2- محمد بن يزيد

تولى الخليفة الأموي سليمان بن عبدالمك الخليفة بعد وفاة أخيه الوليد فاستشار بعض رجال حاشيته فيمن يصلح للحكم ولاية المغرب وذلك بعد عزله لعبد الله بن موسى بن نصير الذي ولده أبوه، فقبل له: محمد بن يزيد "مولى فريش، فاستدعاه إليه وعهد له بالولاية فتلا: " قد وليتك أفريقيا والمغرب كله " . وبعد أن استقر محمد بن يزيد بأفريقية قام بالإصلاحات الآتية:

أ- غرّف بسيرته الحسنة في ولايته حيث ساد السلم و الأمن جميع أنحاء المغرب فتعم السكان خلال حكمه بالأطمئنان والعدل.

ب- كما أتاحت له الظروف إستكمال فتح المناطق الداخلية في المغرب الأقصى وإرسال البعوث والسرايا إلى الثغور البعيدة والجزر المجاورة لتشر الإسلام أو تثبيته في نفوس، ومن بين من أرسلتهم الخلافة بعض التابعين ومنهم عبد الرحمن بن يزيد المعافري وسعيد بن مسعود التجيبي وإسماعيل بن عبادان الأنصاري وعبد الرحمن رافع التتوشي⁽¹⁾.

ج- إن السياسة التي ساد عليها محمد بن يزيد، كان لها أكبر الأثر في نفوس سكان المغرب والجند، فقد استجابوا لإجراءاته الإدارية والسياسية والمالية والعسكرية.

3- إسماعيل بن عبدالله بن أبي دينار:

ولاد الخليفة عمر بن عبدالعزيز سنة 100هـ، ويؤكد المؤرخون علو منزلة هذا الوالي وعنده أحسن ولاية بنى أمية في المغرب، فقد ورث جده القائد الإسلامي بن أبي دينار صفات العزم والشجاعة والحكمة وحسن التدبير، إلى جانب ورعه وتقواه، ونقرأ من إصلاحاته:

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان المغرب ج 1 ص 44، المائلي، رياض نفوس ص 64-76

أ- نشر الإسلام والثقافة العربية بين سكان المغرب حتى إن المؤرخين أجمعوا على أن سكان المغرب والأفريقية أسلموا جميعهم في أيامه.

ب- استمراره في سياسة التعريب التي كان ساروا عليها، وقد سارت هذه العملية جنبا إلى جنب مع انتشار الإسلام لذلك امتاز الفتح العربي للمغرب بأنه فسح ثقافي، إذ جعل القاطنون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم الذي هو قوام دين ودستور سياسة وحر أخلاق وقاموس لغة وديوان ثقافة ، وقد رسخ هذا الاتجاه في عهد هذا الوالي .

ج- بناء المساجد والجامع وبور العلم في مختلف أنحاء المغرب ومنها مسجد تلمسان وأشمت هلاله و المسجد الرباطي و جامع الزيتونة، وكانت هذه المساجد بمثابة المدارس والمكتبات العلمية والجامعات للنشر للعلم والثقافة اللغة العربية إلى جانب الطب وعلم الفلك والعلوم الدينية والشرعية.

4- يزيد بن أبي مسلم:

وإلى سنة 102هـ بعد وفاة الخليفة عمر بن عبدالعزیز، وقد عزم على تطبيق سياسة مغايرة لسياسة سلفه الوالي اسماعيل بن عبدالله بن أبي دينار ولكن لم يلبث هذا الوالي أن قُتل بعد شهر واحد من ولايته.

1- محمد بن يزيد (الولاية الثانية):

لم تستمر ولايته سوى عدة أشهر.

2- بشر بن صفوان الكلبي

ولاه الخليفة الأموي يزيد بن عبدالملك، حيث قدم من مصر إلى القيروان واصطف مع السكان سياسة تقوم على العدل والمساواة وحسن المعاملة، وقد نجح في تهدئة بلاد المغرب وتسكين أرجائه من الفوضى والإضطرابات بحسن سيرته ولينه لفساد في عهده السلم والهدوء.

3- عبيدة بن عبدالرحمن السلمي:

قام في ولاية المغرب في سنة 110هـ ولم يستجب للسياسة التي كان الولاية الأمويون يسيرون عليها في معاملة السكان بالنصف والإضطهاد.

4- عبيد الله بن الحبحاب:

أخلف في سياسته تجاه المغرب وأفريقية، حيث أساء معاملة السكان ونشر الإضطهاد والتفكك والنصف مما أثار حفيظتهم وسخطهم فتسبب في الإنقسامات

والقوضى المر الذي جعل الخليفة هشام بن عبدالمك يعزله. غير أن المؤرخين يقررون أنه أثبت مهارة كبيرة في إدارة شئون مصر وهو والياً عليها .
5- عقبه بن قدامة:

تولى سنة 114هـ فجرد حملة عسكرية بحرية لفتح جزيرة صقلية ولكنها أخفقت ولم تمض على ولايته سوى عدة أشهر.

6- كلثوم بن عياض القشيري:

وصل إلى أفريقيا سنة 123هـ فافتتح ولايته بإرسال جيش للقضاء على المتمردين والخارجين على سلطة الخلافة الأموية وتوجيه بعض الكتاب إلى المدن والمراكز لتعزيز السلطة المركزية فيها ومن هذه المدن القيروان وتلمسان وطنجة وفاس، وكان من نتيجة ذلك أن حصلت بعض الانتصارات القتل على أثرها سنة 124هـ.

حنظلة بن صفوان:

وكان عاملاً من عمال الخلافة الأموية في مصر. وقد درج هذا السولى على سياسة سلفه كلثوم بن عياض فى التصدى للإضطرابات والثورات التى قامت فى بعض مناطق المغرب وأفريقية إذ استطاع أن يخمدها حتى وصلت أخبار انتصاراته على أعداء الخلافة إلى الخليفة هشام بن عبدالمك وهو على فراش الموت سنة 125هـ وبعد وفاته عزل عن الولاية.

والمعروف أن هذا السولى وضع حداً للإقتسامات والقوضى وبذل ما بوسعه للمحافظة على وحدة الدولة العربية الإسلامية، غير أن تولى عدد من الولاة من بعده وصلهم المؤرخون بأنهم ضعاف لم يرتفعوا إلى المستوى إلى مستوى الأحداث التى وصلت إليها الخلافة الأموية فى بلاد الشام. وفى الوقت الذى كان الأمويون يواصلون فيه سياسة التصفية ضد خصومهم فى المشرق الإسلامى مما جعل الخلافة الأموية تترك بلاد المغرب وأفريقية لمصيرها فانقطعت العلاقة بين دمشق وهذه البلاد التى كانت تشكل اقليماً مهماً من التماحيش السياسية والاقتصادية بين أقاليم الخلافة مما أفضى فى نهاية المطاف إلى انتقال أمر المغرب إلى الخلافة العباسية فى العراق والسلى قامت على أنقاض الخلافة الأموية، فوضع العباسيون سياسة جديدة تجاه المغرب و أفريقية تقوم على أسس وقواعد مختلفة عما كان فى عهد الأمويين.

سياسة الانفصال في المغرب الإسلامي

ليس من شك في أن مصير المغرب الإسلامي قد تحدد بالتحويلات السياسية التي تشكلت في المشرق الإسلامي بعد قيام الخلافة العباسية ومركزها في العراق إذ بدأت تصف رياح التغيير بظهور الحركات الانفصالية ذات الطبيعة المذهبية بين التأييد والاستعانة للخلافة من بعض الأقوام والقبائل الذين دخلوا الإسلام وصاروا في عدد رعيا للدولة العربية الإسلامية مثل القبائل الغربية والأفارقة وربما كان هؤلاء يشعرون بخيبة الأمل بسبب خضوعهم للسلطة المركزية وانظمتها وقوانينها ورسومها وهي خارج حدود بلادهم مما اعتبروه تجاوزا وإحاقا لحقوقهم فلوجد لهم منتفعا في الانجرار لهذه الحركات الانفصالية تحت ستار الإسلام فضلا عن امتداد الإسلام في رقعة شاسعة ومترامية تقع بين الصين والمحيط الأطلسي ودخول الأقاليم ذات الطبيعة المذهبية من حيث البيئة والموقع الجغرافي في حوزته جعل هذه الأقاليم ومنها المغرب الإسلامي تدين للسلطة المركزية ردا من الزمن لن تلبس بعدها أن تعود وتتنظم في حركات مستقلة وانفصالية نتيجة للتصور الإداري والسياسي والعسكري للدولة العربية الإسلامية وعدم سيطرتها وبسط نفوذها وبسبب تنامي هذه البلدان عن مركز الحكم ولا ريب في أن ظهور المغرب الإسلامي بشكله المنفصل قد تمثل بصورة واضحة بقيام إمارة الخوارج الأمازيغية والصفرية في المغربيين الأوسط والأقصى وكذلك في إمارة الأمازيغ في المغرب الأقصى حيث شغلت هذه الإمارات الامتداد السياسي من البحر المتوسط شمالا حتى لواسط أفريقيا الوسطى جنوبا ومن (تونس) شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا مضافا إليها مناطق المغرب الأدنى وبعض المغرب الأوسط الشرقية التي امتد فيها نفوذ إمارة الأغلبية الموالية للخلافة العباسية وكانت السياسة التي لخصتها المغرب الإسلامي في بداية القرن الثاني الهجري هي سياسة إقليمية انفصالية تمثل في واقعها المصالح الإقليمية للأقوام التي كانت منضوية تحت لواء الخلافة الأموية

والظاهر أن هذه الأقوال قد حققت أهدافها الاستراتيجية بظهور كينائتها السياسية المتمثلة بالإمارات والدويلات التي شملت سيادة نخلاف نعامها سيادة إمارات المشرق الإسلامي التي ظلت موالية للخلافة العباسية أن قيام الإمارات المستقلة في المغرب الإسلامي هو صورة جديدة للأوضاع السياسية وقد أوجت كثيرا في نفوذ الخلافة العباسية وفصلت من مواردها البشرية والمادية إلى حدود قصوى مما أضطرها ومهد إلى أحداث رهيبة ومفجعة للعالم الإسلامي بأسره وذلك بعد مضي ما يقرب من ثلاثة قرون من قيام هذه الإمارات حيث تدفقت على العالم الإسلامي سيول الصليبيين لتحت في المشرق الإسلامي وخصوصا في بلاد الشام وفلسطين ثم الارتياح العقولي لحواضره ومدنه وبيت الرعب والهلع من المسلمين معا أدى في النهاية إلى إسقاط الخلافة العباسية وتدمير بغداد قلب العالم الإسلامي ومحور تمدنه وحضارته ولكن على الرغم من ذلك والتشغال هذه الإمارات في الصراع السياسي والعسكري فيما بينهم فقد كانت لها جهود مشيرة في نشر الإسلام وتقديم ما هو جديد للحضارة العربية الإسلامية وخصوصا الأغلبية والأندلسية والرسامين الذين ساهموا في ترسيخ بعض المفاهيم الحضارية وكذلك الفاطميين والمرابطين والموحدين وورثتهم من بني مرين وبني عبد الواد وبني حطاس حيث يمكن أن نلحظ دورهم في تعزيز مكانة الحضارة العربية الإسلامية في المغرب والأندلس.

وهكذا توزع ولاء العناصر التي كان يتكون منها سكان المغرب وخصوصا القبائل المغربية والأندلسيين والفاطمية بين الخوارج⁽¹⁾ والعلويين⁽²⁾

⁽¹⁾ للاستزادة عن الخوارج انظر المورد - أخبار الخوارج للكتاب العامل في اللغة والأدب والنحو والتصرف) يوليوس في الهارون - الخوارج والشيعة عمر أبو القصور - الخوارج في الإسلام د/ سهر التتوي - أب الخوارج في العصر الأموي د/ محمود اسماعيل الخوارج في المغرب الإسلامي د/ تليف محمود - الخوارج في العصر الأموي.

⁽²⁾ الطبري وتاريخ الرسل والملوك - الأندلسي - مقاتل الطالبيين - بن الأثير - العامل في التاريخ - د/ فاروق عمر فوزي - العباسيون الأوائل، طبيعة الدعوة العباسية، د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة العباسية.

وموالي بني أمية ⁽¹⁾ الذين تلقاهم المغرب عن المشرق فظهرت اتجاهاتهم وتبلورت على شكل حركات ثلاث الأولى حركة الطوبيين وأنصارهم قد بنيت هذه الحركة ادعائها بحفظها الشرعي في الخلافة لانهم أئمة وورثو علم النبوة وتحملوا عن الدعوة لإسقاط الحكم الأموي ⁽²⁾ وقد جعلوا من المغرب ميدان لمقاومة السلطة المركزية والانفصال عنها.

أما الحركة الثانية فهي حركة الخوارج الذين نبهوا المبادئ الحرة التي كانت تنزع إليها القبائل العربية حيث كان أغلب الخوارج من العرب ولعل البوادر الأولى لأفكار الخوارج ظهرت في منطقة الجزيرة الفراتية بين دجسلا والفرات شمال العراق وجنوب بلاد الشام إذ كانت مضارب للقبائل العربية المتناحرة من الجزيرة العربية وكان الخوارج يفضلون الانتماء إلى مناطق التي تتلقى روح أهلها مع مبادئ الحرية لأنها الأساس الذي يقوم عليه مبدأ الخوارج في تبرير الانفصال عن الخلافة ومقاومتها حيث لا تكون أن الإمامة (الخلافة) هي حق متاح لكل مسلم والظاهر أن ذلك يتفق مع نزعة القبائل المغربية الذين حرّموا من المساواة.

ونتيجة للإفصال الذي حصل بين الخوارج وبعض القبائل المغربية في المغرب بدأت تظهر روحية جديدة لهذه القبائل تغلب عليها النزعة الانفصالية عن الدولة الأموية وتعبر عن نفسها بالتمردات والحركات والثورات ضد عمال الدولة وولايتها هناك وقد استمر الحال حتى خلال العهد العباسي حيث عامل بعض الولاة السكان معاملة دفعت البعض منهم إلى تقبل الآراء الانفصالية ولهذا دامت حركات القبائل هذه قد اكتسبت الطابع الانفصالي فهي تتلقى مع أفكار الخوارج في وقوفها ضد الأمويين وولائهم لأن هذه الأفكار تنتم بالوضوح وعدم الميل إلى الفلسفة

⁽¹⁾ وهم الأمويون وأنصارهم الذين أموا المغرب المختارا أو خسرنا هروبا من سطش العباسي وملاحقتهم.

⁽²⁾ من الحركات الطوبية في العصر العباسي الأولى حركة العينية سنة 144هـ التي قادها محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الملقب بالنفس النقية وهي من أشهر حركاتهم ولكن الخلافة العباسي أبو جعفر المنصور قمعها لما احدث ثورة إبراهيم أخي محمد النفس النقية في العراق سنة 45هـ (المصنفاني - مقال العائيين - الطبري تاريخ الرسل والملوكة من الأسير - الكامل في التاريخ)

والتنزيل⁽¹⁾ وهي تتلاءم مع عقليتهم وطبيعتهم التي أشار إليها صاعد الاندلسي بتسميهم بالشرعية وأغذهم بأحكام الملة وتصرفهم للدين⁽²⁾ وقد أكد السلاوي أن مبادئ الخوارج تتلاءم مع الطياع الفطرية لبعض القبائل في المغرب وتتمشي مع أهدافهم السياسية وتخدم شعورهم. فقال: 'وحسن موقعها - أي مبادئ الخوارج - لديهم بسبب ماكانوا يعانون من وطأت الخلافة القرشبة وجور بعض عمالها فلفتهم أهل البدع - أي الخوارج - أن الخلافة لا يشترط فيها القرشية ودسوا إليهم مع بعض تشديدات الخوارج وتعصفتهم واروهم ما هم عليه إنما هو من آثار القرشية له والخوف منهم وإن ذلك هو عين التقوى المأمور بها شرعا⁽³⁾'

ويتبين لنا، أن القيروان كانت مركزا لدعاة الخوارج حيث كانوا يتصلون بالمغاربة فانتشرت آراء الأباضيين⁽⁴⁾ والصفريين⁽⁵⁾ بينهم فضلا عن جماعات الأفرقة وجماعات السودان القاطنين جنوبي الصحراء ولم تمضي إلا فترة قصيرة حتى تقلل الخوارج في سائر أرجاء المغرب الأقصى وبعض نواحي أفريقيا

⁽¹⁾ فخر الدين قراي، اختلافات فروق المسلمين والمسلمين من 49.

⁽²⁾ طبقات الاسم من 12.

⁽³⁾ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج 1 ص 123 (أن قول الخوارج بالاستعراض ورفض القبا والأشر بالمعروف والهي عن المنكر قبلها لدى قبائل المغرب شدة التعرّض وقوة اليأس والتعلل للتطوّر) الاسراغيني التصر في الدين وتبميز الفرقة القلبية عن الفرقة الهاشمية من 142.

⁽⁴⁾ الأباضية فرقة من فرق الخوارج تنسب إلى عبد الله بن أبان الحنفي التميمي وكانت لهم في مدينة البصرة في العراق مقرات سرية يجتمع فيها دعاةهم والصارم لرابطة المذهب وقد أصبحت لهم التنظيمات دقيقة مبنية على أسس متروسة ويده جابر بن زياد الذي تعاضى المومنين الحنفي لهذا الفرقة وكان من اعظم علماء عصره بالشرعية والفقه الإسلامي وكان خليفة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة أورك صعوبة نجاح الأباضية في المشرق قراي أن ينطلق الدعاة إلى بلاد المغرب لغير للاعتراف: د. موداي عبد محمد - أباضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية في أباضية المغرب في القرن الثاني الهجري يحلّه في مجلة كلية التربية العدد - 1982.

⁽⁵⁾ تنسب إلى عبد الله بن صفار مؤسسها وإن أول من جاء بطلب مذهب الصفريّة بغيروان أفريقية عقزعة مولاي بن عباس حيث قدم من العراق ومعه سلمة بن سعيد يدعو إلى الأباضية (أبو قريبا - السيرة الورقة 12 وإخبار الأئمة).

والمغرب الأثني وقد أكد ذلك بن خلدون بقوله: "أن الصفرية قد فشت مقلاتها في سائر القبائل بالمغربية" (1).

كما ظفرت بلاد المغرب باهتمام الإباضيين حيث أصبحت مبدأنا لتحركات الخوارج فمنذ أوائل القرن الثاني الهجري اجتهد الإباضيون لتشرع أرائهم بين المغاربة فالتصّبوا كثيرا من الأنصار والمؤمنين في إقليم طرابلس وجبل نفوسة حتى أصبحت منطقة هذا الجبل (دار هجرة) للإباضيين في المغرب عامة (2) ولعل رسوخ المبدأ الإباضي في جبل نفوسة مهد الطريق لانتشاره بين قبائل، هوارية و لماية وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة وبين كثير من القبائل المغربية الأثني والأوسط وهكذا أصبحت بلاد المغرب في أقل من ربع قرن، معقلا لتبسط الخوارج وبدأوا أحقية جديدة في تاريخ هذه البلاد حيث عملوا على فصلاتها عن الدولة العباسية وبذلك استطاع الإباضيون والصفريون إقامة إمارتين قدر لهما أن تلعب دورا مهما في تاريخ العالم الإسلامي.

غير أن حركات الخوارج كانت تعاني من السلبات المتمثلة بعدم التعاون بين الإباضيين والصفريين في المجالات السياسية والدينية فضلاً عن الخلافات فيما بينها وبخاصة فيما يتعلق بالموقف من الخلافة العباسية كما عانت تنظيماتهم وحركات من الإشكالات بسبب سوء فهمهم لمبادئ بعضهم البعض الآخر وإسرافهم في تطبيق تعاليمهم وعدم وجود أي تنسيق بين حركاتهم في المغرب مع ما يشابهها في المغرب مع شببها في المشرق الإسلامي من حركات وثورات أما الحركة الثالثة التي كان من المفترض أن يشهدها المغرب الإسلامي فتتمثل ببعض الجماعات من أمويي الشام الذين تبحروا من مطاردة العباسيين مع مواليهم وكونهم إذا التجأ إلى هذه البلاد ملتجئين إعادة مجد دولتهم في هذا الطرف البعيد عن مركز الدولة العربية العباسية بكونهم يمتلكون سابقة في الحكم ولهم تراث فني

(1) المعر وديوان المبدأ والغير ج 4 ص 189.

(2) ابن خلدون صورة الأرض ص 68.

يستندون إليه في قواعد الحكم غير أنهم لم يلبثوا أن اتجهوا بأنظارهم نحو الأندلس بسبب ظروف المغرب غير المواتية لهم في استقطاب القبائل المغربية التي لاقت الأمرين من المؤيدين والأخصار و كان عبد الرحمن بن معاوية الداخل يتزعم هذه الحركة فكان ينتقل في ربوع المغرب مستترا بواسطة قبيلة نفزة الذين هم أحواله⁽¹⁾ لعله يجد له موطأ قدم و ذلك قيل أن يمهّد لنفسه و لأتباعه للعبور إلى الأندلس.

ولا شك في أن عبد الرحمن بن معاوية وأنصاره من الأمويين ومواليهم لم يقتنعوا بدورهم في إفريقية ولم يجتوا منها ربحاً، حيث صدموا بواقعها الذي لا يخدم طموحهم و لا يحقق أهدافهم في إقامة دولة الأمويين هناك فكان المغرب بقيادته و فصائل ينظرون إلى الأمويين، نظرة شك فلم يلقوا منهم التأييد حيث كان بعض ولاة الأمويين قد عاملوا السكان معاملة فيها كثير من الظراء والاضطهاد و زعموا أن قبائل المغرب تمثل قوماً للمسلمين.

(1) علي الرضا مما كان يربط بين قبيلة نفزة و الأمويين من أواخر السب و الفرس فقد خالست أم عبد الرحمن و اسمها راح أو ردان من سبي هذه القبيلة ولكن لم تلغ محاولات الخوفاة في إقناع أهل المغرب بإقامة إمارة مستقلة هناك الأمر الذي جعل الأمويين يتجهون صوب الأندلس على أية حال لأن السطوحات قبيلة جدا عن القضاة الذي إبداء الأمويون في المغرب لإقامة دولتهم (1) مجهول أخبار مجموعة من 55 ابن عذاري البيان المغرب من 1، 71

الباب الثاني

قيام الإمارات والدول وأحوالها وعلاقاتها السياسية والإدارية

ثمانية فصول

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الأقصى

1- إمارة بني مدرار وتأسيس مدينة سجلماسة

2- العلاقات السياسية:

أ- بنو مدرار والخلافة العباسية

ب- بنو مدرار وبنو رستم

ج- بنو مدرار والإمارات

الفصل الرابع

إمارة بني مدرار في المغرب الأقصى

(140 - 354هـ / 757 - 965م)

انتشرت أراء الخوارج الصفرية في بلاد المغرب في بداية القرن الثاني الهجري على أيدي الدعاة العرب الخوارج الذين لجؤا إلى هذه البلاد وقد اتجهت الدعوة الصفرية إلى القبائل المغربية العنارية في المغرب الأقصى و من زعماء القبائل الذين نيسر لهم الاتصال بهؤلاء الدعاة المشاركة مسيرة المطفري زعيم قبيلة مططرة الذي كان قد تلقى العلم على يد عكرمة بن عبد الله المغربي مولي عيسى لحد أفهاء مكة وتابعها وكان عكرمة بن عبد الله من أصل مغربي معا أتاح له نشر أرائه في هذه الربوع بأسلوب منظم قلتم على الدعوة السرية ومن الزعماء الآخرين الذين اتصلوا بعكرمة في القيروان أبو القاسم سمعو بن واسول المعروف بمدرار شيخ قبيلة مكناسة الذي نجر في دراسة أراء الخوارج الصفرية وأصوله وفروعه حتى وصف بأنه من مشاهير حملة العلم وانتشرت أراء الخوارج في قبيلة برغواطة على يد طريف بن شمعون الذي إنلقى هو الآخر بعكرمة بن عبد الله في القيروان وفي قبيلة زناتة التي ساهمت في الحركة السياسية التي قامت فيما بعد.

ويرد ما يشير إلى أن بعض المشاركة المقيمين بأفريقيا داتوا بأراء الصفرين، وكان هؤلاء قد تسربوا إلى بلاد المغرب بصحبة الجيوش القادمة من المشرق بهدف الفتح ولكن لم يكن لهم على ما يبدو أي تأثير فكري أو سياسي يذكر.

ونتيجة لانتشار أفكار الخوارج الصفرية ومبادئهم في المغرب الأقصى لم تحجم جماعات الأفارقة الذين اختلطوا بالروم عن اعتناقهم لها على يد زعيمهم عبد الأعلى بن جريج الذي تتلمذ على يد عكرمة بن عبد الله في القيروان وكان هؤلاء الأفارقة أكثر تحضرا من غيرهم من السكان لأنهم أخذوا على أمرهم معا ترتب على تحولهم للصفرية نتائج مهمة في الصراع مع الولاة الأمويين الأواخر والولاة العباسيين كما امتدت تعاليم الصفرية وأفكارها إلى جماعات من بلاد السودان

الذين كانوا يقطنون جنوب السودان و قد ارتضوا مبادئ شيخ قبيلة مكانسة
سمغوين واسول التي كانت تدعو إلى المساواة السياسية.
ويلاحظ مما عرضته المصادر، أن آراء الصفرية تقلقت في جميع أرجاء
المغرب الأقصى وبعض مناطق المغرب الأدنى والجزيرة والسودان في مدة قصيرة
إذا قورنت بآراء الأباطنية في المغرب الأوسط. وقد اتخذت حركاتهم السياسية
طبعاً عملياً إذا توجهوا إلى المناطق الصحراوية الثانية في المغربيين الأوسط
والأقصى وعزلوا على إقامة إمارتهم في جنوب المغرب الأقصى وفي منطقة إقليم
'نقراالت' بالقصى الصحراء من قصبة سجلماسة مركزاً لهم سنة 140 هـ/757م.

إمارة بني همدان وتأسيس مدينة سلجماس

حول الطوارج الصفرية علي تأسيس مركز سياسي وعسكري لهم يكون بمثابة عاصمة ومكسراً يستجمعون فيه قواهم الموزعة في مناطق مختلفة من المغرب و كان لابد لهذا المركز أن ينادى بعيداً عن سلطة الولاة العباسيين وعما لهم فتجهوا إلى قسبة سلجماس علي وادي نهر ملوية الذي يقع في إقليم (تافيلت) بالأصلي الصحراء الكبرى.

وكان أبو القاسم سمعو بن واسول المكناسي المعروف بمدار، قد حشد قبائل مكناسية وصنهاجة وزوية وبعضاً من زنوج السودان والاندلسيين للإلتهام في بناء مدينة سلجامة وإقامتها غير أنه قبل الشروع في العمل بادى إلي مبايعة عيسى بن يزيد المكناسي الذي كان من اصل سوداني ومن زعماء الصفرية البارزين في هذه المنطقة و حمل قومة علي طاعته لتسكينه في المشروع بتخطيط المدينة و بنائها و القيام بمهمة التجميع السياسي و العسكري المنشود و منذ سنة 138 هـ شرع في العمل و بعد سنتين اكتمل بناؤها و أقيمت أسوارها و قسمت مياهها من خلجان و غرست بالنخيل و كان سمعو بن ماسول في الأصل صاحب مائتة كثيرة ينتجع موضع سلجامة و يتردد إليها و لذلك فهو يدرك أهمية موقعها من الناحيتين الاستراتيجية و الاقتصادية.

إن مبايعة قبائل الصفرية ليس بن يزيد المكناسي يمثل في حقيقته قوة عناصر السودان في داخل الحركة الصفرية في إقليم تافيلت و قد حدث ذلك في السنة التي اختلعت فيها سلجماسية لتكون حاضرة لإمارة و مركزاً لقبائل الصفرية سياسياً و اجتماعياً لقد حرص الصفريون علي إنشاء مدينتهم في مكان حصين، إذ أقاموها وسط الصحراء جنوب تلمسان و في موضع التقاء فرعي نهر ملوية ثم أقاموا حصناً داخل المدينة أطلقوا عليه اسم "العسكر" كما أسسوا المسجد الجامع و دار الإمارة ثم بنى تلماس دورهم حول الحصن فامتد العمران حتى جاورت المدينة فرعي نهر ملوية.

ومن الجدير بالإشارة إلى أن معماري الأندلس أسهموا في بنائها، أما سورها فقد اكتملت سنة 205 هـ - وله اثنا عشر بابا، أهمها الباب القبلي والباب الغربي وباب غدير وباب الجزارين وباب موقف زلته و قد أصبحت سجلماسة بعد اكتمال بنائها ملجأ لجموع الصفرية و لجميع الثلاثين بها والهاريين إليها من أرجاء العالم الإسلامي، سواء من المغرب والمشرق و بذلك حققت أهدافها المرسومة لها سابقا على يد زعيم مكناسة سمفون واسول في تجميع القبائل الموالية له و خلق كيان موحد لهم. غير أن أبا القاسم سمفون بن واسول لم يتول الحكم، بل عهد به إلى عيسى بن يزيد المكناسي وقد حكم هذا الأخير خمسة عشر عاما، ليس لدينا معلومات كافية عنها و الموجود منها يتسم بالإبهام وكثره يجمع على أنه نتيجة لسياسته فقد سقط عليه أهل سجلماسة واقتلوا ضده وقتلوه⁽¹⁾ وذلك لتماخذه انكروها عليه لا يتطرق المؤرخون إلى ذكر تفاصيل مهمة عنها ولعل التصرفات وإسرافه والاضطرار في أحكامه كان من الأسباب التي أدت إلى قتله بطريقة قاسية تتم عن التطرف والميل إلى العنف.

ويبدو أن عيسى بن يزيد لا يرقى إلى منزلة سمفون بن واسول من حيث السابقة في اعتناق الآراء أو الأفضلية في العلم، فتولى أمر سجلماسة و عكف طوال مدة حكمه 155-168هـ -772هـ-784م على إرساء قواعد إمارته ورأى أنه ليس من الحكمة التوقف من العباسيين وولائهم و ماله في المغرب موافقا يتسم بالهدوء. و ذلك و ذلك بغية تصرافه إلى حل المشكلات التي كانت تواجه إمارته و لضمان سلامتها وأمنها وتحقيق استقرارها في المنطقة، مما اضطره على مسالمة الولاة العباسيين وربما و عدهم بتبعية اسمية مع الاحتفاظ بالاستقلال السياسي عن السلطة الخلافة وتأثيراتها؛ وأثمرت سياسة سمفون بن واسول و مساهمته في إمارته غير أن ابنه الياس الملقب بالوزير الذي خلفه حاد عن أبيه فثار عليه أهل

⁽¹⁾ و هاء أهل سجلماسة قتلوا عليه و قتلوا و قتلوه إلى أهل مكناسة في سطح جبل ثم قتلوه بالعسل و نكروه حتى قتله النعل والحشرات (ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 152).

سجللماسة سنة 173هـ - وخلصوه ونصبوا أخاه إلياسع الملقب بأبي المنصور 208/173هـ -

ويمكن القول، أن الياسع بن سمعو المدراي هو المؤسس الحقيقي لإمارة بني مدرار فقد استطاع هذا الأمير أن يرسى دعائم إمارته ويكرس السلطة الكاملة لبني مدرار في سجللماسة التي أصبحت في عهده مركزا سياسيا مهما حيث أتم بناءها و تشييدها واختلط بها المصالح والقصور⁽¹⁾ و اتبع سياسة شديدة إزاء القبائل المعارضة لحكمة كما أولي اهتمامه إلى الحركة العمرانية في المدينة إلى إحياء لكل قبيلة حيها مما كان له أثر مباشر على الأمن والاستقرار فيها كما ترتب عليه ازدهارها وتقدمها فأصبحت حاضرة و مركزا من مراكز الحكم القوية في بلاد المغرب الإسلامي.

وتولى بعد الياسع ابنه مدرار الذي لقب بالمنتصر ولألف طان المصادر لا تمدنا بمعلومات عنه سوى ما يتعلق بالصراع الذي نجم عن تولية ابنه ميمون 'من زوجته أروى وهي ابنة عبد الرحمن بن رستم أمير الإمارة الزمستمية المعاصرة لهم '.

وكان ميمون هذا قد استبد بالأمور ونساء السيرة في رعيته فخلعة أهل سجللماسة ونصبوا أخاه الأخر ميمون 'من زوجته نقيّة ' ومكث الأخير بحكم الإمارة حتى سنة 263هـ وفي عهد ابنة محمد بن ميمون تفاقم خطر الفاطميين على إمارة بني مدرار وبدأ يهددها بالقضاء عليها ولكن في عهد عاه الياسع بن مدرار حال دون قيام الفاطميين بتحقيق أهدافهم حيث استطاع الياسع بن مدرار القبض على عبيد الله المهدي منظم الدعوة الفاطمية ورأسها وابنة القاسم في مدينة سجللماسة وإيداعها السجن إلى أن زحف أبو عبد الله قائد الجيوش الفاطمية نحو سجللماسة وأسقطها وحررها من السجن سنة 290هـ -

(1) ابن خلدون - العر وديوان الممك و الخير ج6 ص 268 .

غير إن السلطة في مدينة سجلماسة عانت مرة أخرى إلى بني مدرار حيث ثار أهل سجلماسة على عامل الفاطميين و قتلوه و قدموا علي أنفسهم للفتح بن ميمون بن مدرار الملقب بالرسول سنة 298هـ ثم خلفه أخوه أبو العباس أحمد سنة 300هـ و لكن الفاطميين أطاحوا به سنة 309 هـ ثم استمر الصراع حول السلطة بين أسرة بني مدرار إلى أن تولى محمد بن الفتح بن ميمون بن مدرار سنة 332هـ و تلقب بالشكر لله وقطع العلاقات مع الفاطميين و نبذ آراء الصغرية الخوارج وأخذ بمذهب أهل السنة وتسمي بأشير المؤمنين وكان الشكر لله عادلا حسن السيرة و لكفة كان يمثل خطرا علي النفوذ الفاطمي في المغرب الأقصى وعلى الرغم من الحملة العسكرية التي جردها الفاطميون بقيادة جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله و دخولها سجلماسة سنة 347هـ و قتلها الشكر بالله فإن السلطة السياسية في سجلماسة استمرت في بني مدرار حتى سنة 354هـ فقد حكم ولدا الشكر وهما المنتصر بالله 347-352هـ و المعتز بالله 352-354هـ

العلاقات السياسية

بنو مدرار والخلافة العباسية:

لقد تصرف اهتمام الخلافة العباسية وولاتها في القبرون إلى الانحطاط بأفريقية فأسيطروا أفاضي بلاد المغرب التي ينتشر فيها نفوذ بني مدرار من حسابهم بعد أن تسلمت فعلا عن نفوذهم و ذلك بفضل النضال القاسي الذي قام به الخوارج الصغرية مع ولاء بني عباس و الذي استمر روحا من الزمن تعرضوا فيه إلى التكتيل من المطاردة والبطش ما أفضى بهم إلى الانهواء داخل بلادهم الثانية ولم يكلفوا أنفسهم مشقة إعداد الجيوش من سجلماسة لخوض حروب مع الجيوش العباسية ربما تكون غير مأمونة العواقب ومن الناحية المبنية فقد اتخذت العلاقات شكل عداء لم يصل إلى درجة معقدة يتطلب معها قيام الحروب بين المدراريين و العباسيين، وذلك لأن كلا منهما شغل بمشكلاته الذاتية عن مناجزة خصمه وبعمرور الزمن فإن الموقف العباسي أخذ يتسم بالاعتدال إزاء المدراريين .

ويخيل إلينا أن السبب في عزوف بني مدرار عن مناجزة العباسيين، ربما يقوم على أساس أن الأمراء سجناسة هم بمثابة عمال للعباسيين وهم يعترفون بالتبعية لهم و يدعون إليهم أو أنهم كانوا يدخلون في علاقات التبعية للعباسيين رويداً رويداً، أو كانوا يتبعون بغداد اسماً ولعن المداريين إسمياً وقللوا هذا الموقف بسبب التهييب المشوب بالخوف من ولاية الخلافة في المغرب الإسلامي من أمثال يزيد بن حاتم⁽¹⁾ أو خلفائه ممن عرفوا بقسوة البطش و ملاحقة حركات الطوراج إن قدم سفيو بن ماسول في إقامة الخطبة للخليفة أبي جعفر المنصور و ابنه المهدي من بني العباس في بلاد يدخل في إطار مبدأ (قتالية) الذي تجبزه أراء الخوارج و تحاشيا لأخطار محدقة بإمارته و هي ما نزال بعد فنتية، ولكن ما دام العداء تقليدياً و مستحكماً بين العباسيين و الفاطميين فإن أية قوة في العالم الإسلامي تقادي لحدي هاتين القوتين، لابد وأن يلهم إن موقفها من الطرف الآخر ودي وأن المصادر في الأهل توحى إلي هذا الفهم، إن بوضوح أو من طرف خفي، ولما تبين موقف بني مدرار المعادي للفاطميين، أوحى أن علاقاتهم كانت ودية مع العباسيين حتى لوصلتها بعض المصادر إلى حد التحالف بين الطرفين.

من المحتمل تقرب الشاكر ذه أحد أمراء المداريين من العباسيين ربما كان لغرض التخليب ضد الفاطميين و بخاصة عندما أخذ هذا الأمير يهدأ أهل السنة و ضرب العملة باسمه و لقب نفسه بأمرير المؤمنين و لكي لا يصح أن نؤكد التعميم حتى ولو أشار القلقشندي إلى أن الشاكر ذه " دعا لنفسه مموها بالدعاء لبني العباس"⁽²⁾

⁽¹⁾ وهو يزيد بن حاتم بن نصيب بن المهلب بن أبي الصغرة و هو أول وال في بلاد المغرب الإسلامي (انظر ابن عذاري - البيان المغرب - ج 1 ص 87 ابن الخطيب أجمال الأندلس ج 3 ص 9-8 .

⁽²⁾ قلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاج، ج 3، ص 167 .

أما حادثة وقوع عبيد الله المهدي ⁽¹⁾ رأس الدعوة الفاطمية في بلاد المغرب و معه ابنه أبو القاسم ⁽²⁾ في قبضة اليعصب بن أبي القاسم بن مدرار و إيداعه السجن في مدينة سجلماسة لا يعرف فيما إذا كان بإيعاز من الخلافة العباسية أو وقلأ لميلهم أو ترضية لهم أو كان الحادث عرضيا كما أنه لا يمكن أن نتخذ بعض الروايات المضطربة كثريفة للقول بأن العلاقات كانت ودية بين بني مدرار و بني العباس، لأن أمير سجلماسة اليعصب بن أبي القاسم بن مدرار كان على مذهب أهل السنة بما تدبر به الخلافة في الوقت الذي كان هو على مبدأ الخوارج ⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فلا يصح اعتبار حادثة سجن عبيد الله المهدي قرينة على توطد العلاقات العباسية المدرية، فلجزاء اليعصب بن مدرار لا يستهدف تموضعا الخليفة - لأنه كان على مباحته و لكن يمكن القول أن عبيد الله المهدي كان يمثل خطراً على سائر كيانات المغرب فضلا عن أن اليعصب بن مدرار كان معروفا بالحدار والثقة وكان يستغيب من أي داخل إلى حضرته أو مستجير بها أو لاذ إليها، فلا بد أن يستوفقه فيما يقوم به عبيد الله المهدي من التجوال في بلدان المغرب الاسلامي وإخافته الأموال والهدايا على حكامها.

وفيما يتعلق بالخطر الذي يمثله الفاطميون على مسرح الأحداث في المغرب يجعل بني مدرار في حذر تام منه و خصوصا في عهود اواخر أمرائهم و لكن بالنسبة للخطر العباسي فقد فات أوانه فهو الآن لا يشكل تهديدا مباشرا لإمارة بني مدرار و للعباد الصغرى الخارجي كما هو الحال في المشرق الاسلامي حيث عمد العباسيون إلى استئصال شائقة الخوارج الصفوية في مدينته القسرين و منطقة

⁽¹⁾ و هو أبو محمد عبيد الله بن جعفر بن اسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ابن عاتري، البيان المغرب ج 1 ص 158 - 159، ابن الخطيب، احوال الاعلام ق 3 ص 54).

⁽²⁾ و قد أصبح يعرف بالخليفة القائم بأمر الله بعد أن حكم بعد أبيه.

⁽³⁾ أورد بن خلادون روايتين في هذا الصدد أولاهما أن الخليفة العباسي المتعبد بالله هو الذي أوحى إلى بني مدرار بالقبض على عبيد الله المهدي فيما يذكر في الرواية الثانية أن اليعصب استجاب لعقب الخليفة العباسي المتعبد بالله كما أن هناك روايتان لا تتحدثان ما إذا كان الخليفة العباسي أم الأمر ألا غيبس هو الذي بعث ليبحث اليعصب على القبض على عبيد الله المهدي (الحر و ديوان الشبأ أو الخبر ج 2 ص 351-350).

الموصل و بلاد الجزيرة العراقية وأرض السواد في العراق فلبغوا جموعهم وقتلوا زعماءهم ويطشوا بجيوشهم ولكن هل أن علاقات بني مدرار المعينة على العداء مع الأغلبية الذين كانوا يدينون بلولاء السياسي و الشعبية للعباسيين تنعكس سلباً مع علاقتهم مع الخلافة أم إن ذلك ينحصر في السياسة التي كان يتبعها الأغلبية بعيداً عن التأثير العباسي؟ إننا نقرأ عن تعرض فقهاء الصفرية و أتباعها لاضطهاد الأغلبية ووصمهم بالزندقة و العروق عن الدين و تشتت اجتماعاتهم أثناء الصلاة في المساجد وتبديد حلفاتهم في مدينة القيروان ومنعهم من مزاوله مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم وملاحقة المخالفين منهم وتعريضهم لمزيد من البطش والتعنيف.

علاقة بني مدرار مع بني رستم:

كانت العلاقات بين الطرفين قد اتسمت بطابع ودي ربما كان ذلك بسبب مواجهتهم عدواً مشتركاً واحداً هو الخلافة العباسية التي كانت تنظر إلي الخوارج بصورة عامة -صفرية أو إباضية، أعداءا تقليديين لها كما أن الرستميين ربما في هذا الموقف أولوا مرونة وبعد نظر سياسي فضلا عن استيعابهم للظروف التي كانت تلغ المنطقة بأسرها فقد غضوا الطرف وتحاشوا الخلافات مع جيرانهم المدرايين بخلاصة الذين شعروا بأنهم يرتبطون وإياهم بوحدة المصير المشترك فكانا دوماً يظهران موافقين لبني مدرار ورغبتهم في السلام والمواذعة الأمر الذي جعل بني مدرار يستجيبون لهم وذلك على الرغم ما تلف الرستميين كثيراً من التناقض و التضخيم والظاهر إن السبب الذي دفع بني رستم إلى هذه السياسية مع المدرايين ربما يكمن في أن عدة آلاف من الخوارج الإباضية كانوا يقيمون في سجلماسة قد لعبوا دوراً في مناهضة أمرائها وإتهم كانوا مواليين لرواسلهم من مشايخ الإباضية أكثر من ولائهم للإمارة التي كانوا يعيشون في كنفها، وقد درجوا على إرسال زكاة أموالهم إلى مشايخهم في تاهرت ليصرفوها حيث شاءوا¹¹، وعنده فلقد للرستميين من تولية الظاهر لكل شقاق والإحجام عن إنكاء الفتن التي كانت تبرز من خلال احتكاك أنصار المبدئين أو الأقليات في كلتا الأمرتين كما أن

¹¹ د. محمود اسماعيل «الخوارج في المغرب الإسلامي» ص 159.

المصاهرة السياسية التي عقدت أواصرها بين الرسميين والمدبريين ⁽¹⁾ خلفت كثيراً من غلواء تطرف بعض القلائد التي لم يكن يروق لها أن تزي الرسميين بواضعون بني مدرار ويسلمونهم ⁽²⁾ وساهمت على تحقيق اقتضامن وطونام بين إمارتي الخوارج وعزوف كل منهما عن التدخل في الشؤون الداخلية للطرف الآخر ⁽³⁾.

علاقة بني مدرار مع الإدارة:

كان طابع العداء هو الغالب على العلاقات السياسية بين المدبريين والإدارة و لعل السبب يكمن بالدرجة الأولى في الخلافات المبدئية فالمعروف أن الخوارج صوما و الصفرية بصورة خاصة كانوا يصممون عداءاً تقليدياً للطويين و للإدارة تزيد بين علي وجه الخصوص كما أن العامل التاريخي في رسم العلاقات بهذا الإطار يمكن استقراؤه بوضوح من خلال عوامل قيام إدارة الإدارة في المغرب الأقصى سنة 172هـ - 789م الذي كان على حساب الخوارج الصفرية وتلوذهم في هذه المنطقة حيث كتسبح الإدارة كل وجود للقبائل التي تسكن بالمبدأ الصفري و عرضوها للبطش و التكنيل وأصبح لا مناص للطرفين من خوض الصراع ضد بعضهما ومن المرجح أن الإدارة كانوا وضعوا خطة لتصفية الخوارج الصفرية و لكنهم علي ما يبدو عجزوا عن تحقيق ذلك بسبب صراعاتهم الحاد و تداخله مع الأغلبية الذين سخرتهم الخلافة العباسية لمناهضة الإدارة فقد نجحوا في إثارة القلاقل وحرك المؤامرات في وجه أمراء بني مدرار و العمل على القضاء عليهم و تصفيتهم ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ تم تزويج (الروي) ابنة عبدالرحمن بن رستم من (مدرار) الذي تلب علي الفيه (ميجور) من امراء اقوي بويج أميراً علي سجلماسة.

⁽²⁾ يقول القوسي: (و قيل إسماعيل رغم اعتراض المعترضين و المتكبرين) (إز هاراباضين ج 2 ص 92).

⁽³⁾ د. محمود إسماعيل، المصدر نفسه ص 109.

⁽⁴⁾ اغتالوا إدريس بن إدريس (الأول) 173-177هـ بإيعاز من القضاة هارون الرشيد اختلعه سجيناً بن حرير المعروف بالتمناخ ثم اغتالوا إدريس الثاني 187-213هـ فذلك مولاهم أرند الذي كان صاحب إدريس الأول من المشرق الأموي (البحري-البيان المغرب ج 1 ص 210-211- تسليق الدين بن الخطيب - أعمال الأعلام ص 192-194-202).

وعلى الرغم من أن المنداريين كانوا يسعون في إخفاء للقيام بالدور نفسه الذي كان يقوم به الأفراسة ولكن ظروف المنطقة لم تكن تسطيع لتحقيق مساهم حيث تصاعد الخطر الفاطمي وبات يهدد الجميع فطبيهم أن يتدبروا و سائلهم لتتدبى هذا الخطر في الوقت الذي لم يكن وصلهم يسمح لهم في الوقوف أمام الزحف الفاطمي المتفاقم في جميع أنحاء المغرب الإسلامي و إفريقية.

والظاهر أن الطرفين لم يحما وسائل المكائد والدياس ضد بعضهم البعض فقد اتخذ العداء السياسي بينهما مظاهر من الفعل ورد الفعل كان الأفراسة بمسكون فيها بزماء العبدة فهم كان بنو مدرار بلونون بالصمت حيناً ويتصدون لمواجهته حين أخر وأوضح صوره لهذا الصراع ما قام به الأفراسة من غزو المنداريين الذين كانوا ثلاثة أضعاف جيشهم ولكن رغم ذلك فإن الأفراسة أوقعوا فيهم الهزائم ووصلوا في غزوهم إلى مدينة تلمسان التي تضم قبائل موية للمنداريين ولم يستطيع المنداريون في مدينة سجلماسة من إيجاد إخوانهم في تلمسان واستفادهم من ضربات الأفراسة ويعزي ذلك إلى استخالة الاتصال بين سجلماسة وتلمسان إلا عبر أراضي إمارة الأفراسة حيث كان الطريق إليها يمر بدرعة وفاس ومنها إلى تلمسان.

ومن المرجح أن بنى مدرار كانوا يحرضون زملائهم من الخوارج الصفرية المقيمين في غاس ضد الأمراء الأفراسة بذكر الهكري معلومات حول قيام عبد الرزاق الصفري و هو من عدوه الأندلسيين داخل مدينة فاس بثورة ضد الأمير علي بن عمر بن إدريس وقتلها، ولكن هذا المؤرخ لم يشر إلى أن هذه الثورة كانت رد فعل من جانب بنى مدرار وإن عبدالرزاق الصفري هو أحد صناعته⁽¹⁾ ولكن من المؤكد أن هذه الثورة أحدثت تصديقا في إمارة الأفراسة مما جعلت المنداريين يحثون العدة تسيطر نفوذهم واكتساح الأفراسة لكن جهودهم فسي هذا الصدد باءت بالفشل وذلك بسبب تعرض بلادهم للخطر الفاطمي.

⁽¹⁾ ويسمى إسمان الذين من الخطط (عبد الرزاق الفهري الفارحي إحصاء الأعلام في 3 ص 208 و خليف الفهري إلى أن هذا الفخر كان أصله من الأندلس ومن مدينة وشة الواقعة فسي إقليم راجون بأسبانيا (المغرب ص 125).

الفصل الخامس

إمارة بني رستم في المغرب الأوسط

- 1- إمارة عبد العلي بن السمح المعافري
- 2- الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت
- 3- العلاقات السياسية
 - أ- الرستميون والخلافة العباسية
 - ب- علاقات الرستميون بالأمازيغ
 - ج- العلاقات بين الرستميين وأمازيغ الأندلس

إمارة بني وسنم في المغرب الأوسط

144-336هـ/761-947م

إمارة عبد الأعلى بن السمح المعافري 140-144هـ/757-761م⁽¹⁾ :

وهو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح، عربي من اليمن اختاره أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري الذي كان من أبرز علماء الخوارج الإباضية لينضم إلى ما عرف بتاريخ الإباضيين حملة العلم الخمسة⁽²⁾ لقيادة الثورة الإباضية في المغرب وولاية الإمارة الإباضية المعقلة و ذلك لغزارة علمه وتلقاه العميق في الدين ومهارته في الاستنباط والتأكيد على تغليب العنصر العربي في هذه الحركة وإعطائها طابعا عربيا في بلاد المغرب الاسلامي.

ولقد استطاع عبد الأعلى بن السمح إعلان قيام إمارته في موضع غربي طرابلس يعرف باسم (صبة) ولم تعض إلا فترة قصيرة حتى تمكن الاستيلاء على طرابلس واتخذها مركزا وقاعدة له مما ساعده على بسط سيطرته على المنطقة الواقعة من برقة شرقا حتى القيروان غربا وإلى قران جنوبا.

غير إن الحركة التي كان ينزعها عبد الأعلى بن عبد السمح المعافري فشلت بسبب تخلي القبائل المغربية عنه في وقت عصيب كان قد تعرض له، ربما على أغلب الاحتمال إن سياسته التي اتبعها في تنظيم الجيش باستبعاد بعض العناصر دفعت هذه القبائل لهذا الموقف، حتى إن بعضهم من الإباضيين على حد قول أبي

⁽¹⁾ انظر الفصل الثالث "عصر الولاة" ص 15

⁽²⁾ تركزت دعوة الإباضية في المغربين الأدنى والأوسط ونحست لها بعض قبائل المغرب وراحوا في التنصل في دراسة مبادئها ولكن لم يكن لهم أن يفعلوا ذلك إلا في المشرك لرحل فريق من عثمانهم إلى البصرة لذلك على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وكان قد رحل في تلك خمسة أطلق عليهم حملة العلم الخمسة في مطعتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان وعاصم السدوسي من غريب الأوراس وأبو داود القلي التزوي من قبيلة نغزة جنوبى إفريقية وإسماعيل بن ضرار الخراساني من خراسان جنوبى طرابلس (إسماعيل الباروني مختصر تاريخ الإباضية ص 35).

زكريا بعد مقتل عبد الاعلى انقموا واشفوا بالجند الموالين لأبي الخطاب وأخذوا
 يمشون في البطش فيهم ⁽¹⁾ أما العامل الأخير الذي لودي بالحركة الاباضية
 السياسية والعسكرية التي كان يقودها عبد الاعلى بن السمح فهو الموقف الذي
 اتخذته الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور حيث أوعز إلي عامله محمد بن الأشعث
 الغزاعي بتجريد جيش سنة 142هـ لاجتياح طرابلس و سحق الجيوش الاباضية
 غير إن الجيش العباسي بقيادة عمرو بن الاحوص الفجلي فسر أسام الجيش
 الإبااضي في منطقة مقداس ⁽²⁾ وربما هي غدامي الحالية، مما جعل الخليفة يهتم
 بمعالجة توسع الحركة الاباضية و تهديدها للنفوذ العباسي في المغرب و مصر
 وحتى في بلاد الشام فأوعز إلي والي مصر محمد بن الأشعث مرة أخرى بتسولي
 الطريقة التي كانت وليت إلى عبد الرحمن بن رستم فاضى طرابلس الذي ولاء إياه
 رفيقه في العلم عبد الاعلى بن السمح ⁽³⁾ .

لقد اعد العباسيون في هذه المرة جيشاً يقول عنه بن عذاري بأن عنه أربعون
 ألف مقاتل ⁽⁴⁾ اعهد بقيادته إلى ثمانية وعشرين من القواد في مقدمتهم الأقلب بن
 سالم التميمي ⁽⁵⁾ والمغرب بن هلال ⁽⁶⁾ والمضاريق بن غفار الطائي ⁽⁷⁾ وقد زحف هذا
 الجيش بعنقه نحو مدينة برقة واتخذ من مناطقها القريبة قواعد لمصادره بترقب
 الفرصة للانقضاض على الإباضيين وإبادتهم وتخليص النفوذ العباسي وسطوته من

⁽¹⁾ الصورة و أخبار الأمة الورقة 12 .

⁽²⁾ وجاء عند مزاري مقداس على شاطئ البحر قبيل المغرب 1 ص 71 .

⁽³⁾ ومعروف أن اعتبار عبد الاعلى طريقة عبد الرحمن بن رستم و هو من حدة العلم الخمسة ليسون
 فاضيا في طرابلس كان له اعباء كثيرة في التوزيع اللامع للحركة الاباضية و تجميدها في إقامة إحصارة
 على ايسر صعيبة بعيدة عن الاقطار المعشقة التي كانت تسببها له الجيوش المعادية من حين لآخر .

⁽⁴⁾ قبيل المغرب ج 1 ص 73 .

⁽⁵⁾ وهو أبو عزال بن حنظلة التميمي الشهير بالرأى و الشهادة قدم المغرب مع محمد بن الأشعث الذي
 ولاء على طلبه فقام الفوارج إلى أن أصيب بسهم بالقرب من تونس فقتل سنة 150هـ و هو والد
 إبراهيم مؤسس إمارة الأغالب (الساكنين -الاستقلال- بخيار المغرب العربي ج 1 ص 129-130 .

⁽⁶⁾ نظر ترجمته في بن حنظل وفيات الأعيان ج 4 ص 101-102 .

⁽⁷⁾ نظر ترجمته في ابن شاعر التميمي . فوات الوفيات ج 2 ص 216 .

التهديد، فيما حشد الإباضيون جيشاً لا يبلغ المورخون كثيراً في تعدادهم بقولهم في أنه يزيد عن مائتي ألف مقاتل وقد عسكروا بهم في منطقة سرت⁽¹⁾ ونتيجة للخطأ العسكرية الذي وضعها محمد بن الأشعث الفزاعي⁽²⁾ فقد سحق الإباضيون وهزموا وقتل الكثير منهم، حتى أن عبد الرحمن بن رستم لم يستطع أن يقوم بإيجاد رفيقه عبد الأعلى، بل أثر الانسحاب من المغرب الأدنى بعيداً عن الضربات المتوالية التي قد يقوم بها العباسيون في المستقبل والاحتفاء في منطقة المغرب الأوسط.

⁽¹⁾ سرت مدينة ذات سور صالح تالمنح من طون و طانية و فيها ليقال لهم مزارع تقصد لواقعها إذا أنطرت و تلتهج مراعيها و هي على سبيل البحر -عنة طيبة و أصلها من ضمن خلق الله خلقاً (إبرو عبيد البكري - المسالك والممالك ج 2 ص 651 - بن حوقل).

⁽²⁾ نظاهر محمد بن الأشعث بالانسحاب من مملكة الأيباضيين في ساحة المعرفة و في محاولته الانكشاف عليهم كما أنه استغل الفزاع الذي نشب بين اده عناصر الجيش الأيباضيين من فويلتي زينة و هوارة حيث الهبت زينة لها المطاب عبد الأعلى موله مع هوارة مفارقة جماعة فهم (ابن عماري - البيان المغرب ج 1 ص 73).

الإمارة الرستمية وتأسيس مدينة تاهرت

144-283هـ / 761-896م

استطاع عبد الرحمن بن رستم، أن ينأى بعبد عن متناول الجيوش العباسية و خلفائها من القبائل وبدأ بعد عدة لوضع الأسس الكفيلة لإنشاء كيان سياسي مستقل على غرار ما كان سائد في المغرب الأدنى و بعد سنتين من الفشل الذي منى به الإباضيون بإقامة إمارة مستقلة هناك توصل إلى ما يفيد بقيام إمارته و احكام عوامل بقاءها و توسيع نفوذها و توطيد أركانها واستقطاب القبائل الأخرى لمناصرتها و أغلب الفطن أن الإباضيين والقبائل الموالية لهم لم تعد سهلة الإقناع كما كانت في السابق، حيث هدرت دماء رجالها بسفك أمام الجيوش العباسية و لم تحفظ بالكيان التي ناضلت من أجله فقد التزعت قاعدتهم طرابلس منهم لذلك شرطوا مبايعتهم لعبد الرحمن بن رستم بتأسيس قاعدة يمكن الدفاع عنها قديماً على اختيار موضع بني عليه مدينة تاهرت لتكون مقراً لإمارته و على سفح جبل جزول المرتفع القريب من منطقة 'تباريت' الحالية في ولاية وهران غربي الجزائر شرع بتخطيط المدينة وحفر الأسس لأسوارها سنة 144هـ، وبعد أن شيدت وأصبحت معقلاً عسكرياً و سياسياً وحضارياً و توطدت أسس الإمارة و أركانها و ترسست دعائمها و فواعدها بايعة القبائل عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة 160هـ مما أتاح للإمارة القدرة للدفاع عن نفسها و كانت قبيلة نفوسة في مقدمة القبائل التي بايعة لذلك التصرف لتنظم تاهرت حاضرة إمارته و قاعدتها فاستقطب كثيراً من القبائل و مثلها في مجلس للشورى وجعل نفسه مسئولاً أمام الدعاة و الإباضيين عامة عن تنفيذ كل ما ينص عليه مبدأ الشورى، وليس لأية أية صلاحيات بالتدخل في قرارات تسمى المصلحة العامة بدون التشاور مع المجلس المستشارين الذي كان يتألف من الفوارج' الشراة' وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجهها وفي عهد عبد الرحمن بن رستم كان مجلس المستشارين مؤلف من سبعة من خيرة رجال الإمارة أصحاب الصلاح والزهد والعلم وهم مسعود الاندلسي و عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وعمران بن

مروان الانطلسي وأبو الوثق سعوسي بن عطية وشكر بن صالح الخاسي ومصعب بن سيمان ويزيد بن قندين⁽¹⁾

لقد عرف عن عبد الرحمن بن رستم إشاعته للعدل بين الرعية وعدم الاستئثار بالحكم كما أنه استأصل عوامل الفتنة و الاضطراب فاستتب الأمن وأصبحت تاهرت دار أمان لمن يقصدها من المغرب أو المشرق و قد حرص الأمازيغيون أن تكون مدينتهم في موقع جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض قابل للعسارة مأمون من العدو⁽²⁾ وفي مكان مرتفع وعالم للرعي ليكون منتجعا صيفيا للقبائل الرحوية في شمال الصحراء. وفي غضون سنوات قليلة أصبحت تاهرت مدينة عامرة تقوم فيها تجارة نشطة تعتمد على موانئ عديدة أهمها مرسى فروخ وميناء مرسى نفس وميناء مرسى ستغلم وميناء مرسى وهران، وهذه الموانئ تربط الإمارة الرسمية بالإمارات والدول الإسلامية في المغرب والأندلس ومن الجدير بالذكر أن البعوثي⁽³⁾ والمقدسي⁽⁴⁾ وابن حوقل⁽⁵⁾ و البكري⁽⁶⁾، وصاحب كتاب الاستيعاد في عجائب الأنصار⁽⁷⁾ وياقوت⁽⁸⁾ ذكروا معلومات مفيدة عن المدينة منذ القرن الثالث الهجري وحتى السابع ملاحا أن المدينة تطورت منذ أن اختطها الأمازيغيون فأصبحت حاضرة للإمارة و قصبة لعديد من المدن الصغيرة والقرى ومركزا من مراكز العلم في العالم الإسلامي .

⁽¹⁾ النفوس، الأهل قرطبية في أمة وموت الأمازيغي ج 2 ص 104 .

⁽²⁾ م- ن ، ص 6 .

⁽³⁾ قال عنها المدينة العظمى و سمي عراق المغرب، التاريخ ج 1 ص 153 .

⁽⁴⁾ ذكر لها توصيفا دقيقا ثم قال عنها بأنها بكثير الطمر رطب وقل طيب رقيق الأنواق عزيز الهواء جيد الهواء (الحسن التلميس في معرفة الأقاليم ص 228).

⁽⁵⁾ وصلها في القرن الرابع الهجري من التواقيع العراقية والاقتصادية والامتداعية (صورة الأرض ص 86).

⁽⁶⁾ تحدث عنها في القرن الخامس الهجري وذكر أولها الأربعة وموقعها وأشار إلى زراعتها ومثلها (المغرب في ذكر بلاد الرقبة والمغرب ص 106).

⁽⁷⁾ مجهول مصفها في القرن السادس الهجري و قال عنها بأنها مدينة مشهورة قديمة شهيرة عليها سور صخر ثم وصف موقعها و مآلها الاقتصادية وزراعتها (ص 178).

⁽⁸⁾ قال عنها في بداية القرن السابع الهجري أنها مدينة جائلة وكثت فيها تسمى عراق المغرب (معجم البلدان ج 2 ص 8) .

وبعد الدكتور الحبيب الجعفاني فصلاهما في تطور الحركة العمرانية في تاهرت فيقول أنها في بداية أمرها كانت مدينة متقنطة متواضعة يسيطر عليها مظهران، مظهر المعسكر والمظهر الديني وقد غلبت عليها شخصية عبد الرحمن بن رستم الزاهد الورع الذي كان يدبر بنفسه شؤون الإمارة و المدينة معا وقد جاء هذا التطور نتيجة لازدهار اقتصادها و لاسيما تجارتها و من المنشآت المعمارية في تاهرت، دار الإمارة ولكن أبرز اثر معماري في عتق المدينة هي القبة المشرقة على السوق و تعرف بالمعصومة ⁽¹⁾.

ونظراً للعلاقات الروحية و الترابط المبدئي بين إياضي البصرة في العراق وبين إياضي المغرب حيث تخرج جملة العلم الخمسة المغاربة من هناك، فقد إلتزم إياضيو البصرة بدعم الإمارة الرسمية الإياضية مادياً و روحياً فأرسلوا إليها الأموال وأفنؤهم في مشكلاتهم السياسية والمذهبية واستغلوا التسوية خلافاتهم ببدء النصح لهم وإرسال البعث والرسل، وقد عبر إياضيو البصرة عن اعتراضهم بالإمارة الرسمية التي حقلت أساليبهم في تطبيق مبادئهم وبعدم تروندهم عن مساعدتها بالأموال، فبشير بن الصغير المالكي إلى أن إياضيو البصرة جمعوا أموالاً عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم ⁽²⁾ وقد قرر المغاربة قبول مساعدة زملائهم لحاجتهم إلى كل ما من شأنه أن يقوى دعم إمارتهم وساهمت هذه المساعدة المالية في توسيع نطاق العمران فشرعوا في إجراء الأنهر و الخلق الأرجاء والمستغلات، ومن المحتمل أن السلاج

⁽¹⁾ المغرب الإسلامي من 107-117.

⁽²⁾ يذكر وصول الوفد المصري إلى تاهرت حيث فاهم الناس على دار عبد الرحمن بن رستم لوجهه في غاية السخافة فقد قال هو نفسه يقوم ببناء داره (سيرة الأئمة الرسامين ص 18) ثم انظر تفصيلات مهمة عن ذلك عند البارونى، كتاب الأذهار الرياضية في أئمة وملوك الإياضية ج 2 ص 85، د. السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير ج 3 ص 578-650 .

الذي ابتاعوه كان بفضل أموال البصريين⁽¹⁾، وقد ساهم في قوة تسلطهم
ومكنهم في بسط سيطرتهم وسيادتهم على أكثر قبائل المغرب داخل حدود إمارتهم
وخارجها كما أن هزيمة الجيوش المناوئة لهم سنة 151هـ وفروا لهم ظروفًا
لإرساء إمارتهم وأقنعهم بضرورة تقوية مدينة تاهرت لتكون مركزاً يتمتع بالمنعة
والقدرة على الصمود والبقاء.

لقد استوطنت الأحوال السياسية وحتى أزمات الحكم التي كان يتعرض لها
الإباضيون والمعارضة والثورات والانقلابات بالطبيعة الدينية، حيث أن الإمارة
قامت على عصبية قبلية، ولكن عبد الرحمن بن رستم نجح إلى حد ما بتأسيس
رابطة مبدئية لقبائل المغرب من البئر التي وحدتها الدعوة الإباضية أما الأزمات
السياسية التي واجهها نظام الحكم، فقد كانت على الأغلب بسبب تصدع الدعوة
والمخلاف آراء الدعاة في الشؤون عن مبادئهم وحمايتهم من أية الحرافات
والتشاقات.

وقد ظهر أن المعاطات التي كانت سائدة بين الخوارج المغرب عموماً وبين
خوارج المشرق ولاسيما الإباضي البصرة، ذات طابع سياسي أكثر منه ديني
نلاحظ من ذلك خصوصاً من التوجهات التي كانت تصدر عن إمام الإباضية في
البصرة أبي عبد مسلم بن أبي كريمة إلى رفاقه الإباضي تاهرت ويمكن أن نستنتج
من رسالة هذا الأخير التي أرسلها إلى دعائه في المغرب في أوائل القرن الثاني
الهجري، أن الإمارة الرسمية الإباضية ظلت متصلة سياسياً وفكرياً ودينيّاً
بالتنظيمات السرية في البصرة، ولعل أوضح ما يشير إليه بخصوص هذه العلاقات

⁽¹⁾ يعتقد قروشي أن هذه الأموال كانت قد بحث بها خوارج البحرين

Faghy, Dr.Persiana, dansky in North Africa, the Rustumides, the Islamic Review,P14.

فيما تؤكد المصادر الإباضية أنها من خوارج البصرة وربما أن خوارج البحرين أرسلوا هذه الأموال إلى
البصرة فذ يوجه مشايخ الإباضيين المرسلوها بدورهم إلى المغرب وأبو زكريا، المسيرة والمسير الأسمدة
الورقة 14 .

الوطيدة قوله: ' فلعمري لقد سررتي ما انتهيت إليه من أمركم وإن كان ذلك لم ينف عني، غير أنا لم نفلن الذي كتبتم به إلي ثم يقول: " أتأتا كتابكم بمسائل فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها ومنها ما رأيت إلا نجيبكم فيها من غير هوان ولا تقصير إلا الذي رأيته لصالح لجماعتكم ولقوم بشارتكم وأرفق بضعفكم وأعطف لقلوبكم وأجمع لأشورك (1) .

لقد اتجه عبد الرحمن بن رستم، سياسة تقوم على المحافظة على إمارته الثابتة من أية أخطار محتملة قد تتعرض لها، فعمل على توطيد حكمه وتدعيم أسس إمارته، و إرساء نظمها في الحكم والإدارة، فكسب الأتباع والأخصار واسترضاهم واستكمل إعداد جيشه بتعينة جنده وتوفير الأسلحة والمعدات ليجهل على أهبة الاستعداد للدفاع عن إمارته، والتزم بسياسة المهادنة مع القوى الخارجية ليعرض على أن تكون علاقته مع ولايته العباسيين وعمالتهم بالأفريقية طيبة ولا يشوبها ما يعكرها، ثم سعى إلى المصاهرات السياسية التي ربما تقدم أهدائه في تعزيز مكانة إمارته بين إمارات المنطقة وقبائلها، فحالف بني مدرار بمصاهرة أحد أمراتها وهو اليمع بن أبي لقاسم (2).

وفضلاً عن ذلك، فقد اهتم عبد الرحمن بن رستم بالأمور الاقتصادية فأولى عانيته بشق القنوات والقرع وإملاء العروس والبساتين وإقامة المظلمن وشجع الحركة التجارية فأوجد الفنادق للتعجار وخطط الأسواق وربطها ونمطها على غرار أسواق المشرق، ووظف المحتسبين ونظم الاحتساب عليها لمراقبتها والحفاظ على نظمها، فأختلف التجار إليها من سائر أنحاء العالم الإسلامي وبخاصة من العراق ومصر وبلاد الشام والقيروان سجلماسة والسودان (3) .

(1) أبو عبدة مسلم بن أبي حريمة، رسالة في اعلام الزخاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582،

الورقة 114 .

(2) الطوسي و الأدهار الربيعية في لغة ومولد الاباضية ج 2 ص 101 .

(3) من الصغير المالكي سيرة الأئمة الرستمين ص 13 - 16 .

ويلقى بين الصغير الملوك ضوءاً مضيئاً على التطور الاجتماعي والاقتصادي والعمراني الذي أصاب مدينته تاهرت خلال فترة حكم عبد الرحمن بن رستم، فيشير إلى الأسواق المزدهرة والمساجد المتعددة المنارات العالية والحصانات المنيعة ويحيط بها سلاطين متنوعة ومطلعون مناصبة على الأنهار الجارية واتخذ أهلها الفروش والمنابر المزخرفة والخيول المعشومة وتنوع الأكلشة وتعددت اللغات والأزياء⁽¹¹⁾. وهكذا ففي أقل من عشر سنوات غطت الإمارة الرسنمية خطوات ملموسة إلى الإمام وأصبحت بمصاف الدولة القوية في منطقة المغرب الأوسط فالتصفت مهابة جيرانها فطلبوا محالفتها وهاجر إليها الكثير من المشاركة والمغاربة والاندلسيين ونزلوا تاهرت كما تصدها التجار والكتاب والعلماء ورجال الصناعة والفن وأرباب الحرف والمهن من سائر أنحاء العالم الإسلامي فأصبح سكانها خليطاً من العرب والسودانيين والأوروبيين من صقلية وإيطاليا وأسبانيا كما نزلها الوافدون من الكوفيين والبصريين والمصريين والخراسانيين إلى جانب الطوائف الإسلامية فقد ضم السكان عدد من اليهود والتصارى الذين كانوا يزاولون الأعمال الاقتصادية والحرفية والفنية ونقرأ عند المؤرخ بن الصغير الملوكي قوله: ' وامت تيهارت الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقصى الأقطار وليس أحد ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم وبقي بين أظهرهم حتى لا ترى دار إلا قيل لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري وهذه لفلان القروي⁽¹²⁾

ومن الجدير بالذكر أن أكثر المعارضين للعباسيين وجدوا في الإمارة الرسنمية خير ساحة لهم تخلصاً مما يلحق بهم في المشرق من الملاحقة الاضطهاد وبخاصة العلويين الذين نزلوا في مدينة الخضراء وسوق إبراهيم ومدينته تاملان وجميعها تقع شمال تاهرت على نهر شلف إذ تعد هذه المدن من قواعد الإمارة وأقرب مدنها

⁽¹¹⁾ سيرة الأئمة الرسنمين ص 14.

⁽¹²⁾ م. ن. ص 12 - 13.

فضلاً عن حسنها وخصوبتها حيثما رسوا هناك مختلف المهن و الحرف فضلاً عن التجارة وما يتصل بها من مظاهر الحركة الاقتصادية⁽¹⁾.

وهناك حقيقة يمكن أن نقرها وهي أن منطقة المغرب الأوسط وأغلب المغرب الأدنى شهدت نوعاً من الاستقرار وسيادة الأمن في عهد عبد الرحمن بن رستم، فيما كان المغرب الإسلامي عامة يضطرم بنار الفتن والإضطرابات والثورات المستتعة فالإمارة الرستمية في عهد هذا الإمام هي أقوى عسكرية واقتصادية من إمارتي الأدرسة أو الأغلبية مما تاح لها أن تفرض وجودها كقوة سياسية لها تأثيرها على سلام المنطقة وأمنها.

لقد حكم عبد الرحمن بن رستم من 160-171 هـ وكان قد عهد إلى سبعة من رجاله كانوا يؤلفون مجلساً للمستشارين يدير دفة الحكم وعليه أن ينتخب أحد أعضائه ليكون إماماً للإمارة في حالة وفاته، وقد انتخب ابنه عبد الوهاب خلفاً لأبيه و الظاهر أن حكمه كان استمرار لحكم أبيه وحيث استقر الأمر له فساد الهدوء فيما عدا بعض الاشتباكات الفكرية داخل الحركة الإباضية⁽²⁾.

ولكن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم رأى أنه من المناسب لاستتباب الأمن في بلاده مخالفة قبيلة نواة بمصاهرة سياسية، حيث تزوج ابنة رئيس هذه القبيلة فتمنع القبيلة من التحالف مع هوارة التي كانت تلحق في صف أعداء الإمارة

⁽¹⁾ خرج عليه يزيد بن قيس و هو أحد أعضاء مجلس المستشارين مسانداً إلى أن بدأ الفوارج الاباضية كان يقضي بالشورى دون التوراة وراح يثير الفتنة و يزلزل على عبد الوهاب و يطلبه بالقوة هيئة استشارية يرأسها ابنه في الفتوى وكون قرارها ملزمة للرئيس ثم اتفر على عبد الوهاب امامته بدعوى انه يوجد من هو اعلم منه و أقدر بالإمامة (الفوس -مقتصر تاريخ الاباضية ص 39) وكذلك انضم الاباضيون إلى فرقتين فكرية ودينية فالاتي تفرق امامة عبد الوهاب والثانية تستندة و هي الأكثر الساعقة من الاباضيين و قد انضم إلى التكاوية الواسطة المعتزلة (مصاحبة واصل بن عطاء) و قال المعتزلة من قبيلة زينة يؤلفون حزبا قويا شمال تافرت فقاموا بتروا ضد عبد الوهاب استطاع هذا الامير القضاء عليها (ياقوت -معجم البلدان ج 2 ص 8 الفوس -المصدر السابق ص 116 محمد عيسى دبور تاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 481).

⁽²⁾ انظر المصدر السابق.

الرسمية، كما أنه دعى قبائل دمر الزنقية للانضمام إليه فاستجابوا له⁽¹⁾ ويبدو أن الظروف التي كانت تواجه قبيلة هواره جعلتها في وضع حرج مما دفعها للاستغاثة بعد الوهاب فلم يتردد في تجديدها.

وعلى أية حال، فإن عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن علي الرغم مما تخللته انتفاضات وثورات وحركات سياسية وفكرية، كان مرحلة ترسيخ الإمارة وتدعيم أسسها، ولكن بعد تولي الفتح بن عبد الوهاب الإمارة على أثر وفاة أبيه سنة 211 هـ تأكد لدى الإباضيين استقرار مبدأ الوراثة في الإمارة، وهذا يمثل في نظرهم انتهاكاً لتعاليم الخوارج الإباضية الذي كان يقوم على مبدأ الاختيار والشورى في الحكم، ويذهب الدكتور الجناحي إلى أن الإمارة الإباضية أصبحت تنقل بالوراثة ولكنها تحاول أن تغطي على نفسها مظهر الاختيار والشورى تغطية للتناقض الواضح بين مبدأ أساسي من مبادئ الدعوة والوضع الذي حالت إليه في تاهرت⁽²⁾. غير أن خطراً جديداً بات يهدد كيان الإمارة الرسمية يمثل في صراع العصبية العنصرية والقبلية، ظهر إبان حكم الفتح بن عبد الوهاب حيث استطاع في حينه بما أوتي من مرونة وحظ سياسيين أن يجنب إمارته منه وأن يتجاوز عواقبه بوسائل شتى، دلت على براعته في الحكم والسياسة إلى جانب ما تصف به من شجاعة لفكرة. كما أنه شرع بالتخلي عن مبدأ المركزية في الحكم وعودته إلى مبدأ الشورى فكان مفتتحة برأي مشايخ القبائل ورؤسائها وأخذ بهما عند تعيين الولاة والعمال والجبلة ولا يقع تحت تأثيرات المقربين إليه من أسرته واعتراضاتهم وكان يراقب هؤلاء العمال ويحثهم من التعادي في ظلم الرعية و

⁽¹⁾ كانت قبيلة هواره خاضعة لوالي إفريقية العباسي ولكنها استقلت 196 هـ. واعتمدت في معيضة طرابلس فاوهر العباسيون للاحقة بخدمة ثورهم وإعطاء محارلاتهم في الانفصال عن نفوذ العباسيين فدخلت الافريقية طرابلس بيد أن الرستميون حاصروا المدينة لإجلاء القبيلة التي أن خرج الافريقية منها و عاصروا إلى القيروان حيث كان الأمير عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد علم بولاء أبيه فقرر العودة إلى القيروان لكي يظفر بحكم الإمارة قبل أن يستولي عليها أحد من لغوته (القفوس الصغير المسابق ص 144 ليس الأخير، الكامل في التاريخ ج 5 ص 156).

⁽²⁾ المعرب الإسلامي ص 124

إرهاقها في فرض الضرائب والمغرم عليها، في الوقت أتاح لهؤلاء لولا العمل والجهد مزيداً من السلطات ضمن مناطقهم⁽¹⁾ ومن نتائج هذه السياسة، الاستقرار الذي اتسم به عهد الفتح بن عبد الوهاب وتأييد الأبازيين له كما لم يبق في أيامه منازع ولا أجمع جهاته إلا طاعة⁽²⁾ في الوقت الذي "التي بيده يمينا وشمالا وتمكن في إمامته وأطردت له الأمور"⁽³⁾.

حتى بلغت الإمارة الرسمية في عهده أوج نضجها السياسي وإزدهارها وتخطت الأخطار المتمثلة بالفتن و الثورات، ولكن بعد وفاته سنة 258هـ/873م أصبحت الإمارة تواجه مرحلة عصبية في تطورها السياسي و ظهور النزعات القبلية والعنصرية حيث تفجرت على شكل حروب دائمة أضطعت نفوذ الأسرة وقامت صلاحياتهم وأدت إلى فقدان هويتهم بين الأبازيين والقبائل المغربية المتحالفة معهم.

وربما يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على طبيعة العلاقات بين القبائل والعناصر التي تكون النسيج العلم لكيان الإمارة الرسمية فمن المعلوم إن هذه الإمارة كانت تضم قبائل متعددة مثل هواراة ونفوسة وزناتة وسفراة ولماية إلى جانب مجموعات من أعقاب العرب الفاتحين وبعض الجند المغربية وكانت نفوسة تلي عند تقديم الفضة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق⁽⁴⁾ أي أن منها الفضة والإشراف على بيوت الأموال ومنها كذلك المحسبين الذين يراقبون الأسواق فيمنعون المنكر، وهي وظائف لها أهميتها في الحياة العلمية، كما أن بعض القبائل الأخرى ترغب في الانسراف إلى الزراعة أو

⁽¹⁾ يشار إلى أنه لبيع شتى ظروف الجبل و أخذ بمبدأ فرق شد الفلوس بين كل قبيلة و ما حاورها ثم الفى موجبات التحالف بين كل مقدم و أخره و يكث الفلوس بين القبائل (كفاء مؤونة القضاة) ابن الصغر المالكي المصدر السابق ص 27 الفلوس، المصدر السابق ص 98-183

⁽²⁾ كدرجيسي، طبقات الاناضلية ج 1 (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 ج) الورقة 191.

⁽³⁾ أبو زعربا، السيرة و أخبار الأسرة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 9030 ج الورقة 29) انشعاق السور ص 187.

⁽⁴⁾ ابن صغر المالكي المصدر السابق ص 27.

التجارة أو اتخاذ المناطق القريبة من تاهرت مقرا لها وبعضها الآخر ' اتخذ العيين والخيول ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة ' حيث زاولت الأصول المالية واقتتت الخيول كما هو حال أهل المدن المتحضرين.

إن مكانة نفوسه وبعض هذه القبائل لدى الحكام الرسميين ومزاولها في الوظائف العامة لا تقل أهمية عن مكانة العناصر الأخرى التي قيادته الجيش وتسيير الحياة الاقتصادية والسياسية، وكذلك بالنسبة لها عرفا ' بالرسومية' وهم أجناس من البيت الرسمي الذين تفرغوا في بعض الوظائف الإدارية و' السمجية' أتباع عبد الاعلى بن السمع المعافري المواليين للرسميين والعقريين لهم، والظاهر أن هذه العناصر على اختلافها بدأت تتدخل من أجل السلطة ابتداء من الرسومية و السمجية والجند المغاربة والقبائل الضاربة حول تاهرت⁽¹⁾ ونتيجة للتصراع بين هذه القوة السياسية من جهة و بينها وبين سلطة الرسميين من جهة أخرى فقد استطاع أبو القبطان محمد بن الطلع 214-281هـ آخر الإمام الشرعي أبي بكر الذي نصب بعد وفاة أبيه الفتح بتأييد من قبيلة نفوسة التي كانت تتمتع بنفسود سياسي كبير استطاع أن يستعيد مدينة تاهرت من الجند المغاربة ويقوز بالسلطة ويمتأثر بها لنفسه ثم راح ينفذ سياسة معتدلة وينبذ التعصب لأي من القبائل أو العناصر واتخذ مجلسا للشورى يضم شيوخ القبائل والقيادات كما اتخذ سياسة

⁽¹⁾ حتى شر وفاة الفتح من عهد الفتح نصبت قبيلة نفوسة هذه الأكبر أما بكر 211-240هـ غيران هذا الأخير كان زاهدا في الحكم و الإدارة فوجد حيلته بالجند المغاربة و هاجر زعيمهم محمد بن عرفة وسلمه مطالبه الإمارة فاستأثرت القبائل من سلطته و انضم أنصار الرسومية في تافوسه و لكن أبا القبطان محمد بن الفتح استطاع التخلص من محمد بن عرفة مما جعل هذه القوي تتحلف للخروج من القوافيس السياسية التي كانت قد عصت تاهرت فاستنكر الجند مقتل زعيمهم فيما وثقت الرسومية و السمجية إلى جانب الإمام أبي بكر و حاولوا الإستيلاء على تاهرت فحدثت لصدام الرسومية مع الجند و التحقوا هؤلاء أعداء لهم و على الرغم من تصحار الإمام و نفوسه في الطرف الآخر لكن الصراع استمر عن شخصيات الجند المغاربة و أكرم أبو بكر حتى اعتزلت الإمارة و لحق بالتهادع من الرسومية و السمجية مثل يفسر بقلان و لكن بالنت قبيلة هواراة ان قصت الجند المغاربة من السلطة و تصيروا أمهرا عيسى تاهرت (للاستزادة انظر: د محمود اسماعيل الخوارج في المغرب ص 127).

التسامح إزاء أصحاب المذاهب و الفرق غير الإباضية⁽⁴¹⁾، وقد أجمعت المصادر الإباضية على المصادر بسياسته وحسن سيرته وصلاحه⁽⁴²⁾.

ويمثل عهد أبي حاتم يوسف بن محمد بن أبي اليقظان 281/294هـ بالهدوء النسبي وذلك على الرغم من قيام حرب أهلية في ناهرت سببها علي الأغلب تدخل الأمراء والحائثية في رسم السياسة العامة للإمارة وظهور الطوائف والفرق التي تخالف الإباضية وتتأذى هذا الخلاف وتوجهه، ومن المحتمل أن اعتماده على وجود القبائل ورواساتها للقضاء على مظاهر الفساد والفسق قد أضر في جعل الحياة العامة في مدينة ناهرت طبيعية لا يعكرها صدى الخلافات في البلاط الرسمي، وربما كانت مباحة مجلس الشورى بالإجماع في بداية حكمه قد مكنته من اتخاذ الإجراءات الكفيلة للقضاء على مفاويزه الميسابين وإعادة الأمن إلى إمارته⁽⁴³⁾.

ولكن السبب في الهزيمة التي لحقت به و انتهاء عهده سنة 299هـ يمكن علي الأغلب بالتهاء دور القبيلة نفوسه واضمحلالها علي يد الأغلبية، فقد فرم أهل جبل نفوسة هزيمة ساحقة ولم تعد هذه القبيلة توافي الرسميين بالإمدادات ونتيجة المؤامرات التي دبرتها عناصر من البيت الرسمي قتل أبو حاتم يوسف بن محمد فألت الإمارة إلى اليقظان بن أبي اليقظان محمد، ثم بدأت بسوء نهاية الإمارة الرسمية التي أنهكها الصراع والتناحر القبلي حيث يشير أبو زكريا إلى نهايتها علي يد الفاطميين⁽⁴⁴⁾ الذين ظهروا كقوة نشرت سيطرتها علي جميع

⁽⁴¹⁾ ومن هؤلاء الكوفيين والصريين والمحرقة والمالية (ابن الصغير المالقي المصدر نفسه ص 42).

⁽⁴²⁾ ابن الصغير المالقي المصدر السابق ص 48-49 القوس المصدر السابق ج 2 ص 240 القرطبي سقوط دار الكتب المصرية رقم 8456 ج 1 ورقة 192.

⁽⁴³⁾ في بداية حكمه خرج عليه عدة بغوط بن الفج و بويج بالإمامة و تثبت الحرب بين العاصم الطرفين انتهت بانتصار أبي حاتم و بعد فترة وجيزة طلب من خلف الثورة ضد أبي حاتم المدبره الأمير و تكسر عليه (القوس، المصدر السابق ص 47-48، أخبار الرضاية ج 2 ص 271-277.

⁽⁴⁴⁾ ومقد روايته بالشخص أن بنت أبي حاتم و اغتاد حرمها بإ عبد الله قائد الجيش الفاطميين لدخول ناهرت لانتقام من قتلة أبيها و قد استطاع أبو عبد الله احتلال ناهرت سنة 297هـ و قتل سن أبي اليقظان و من طار به من بني رستم و استباح أموالهم ثم توجه إلى المدينة المنصورة و اغد منها في كتب الرضايات والقصص والسنن والفتن وأخبرها (السيرة وأخبار الأئمة الورقة 34) وجاء أيضا في أحد الإباضيين من الشكارة قام بمحاولة إعادة الإمارة الرسمية بعد أن أسقطها الفاطميون و ذلك بعدد عن ناهرت في منطقة جبال أواس سنة 916هـ ولكن لم يلبث أن سقط بيد الخليفة الفاطمي المنصور فقتله وسلب حنقه وأخشى شتا واتخذ قلعا دخل فيه قرآن بلائحه(المصدر السابق ورقة 37).

المغرب الإسلامي بالفتوح القوي التي كانت تتمثل بالإمارات و الدويلات و يبدو أن إسقاط الفاطميين لإمارة الأغالبة سنة 296هـ/908م مهد الطرق أمامهم للدخول إلى المغرب الأوسط و إحكام السيطرة على الإمارة الرستمية حيث لم يواجه الفاطميون أية صعوبات عسكرية في إسقاطها و إنهاء دورها السياسي و نفوذها في المنطقة.

العلاقات السياسية

الرستميون و الخلافة العباسية:

وقف العباسيون من الخوارج و قفقتهم التي نقرأ عنها تفصيلات غير قليلة في المصادر المشرقية أو المغربية، فقد عرفوا بعدائهم المستحكم للخوارج فكرباً سياسياً و بذلوا جهوداً كبيرة لمكافحتهم و استئصالهم، ولما يتعلق بالمشرك فقد تمت علي ما يبدو تصفيتهم من الناحية الفكرية و لم يعد أمام القلة من رجالهم إلا الاختفاء و العمل سرا بعيداً عن أعين السلطة، أو الرحيل إلى المغرب ليكون معزلاً لنشاطهم الفكري و السياسي.

وكان الخلاف الفكري و السياسي بين العباسيين و الخوارج الإباضية عميقاً و متصلاً وذلك منذ ظهور الحركة الإباضية سواء في المشرق أو في المغرب و لو استعرضنا ما لحق بالإباضيين في المغرب الإسلامي من النصف والاضطهاد علي يد بعض الولاة وملاحقتهم ابتداء من ولاية حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري سنة 127هـ وانتهاء بولاية محمد بن الأشعث الخراساني⁽¹⁾، لا يمكننا إبعاد التكوين بالحركة الإباضية ومن المعتمد أن محاولات هذا الوالي الفاشلة في القضاء علي الإباضيين المغاربة عموماً وعلي عبد الرحمن بن رستم الذي فر إلى إحدى المناطق الجبلية من المغرب الأوسط قد

⁽¹⁾ ولاء الخليفة أبو جعفر المنصور سنة 144هـ حيث تصدى للإباضيين ورعيهم أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري في منطقة طرابلس فأوقع بهم الهزيمة (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب ج 1 ص 72 - 73).

زونت هؤلاء الاباضيين بطاقة جديدة لمقاومة أعدائهم و الانتقام لما حل بهم من البطش و الاضطهاد والقمع بضرورة إنشاء إمارة تكون ملائمة حصينا لهم من أية أخطار يتعرضون لها في المستقبل .

وأغلب الظن أن الهدنة التي عثقت بين والي العباسيين روح بن حاتم بن مبيعة بن المهلب بن أبي الصفرة 171/ 179 هـ وبين إمارة عبد الرحمن بن رستم⁽¹⁾ والتي تراعى حسن الجوار، كانت تقدم الخطط التي وضعتها الخلافة العباسية في تعزيز نفوذها في المغرب الأدنى وبعض مناطق المغرب الأقصى.

ومن الملاحظ أن المصادر الاباضية وغيرها قد اختلفت فيما ن طبقت الهدنة من الآخر فالرفيق القيرواني يذكر أن روح بن حاتم رغب في مودعة الرستميين أصحاب تاهرت⁽²⁾ فيما يشير لسان الدين بن الخطيب إلى أن الاباضيين هم الذين رغبوا في مودعته⁽³⁾ ويطلع علينا بن خلدون برواية مفادها أن قوة الإمارة الرستمية في عهد عبد الرحمن بن رستم و منعها أو جدت الانقراض لدى السوالي العباسي بضرورة التهاون و حملته على مودعته و مهاتته سنة 171⁽⁴⁾ كما استمر بالسياسة نفسها ابنه و خليفته عبد الوهاب من بعده⁽⁵⁾ .

ومهما يكن من أمر، فإن عبد الرحمن بن رستم أثر عدم مناجزة ولاية القيروان العباسيين عسكريا، لكي يتفرغ لمواجهة الأعداء التي واثقت قيام إمارته، وقد قلت هذه السياسة قائمة في عهد عبد الوهاب بن رستم نتيجة للظروف الداخلية التي كانت تواجهها إمارته، ولما اتسم به حكمه من اضطراب وفلاقل بفعل الانشقاقات المبدئية والسياسية بين الاباضيين، وهذا يحتم عليه الإبقاء على السياسة التي

⁽¹⁾ لسان الدين بن الخطيب، أصل الإقليم ق 3 ص 9- 10 و جعلها الرفيق القيرواني بين الوالي روح بن حاتم و بين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (تاريخ إفريقية و المغرب ص 173).

⁽²⁾ تاريخ إفريقية و المغرب ص 173.

⁽³⁾ أصل الإقليم ق 3 ص 10 .

⁽⁴⁾ الشعر و ديوان المبدأ و الخبر ج 6 ص 8.

⁽⁵⁾ م. ن ج 4 ص 415.

اختطها إزاء الجيوش العباسية والبقاء بعيدا عن المواجهات العسكرية ولكن العباسيون كانوا يفتقنون الفرص لتوجيه ضرباتهم للرستميين حيث درجوا على إثارة المناصب لهم واستعداد القوى الأساسية في المغرب عليهم وتهديدهم بالقضاء على حضرتهم ناهزت وتجريد الجيوش إليها لكنها وتخريبها بل إن العباسيين كانوا يخططون لتصفية أمتها وأمرائها، لأنهم كانوا يتوهمون خيالة من إتصالهم بزملائهم في المشرق الإسلامي لتنظيم الثورات وتخريبها ضدهم، فراحوا يكثرون من مراقبتهم بتجنيد الرقباء والجواسيس وبث العيون لتقصي أخبارهم وبخاصة في موسم الحج⁽¹⁾.

وبني العباسيون قيادة جميع المراكات السنوية لحكم الرستميين وغزوها بالمال والرجال وتعمدوا مثاليها وفادتها بالتعاون معهم على إسقاط هذا الحكم ووصفوا لهم الخطط والتدابير الكفيلة بتجراح حركاتهم، فلى منطقة جبل نفوسة دار حليف العباسيين فرج بن نصير⁽²⁾ المعروف بنفاك، وهو عالم وفقه متبحر في الإيضاح ويشير الدرجيني إلى أن خروج فرج بن نصير على الأمير أفلح بن عبد الوهاب كان بسبب الإطلاق بشرعية الإمامة والاستهانة برسومها⁽³⁾ والسياسة في استعمال المال والسعاة لجلبية الحقوق الشرعية ومطالب بيت المال من الرعية⁽⁴⁾.

وقد اتخذ فرج بن نصير من قرية قطاراة منطلقا له ولأهوله وأصداءه ضد الإمارة الرستمبة، غير أن سياسة أفلح بن عبد الوهاب تجاه هؤلاء الثائرين قد

(1) يذكر أبو زعربا أن قضاة الباصيين مروا بعد الوهاب بن عبد الرحمن إجماعه عن أداء فريضة الحج خشية الفوج بيد العباسيين (وقتلوا أيضا بعد أمن الطريق وهذا شرعا من الشروط الواجبة في الحج) السيرة وأخبار الأئمة الورقة 23 نظر الفلوس الأثرار الرباضية ص 140 كما يذكر المؤرخون للتصديقات عن حادثة إلقاء الفض على الأمير الرستمي أني الفيلان محمد بن أفلح في مكة أثناء فريضة الحج من قبل أموي الوالي العباسي وإرساله إلى بغداد وإداعه السجن هناك وهذا يدل على مراقبة العباسيين لوقود المغاربة ورصد تحركاتهم في المشرق (ابن الصغير المالقي، سيرة الأئمة 27-29، أبو زعربا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 34-35 الدرجيني طبقات الإيضاح ج 1 ص 37 الفلوس، ملخص تاريخ الإيضاح ص 205.

(2) طبقات الإيضاح الورقة 38.

(3) الفلوس، الملخص السابق ص 195.

الثرت في تثبيط عزيمتهم حيث تصرف أكثرهم عن هذه الحركة، ولم يكن أمام فرج بن نصر إلا اللجوء إلى بغداد⁽¹⁾ ويبدو أن هذا التأثير الذي لم يوفق في النيل من سلطات تاهرت بعد تأمره مع الخلافة العباسية، لكنه نجح في إحداث تقسيم مذهبي وسياسي بين الأمازيغيين وتكوين فرقة عرفت بالثلاثية ظلت معادية للسلطة الحاكمة في تاهرت طوال عهد الإمارة الرسمية وذلك على الرغم من وجود ما يشير إلى أن أنصاره قد وهنوا وتفرقوا لدى عودته من بغداد فتاب ورجع عن مسأله التي خالف فيها⁽²⁾.

ويتضح العداء بين الخلافة العباسية وبنى رستم بصورة أكثر جلاءا بتخريض الحلفاء للمشاركة من الكوفيين وشيوخهم وروسائهم للعمل ضد الحكم الرستمي، فقد نجح هؤلاء في تليب عامة المدينة ضد الأمير يوسف بن محمد بن أبي البختان ووضعوا خطة لاغتياله وقاموا بالتفاوض في المدينة بالائتراف مع أهلها، اضطروا الأمير إلى التسلّل من تاهرت مع خاصته وأهله وكان بعض قادة هؤلاء الثائرين و محرضيهم في بغداد قبيل وقوع تلك الأحداث ثم عادوا وانسحبوا مع الثائرين مما يؤكد ضلوع العباسيين بالتأمر ضد الرستميين.

ومن الجدير بالتنويه إلى أن قيام إمارة الأغلبية في منطقة المغرب الأدنى سنة 189هـ يمثل مرحلة جديدة في العلاقات السياسية التي تقوم على العداء بين العباسيين و الرستميين، وذلك أن الأغلبية أول ما توجهوا إليه هو نزاعهم مع الرستميين في منطقة جبل نفوسة، إذ يتركز نفوذ الرستميين وممتلكاتهم هناك حيث هدموها فاستغلت بالأمير عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة 196هـ

⁽¹⁾ تذكر المصادر الأمازيغية أن فرج بن نصر وجد فرصته للخلاص على مصادر الذهب الأمازيغي هرسها واستوعبها و قيل أن الخليفة أمر بالسماح له بالاطلاع على المحظور من المصنقات و الكتب في سبب الخوارج الأمازيغية (أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 31- خرجيني خيلفت الأمازيغية ج 1 ص 37

⁽²⁾ د. محمود إسماعيل، الخوارج في المغرب الإسلامي ص 125، لكنه يدل على تشككه بتوبة تلك بوجود كثير ممن اعتنقوا آراءه في أواخر القرن الخامس الهجري.

فرحف إليها بحشوده الهائلة من رجال نفوسه مما اضطر الأغلبية على قبول الهدنة معه⁽¹⁾.

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الأغلبية يناصبون العداء للرسميين نيابة عن العباسيين بيد إن الأغلبية لما عجزوا عن تحقيق أهدافهم في هذا الجانب عمدوا إلى إنشاء مدينة "العباسية" في جوار مدينة تاهرت و قد استهدفوا من إنشائها تحويل الأنظار عن حضرة الرسميين التي كانت تجذب عددا كبيرا من المغاربة و المشاركة من المسيحيين و أصحاب الرأي و من العلماء و الفقهاء و التجار و أصحاب المهن و الصنائع و لكن الرسميين وثبوا على مدينة العباسية فلجأوا سكانها وأحرقوها⁽²⁾.

⁽¹⁾ القفوس، الإلهام الرياضية في أمة و ملوك الأمازيغية ج 2 من 145.

⁽²⁾ ابن خلدون، المعبر و ديوان المعين و المعبر ج 4 من 429 و الظاهر أن الصراع بين الأغلبية و الرسميين الذي استمر حتى موافقة (نصر ماثو) سنة 283 هـ قد استنفذ قواها و مهد لتفوقها على أيدي الفاطميين سنة 297 هـ/ 909 م.

علاقات الرسميين بالأدارسة:

تقوم العلاقة بين الرسميين والأدارسة على العداء المذهبي التقليدي و ذلك على الرغم من موقفهم الموحد إزاء الخلافة العباسية الذي كان ينسب بالعداء كما أن غالبية القبائل التي انضمت إلى الأدارسة وهي زناتة و لمابية و لواتة و وسرارة و لغزة¹¹ كانت تدين بالمبدأ الإباضي⁽¹⁾ فكان على الرسميين أن يلقبوا بشأن هذه القبائل التي كان من المفروض أن تستقل تحت لواء الإمارة الرستمية الاباضية لا أن تنضوي تحت نفوذ الأدارسة الذين واصلوا سياستهم التوسعية بمحاولة ضم بطون هذه القبائل في منطقة تلمسان وشلف إلى منطقة نفوذهم و العمل على استئصال الأفكار الاباضية المنتشرة هناك.

ومن المرجح أن طبيعة الصراع بين الرسميين والأدارسة كان يحدد موقف القبائل من طرفي النزاع، لذلك اتخذ كلا الطرفين محاولات التوسع في مواطن هذه القبائل وكسب السيطرة عليها. وبمرور الزمن، فإن الرسميين لم يقبلوا الأدارسة بالرء على مؤامراتهم ولم يكن بوسعهم مجازاة الأدارسة في تدبير العكائد وإحداث الشقاق، وعزفوا نهائياً عن محاولة التخرش بهم على الرغم مما ألت إليه إمارة الأدارسة من التمزق السياسي والضعف ويبدو أن سياسة الرسميين بعدم مناجزة الأدارسة والرء عليهم بالعمل خلفت ما يمكننا تسميته بالعجز الرستمي أمام تدخلات الأدارسة في الشؤون الداخلية لإمارة الرسميين وتخريض الخارجيين و التآمر عليها وتزويدهم بما يتطلب لإسقاط نظام الفوارج الاباضية في ناهرت مما أسفر عنه انتهاء الصراع بين الطرفين بتغلب الأدارسة و تقلص نفوذ الرسميين واستكانتهم⁽²⁾.

⁽¹⁾ الفوسى، المصدر السابق ص 145.

⁽²⁾ د. محمود إسماعيل، المرجع السابق ص 149.

العلاقات بين الرستميين وأمويي الأندلس:

نهج الرستميون في علاقاتهم مع أمويي الأندلس مبنية ودية ربما أوجبتها الضرورات السياسية بهدف توطيد العلاقات بينهما، إذ يتعرض الطرفان لعداء كل من الأغلبية والأقلية وذلك على الرغم من خلافاتهما المذهبية والتاريخية وقد بلغت العلاقات بين تاهرت قرطبة إلى درجة التحالف السياسي وتبادل السفارات والهدايا، كما قامت العلاقات تجارية فكانت السفن تتردد بين وهران والعمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين، واستقبلت حاضرة الرستميين تاهرت كثيراً من أهل الأندلس حتى إنهم أصبحوا جالية أندلسية كبيرة⁽¹⁾.

ومن الجدير بالذكر، أنه لما كان الأمويون في الأندلس يتطلعون إلى تسقيط أخبار المشرق الإسلامي، وخصوصاً بلاد الشام أرض آباءهم وموطن تراثهم ومجدهم والاتصال به ثقافياً وحضارياً واقتصادياً فلا بد أن يحافظوا على منفذ المغرب الأوسط، لأن المغربيين الأدنى والأقصى كانت تقوم فيه على التوالي أمرات الأغلبية والأقلية المعانيك مبدئياً ومذهبياً لهم فالأدنى موالية للعباسيين والأغلبية ترفع شعار العلويين، وجميع هؤلاء أعداء القليديون لبني أمية، والظاهر أن العلاقات بين أموي قرطبة وأصحاب تاهرت قد توطدت بعد تأسيس مدينة تاهرت وذلك باستئانة عبد الرحمن بن رستم بالمهندسين والمعماريين ومن لهم خبرة بانشاء المدن وتعميرها من الأندلسيين، إذ تعززت علاقاتهما واكتسبت رسوخاً ومودة حتى أن صاحب تاهرت أمر بشيعة إحدى أبواب مدينته باسم "باب الأندلس"⁽²⁾.

(1) ومن العلماء الذين اختلفوا في تاهرت: عمران بن مروان الأندلسي ومعهود الأندلسي اللذين أصبحا عضوي مجلس الشورى في عهد عبد الرحمن بن رستم (ابو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 104 ثم انظر :

marcals,G. la berberie musulmane Et l'orient au Moyen age (Paris, 1964)P104

(2) أبو عبد الشامى، المغرب في فكر تلك قرطبة و المغرب من 66

أما العلاقات العدائية التي سادت بين الطرفين فلم تكن إلا لفترة قصيرة حيث زالت الجفوة بعد وفاة الحكم المستنصر سنة 206هـ/821 م⁽¹⁾ وعادت العلاقات التقليدية بينهما فوصلت البعوث إلى دار المغرب² وهي تاهرت كما اتخذ بعض الأمراء الأندلسيين الوزراء والحجاب والفناء من البيت الرستمي وبلغوا الفاطميين على المسرح السياسي في بلاد المغرب تعرضت القسوى السياسية جميعها إلى التهديد الفاطمي سواء أكانت في المغرب أو في الأندلس مما استوجب القيام بعمل مشترك بين تاهرت وقرطبة لوقف هذا الخطر الذي بات وشيك الوقوع لكن ثوباً من ذلك لم يحدث فقد سقطت إمارة الرستميين سنة 297هـ/909 م بيد الفاطميين ولم يبق حكام قرطبة لنجدتهم.

⁽¹⁾ بدأ انهيار العلاقات و ترددها منذ نزل الأمير الحكم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالحكم المستنصر أمير الجزيرة الخضراء بالأندلس حيث كان يعج بالسكان و الحشود من الأيباشيين فقتل أكثرهم (ابن الطوطية القرطبي، تاريخ افتتاح الأندلس من 71 - 72).

الفصل السادس

إمارة الإدارة في المغرب الأقصى

1- تمهيد

2- قيام إمارة الإدارة

3- مدينة فاس حاضرة الإدارة

4- العلاقات السياسية

5- الإدارة وبنو العباس

إمارة الأدارسة في المغرب الأقصى

(172-375هـ / 788-985م)

تمهيد:

الأدارسة، نسبة إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن الذي يرجع نسبه إلى علي بن أبي طالب (رضي) وكان قد فر من الجيش العباسي على إثر هزيمته في معركة فُجّ، المنطقة الواقعة بين مكة والمدنية سنة 169هـ ونفذ إلى المغرب الإسلامي وهناك أقام مع أخواته وأصله إمارة "الأدارسة" التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ المنطقة أما أخوه يحيى بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد الأندلس وأسس هناك ويشير البكري إلى أن إدريس بن عبد الله أفلت من يد العباسيين بصحبة مولاه راشد فألبسه دراعة وعمامة وصيره كالفلام يخدمه⁽¹⁾ وعن طريق مصر استطاع إدريس بن عبد الله ومولاه راشد الوصول إلى القيروان ثم إلى مدينته التماساً لشم ارتحل نحو بلاد طنجة ونزلاً في مدينة أوليلي⁽²⁾ سنة 172، واتخذت هذه المدينة

⁽¹⁾ المغرب في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص 118 (و. هناك رويان في طريقة وصول إدريس بن عبد الله إلى المغرب الأقصى تتلخص الأولى في أن إدريس ومولاه راشد مرا بمصر بقار مشبهه فطلساً على باب الدار فأرأسا صاحب الدار و حرف لهما من الحجاز فقلن له راشد: هذا إدريس بن عبد الله من الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب خرج من موضعه أسلم من القتل و قد جئت به إريد بلاد المغرب لعله يأمن فيه و يعمر من يثقله فادخلهما منزله وسترهما حتى هيا لهما خروج رافقة لسي أربحية فالتقي لهما جملاً وزودهما وكساهما فدخل إدريس ومولاه راشد المغرب فقلما بين ظهرانيهم (المصدر السابق ص 118-119) أما الرواية الثانية فذكرها ابن خلدون على أنها مزلة و كان مشغولي بربدها حينذاك واضح المستحسن أو كان يميل للتخوين و ينتصر لهم في الباطن و قد بلغه وصول إدريس إلى مصر فساعد على الفرار إلى المغرب (البيان المغرب ج 1 ص 63، وربما تكون هذه الرواية صحيحة وأقرت إلى الخطيئة تحليل إن الخطيئة الهادي بن المهدي العباسي قتل وأضاع بها بلغه الدور الذي قام به.

⁽²⁾ وهي مدينته قرطوبيس columbilla الرومانية و تقع على سفح جبل زرهون و قامت مراكزا و مملكتا لفيلذة لوريبة التي داهمت إدريس بن عبد الله.

قاعدة ومطلقاً إدريس بن عبد الله لأخواته من العلويين واتصاره من قبائل أوربة ومغيلة وصندنية وقبائل زناته وهي زواوة ولواتة وسدرانة ونفزة ومكثاسة وخضارة حيث عبا منهم جيشاً كثيفاً أعد لغزو بلاد تلمسان ومناطقها التي كان سكانها من النصارى واليهود والمجوس والوثنيين فأخضعها ونشر الإسلام فيها، ثم لم يلبث أن غزا في السنة التالية حصون قنلاوة ومديونة وبهلونه وقلاع شالة التي كانت تتحصن بها هذه القبائل واستولى عليها ثم عاد لمهاجمة مدينة تلمسان وأخضع القبائل الضاربة حولها وهي مغراوة وبني بقرن⁽¹⁾.

ومن المفيد أن نذكر أنه لم تعترض إدريس بن عبد الله صعوبات في إقناع قبائل المغرب لدعوته إذ كانوا ينزعون بطبيعتهم إلى الاستقلال والتخلص من حكم الولاة العباسيين ثم أن الخوارج الذين سبقوا العلويين إلى هذه البلاد مهدوا الطريق أمام دعوتهم فكان المغرب قد حرلها الخوارج للعلويين وحين قدم دعائهم كان سلطان الخوارج قد زال فانتقلوا بغرسهم⁽²⁾، والظاهر أن العلويين قد زادوا على دعوة الخوارج ومعارضتهم بقولهم: إنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة لأنهم آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة وقد ورثوا علم النبوة فانتسبوا صلتهم، ومعروف عن هذه القبائل أنهم كانوا مؤسرين لرجال السدين ومعلمين للأولياء الصالحين.

⁽¹⁾ ابن خلدون المعبر و ديوان المبدأ والفرج ج 4 ص 28

⁽²⁾ د. حسن أحمد محمود، العلم الإنساني في العصر العباسي ص 488.

قيام إمارة الأدارسة:

لقد نجحت حركة إدريس بن عبد الله بإقامة أمارته بفضل اعتماده سياسية الغزو المسلح وتنمية للمبادئ التي كانت قبائل المغرب تربي فيها خير دليل لإقامة كيان مستقل لهم عن النفوذ العباسي. والحق أن الأدارسة كانوا يجبرون تعبيراً صحيحاً عن شعور هذه القبائل ورغبتهم الحقيقية في الاستقلال ولا غرور إن ينهض الأدارسة بأعباء قيام إمارة تكون القبائل المغربية وهم أهل البلاد الأصليين مانعاً الأساسية حيث استمرت هذه الإمارة حتى سنة 375 هـ ذلك على الرغم من التحديات التي كانت تتعرض لها من الفاطميين في المغرب ومن أمويين الأندلس وقد أهلها ذلك على ما يبدو لتعمر أطول فترة من باقي إمارات المغرب الإسلامي. وكان لقيام إمارة الأدارسة صدى عظيم الأثر في جميع أنحاء العالم الإسلامي وخاصة بعد أن توطدت وتدعت أسسها، إذ كان أعداؤها يتدبرون الإيقاع بها وينسفون الخطط لإسقاطها، وأفرك العباسيون أنه لم يعد بالإمكان الاستمرار على سياسة القوة التي اعتمدها للقضاء على حركة الأدارسة وإماراتهم بسبب تهديدهم لجميع إفريقيا ومصر وإغارتهم على أملاك العباسيين الواقعة إلى الشرق من أراضيهم⁽¹⁾ فلم يكن أمام العباسيين إلا اللجوء إلى وضع الخطط القليلة بإيقاف زحف الأدارسة إذ عملوا إلى خلق كيان سياسي موالٍ لهم تمثل بإمارة الأغلبية لتكون حاجز بين أملاكهم وبين إمارة الأدارسة⁽²⁾.

أما الإجراء الأخير الذي اتخذ العباسيون فيتمثل بمحاولة القضاء على إدريس بن عبد الله و اغتياله وإخماد الحركة الانفصالية ورأسها إمارة الأدارسة في بلاد

⁽¹⁾ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج 6 ص 43-45.

⁽²⁾ عهد الطغاة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي بولاية غولي لتكون نواة إمارة غلب توسيع الأدارسة و تمنع نقل نفوذهم في بلاد المغرب و تسليحهم من الاستعانة على أملاك العباسيين التي كانت تدر موارد غير قليلة لهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 56).

المغرب الأقصى فمس له هارون الرشيد من قتله بالسنة 177 هـ⁽¹⁾ غير أن مقتل إدريس بن عبد الله لم يؤثر في مسيرة الحركة الانفصالية ولم يقضي على إمارة الأدراسة فقد حافظ هؤلاء على كيانهما حتى القرنين العاشر والحادي عشر حتى تسلم إدريس الثاني الذي لم يكن قد ولد بعد⁽²⁾، دفعة الحكم فهابطه القبائل وانتقلت حوله .

مدينه فاس حاضرة الأدراسة:

يمكن القول، أن إدريس بن إدريس (الثاني) هو المؤسس الحقيقي لإمارة الأدراسة فقد بايعته قبائل زناته و أوربة و صنهاجة و غمارة، فساعدوه ذلك على استكمال قوته العسكرية بتعبئة جيشه و إعداده و كذلك على توطيد حكمه و الظاهر أن قوة بلاده وصنعتها واستتباب الأمن فيها، ألحق الكثيرين من العناصر والأفراد من المغاربة والمشاركة للتزوج إليه والاستقرار في بلاده و أخذت مدينه وإيللي، تستقبل الوافدين من جميع أنحاء المغرب و المشرق و الأندلس فتنشأوا الروابط بينهم وبنوا الأسواق والعيادين، وأصبح لهم إحياء تعرف بأسمائهم ولكن

⁽¹⁾ استشار هارون الرشيد أحد مستشاريه باسم إدريس فاشاد عليه أن يبعث إلى إدريس رجلاً تتوكل فيه صفات الذكاء والمكر والدعاء مع البلاغة والجرأة فوقع المشارة على سليمان بن جرير الذي كان يعرف بالشماخ وأمره بالانطلاق إلى بلاد المغرب فذهب و هو يتظاهر بالغبى حتى وصل إلى دليلى فالتقى فاسن فاس إليه و اقتاده صانعا و نديما فكان إدريس في هذا البلد يحيى إلى محالمة المشارة و محفلتهم و أخذ الشامخ يكرهه لا لاختلال إدريس بالحكم إنما واثقه الفرصة بغياض مولاة راشد أعطاه فأوروه طيب بتطبيب بها و غلبت مسمومة فلما تمها أصابه السم و توفي حتى ترك ذلك و حرب الشامخ فلكبه راشد حتى أقره بوادي ملوية لغرضه سبعة قطع بده ولكن الشامخ استطاع عبور الوادي ثم وصل مسيرة إلى بلاد فولاة الطليعة على بريد مصر (الطريق المائي الاستعصا ج 1 ص 159 البكري المغرب ص 121 ابن عذاري البيان المغرب ج 1 ص 299 ابن الأثير الكامل ج 5 ص 90) و قيل سمه بوضع في ور سموم في سن له موجودة و قيل سمه في دلاعه أو هو فلكبه الرقي في العراق .

⁽²⁾ توفي إدريس بن عبد الله بن إدريس و كان له ثلاثة أبناء له اسمها حفزة حفلا فتنظر أحواله و أبعاده حتى وصلت الجارية غلاما مسمى إدريسا فبايعته جميع القبائل من زناته وأوربة وصنهاجة و غمارة (البكري المصدر نقسمة ص 22 الجزائفي زهرة الآسي في بناء مدينة فاس ص 19)

بمرور الزمن أصبحت المدينة تضيق بهم فعزم على الانتقال إلى مدينة جديدة يؤسسها ويستقها هو وخاصته من قومه ⁽¹⁾. وفي 192 هـ شرع ببناء مدينة فاس ⁽²⁾، ولما أتمها أمر الناس بالانتقال إليها وأشار عليهم ببناء الدور والمنازل وغرس الفوس والأشجار ثم أقام سورها وأنزل الواقدين القيروان بالعودة لغربة وسميت 'بعودة القرويين' وقد أصبح لهاتين الحورتين شأن كبير في تاريخ المدينة السياسي الاجتماعي، وتفتح في سور عودة الاندلسيين أبواب عدة أهمها باب القبلة وباب الكنيسة أو الفوخة وباب أبي سفيان وباب جراوة وباب الشيبوبة وباب المخيلة أما أبواب سور عودة القرويين فعنها باب أفريقية وباب القلعة وباب الحديد وباب الفرج أو التسلسلة وباب الفصيل أو النبعة ⁽³⁾.

ويقدم المستشرق النمساوي ليفي بروقتسل نظرية جديدة في نشأة مدينة فاس وتقوم أساساً على أن إدريس بن عبد الله، أسس المدينة سنة 172 هـ في الموقع التي تقع عليه عودة الأندلس وأن إدريس بن إدريس أسس عودة القرويين سنة 192 هـ في غرب مدينة أبيه وعلى الضفة اليسرى من وادي فاس وفي الموقع المعروف 'بدار القيطون' ⁽⁴⁾ ومن المرجح أن تكون الآراء التي جاء بها بروقتسل في هذا الجانب صحيحة لأنه ليس من المعقول أن ينتظر الدراسة 20 سنة لكي يؤسسوا لهم مدينة تكون مقراً ومركزاً لإمارتهم ثم إن قيام الدول والإمارات المستقلة في المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني الهجري لابد أن يستتبعه مباشرة

⁽¹⁾ يذكر بن خلكون محمد وقد إلى بالله الدراسة من عرب الجزيرة بمسجد فاس من العسبيين و الآله و الفرج و مداح و بني يعصب حتى أصبح لهم نفوذ في الإمارة فسوز منهم إدريس عيسى بن يعصب الذي خلفه بالمعجم (الجز 4 ص 26 29، انظر أيضا الجز الثاني المصدر السابق ص 13) ⁽²⁾ يقال أن إدريس ابتدا بغير التأسيس بغلى ذمية فسميت المدينة فاسا و قيل انه وجد في المغير فاس بغير من الذهب، كما قيل أن مدينته أقرية قديمة كانت تقوم في هذا الموقع كان اسمها 'مساف' فسميت المدينة على هذا الاسم مقلوها (أي زرع التأسيس المغرب، الجز الثاني رهرة الأس، بروقتسل الإسلام في المغرب و الأندلس)

⁽³⁾ الجز الثاني، المصدر السابق ص 19 - 20.

⁽⁴⁾ وتجد استعراضاً لأهمية المدينة و التاريخية التي يسوقها بروقتسل لإثبات نظريته (الإسلام في المغرب والأندلس ص 29 - 30).

قيام مدن جديدة تكون مراكز سياسية وعسكرية وثقافية لها، أي إقتران قيام هذه الكيانات بتأسيس عواصم وحواجز لها، فالتكثف في أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس إلتقاء بني مدرار في سجلماسة و بالرسامين في تاهرت.

ونقرأ عن الجغرافيين المسلمين تفصيلات مهمة عن مدينة فاس ابتداء من القرن الثالث الهجري حتى الخامس فيقول اليعقوبي عنها: أنها 'مدينة جميلة يشقها نهر وهي جانبان بليهما أسيران مختلفان' ⁽¹⁾، ويصفها البكري 'أنها مدينتان متفرقتان و بينهما نهر مطرد و عدة القرويين غربي دعوة الاندلسيين' ⁽²⁾ أما الإدريسي فيذكر 'أنها مدينتان بينهما نهر و المدينة الشمالية تسمى القرويين و تسمى الجنوبية الاندلس' ⁽³⁾

ومما يلفت الانتباه في عهد إدريس بن إدريس تأمر بعض مشايخ القبائل المغربية المنظمة إليه وضده ومنهم اسحق بن محمود الأروبي كبير قبيلة أوربة الذي اتصل بالأغالبة بفرض الإطاعة به⁽⁴⁾، ويهلول بن عبد الواحد المعظفر بالذي كان من معتمدي إدريس و أحد أركان إمارته حيث تأمر هو الآخر مع الأغالبة حتى الحذف عن دعوة الأارسة إلى دعوة العباسية⁽⁵⁾ مما اضطر إدريس في نهاية المطاف إلى طلب عقد صلح مع إبراهيم بن الأغلب ليبادر إلى تقويت الفرصة على منافريه.

لقد أقام إدريس بن إدريس في مدينة فاس ولم يغيرها خشية ما تكبره بعض العناصر من مؤامرات ربما يروح هو ضحيتها في مدينة وليلي، ولكنه توفي سنة 213هـ⁽⁶⁾ خلفا له محمد الذي اشرك معه أخوته في الحكم فولاهم في إمارته

⁽¹⁾ كتاب البلدان ص 357.

⁽²⁾ البكري، المصدر السابق ص 115.

⁽³⁾ نزهة المشتاق في الفرقاق الألق ص 75-76.

⁽⁴⁾ حيث سعى إلى اغتياله سنة 192هـ (الغازي المصدر السابق ص 23).

⁽⁵⁾ ابن خلدون المعرج 4 ص 27.

⁽⁶⁾ جاء في المصادر أن سبب وفاته القولة لخالته الطيب فعلن بعة منه فلم يزل مضطرب القوم مسائل النساب حتى مات، وقيل أنه مات مسموما [البكري المصدر السابق ص 123-124، ابن خلدون المصدر السابق ج 1 ص 211، ابن الخطيب المصدر السابق ص 202].

التي قسمها إلى أعمال⁽¹⁾ واختص هو بحاضرته فاس التي أصبحت مركزا سياسيا تحتل شهرة مرموقة بجميع أنحاء العالم الإسلامي.

واسم عهد محمد بن إدريس بسيادة الأمن والاستقرار السياسي ويتوطد العلاقات مع القوى السياسية في المغرب الإسلامي موي ما تشير إليها المصادر من الخلافات الداخلية بين الأخوة حول الاستقار بالحكم والمتمردات التي استطاع القضاء عليها بالقوة⁽²⁾.

وخلف محمد بن إدريس بعد وفاته سنة 211 هـ خلفاء كان أكثرهم شهرة يحيى بن محمد بن إدريس الذي شهدت فاس في عهده ازدهارا واضحا في العمران حيث بنيت فيها الحمامات والفنادق للتجار ومهدت الأرباض ورحل إليها الناس من المدن القاصية⁽³⁾، أما في عهد علي بن إدريس فقد تعرض الأارسة إلى خطر الزوال على يد الخوارج الصفرية الذي كان يقود جيشهم عبد الرزاق الفهري حيث استطاع هذا الأخير الدخول إلى مدينة فاس والاستيلاء على عدوة الأندلسيين فما كان من أهل عدوة القرويين إلا أن يوثقوا على أنفسهم يحيى بن الناسم الذي عرف بالعداء فقد تمكن من صد هجوم الخوارج وإخراجهم من عدوة الأندلسيين⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ خلف إدريس بن إدريس من أولاد ابن عمر وعلم محمد و أحمد و عهد الله ويحيى وإدريس وحضر وحمة ويحيى وعبد الله والقاسم وداد وعمر الفهري المصدر السابق ص 124. ابن خازن المصدر السابق ص 211. ابن الخطيب المصدر السابق ص 202 وقد ولي إغاة القاسم بلاد صنهاجة الهبط و عمارة وولي دقود بلاد هوار وكنول وتارز و فاسل مقلابة و عناية و إغاة عبد الله الغمات وند تالين وجمال المصاندة وند لعلة والسوس الأقصى وإغاة يحيى ولاء أصيل والعرال وند زواعة وولي إغاة يحيى بلاد شالة ولاء وازمور ونامسا وبرطوطاة. أما أحمد فولاية مدينة مقلابة وندالا و ولى إغاة حمزة مدينة ويلي وأصالتها وأبلى لقوته الآخرين بقلابة عدته قلزة لصفى منهم.

⁽²⁾ منها حمزة أخيه يحيى في منطقة مقلاة واستطاع أخيه القاسم عن محاربة أخيه يحيى وإخماد حركته فاضطر محمد بن إدريس إلى توجيه أخيه عمر صاحب مناطق صنهاجة وندالة ليعضد على يحيى والقاسم حيث أمده بجيش استطاع به عمر أن يهرم لقويه ويثلى ولاتهم⁽⁵⁾ إن خلون المصدر السابق ص 173.

⁽³⁾ ابن خلون المصدر السابق ص 29.

⁽⁴⁾ م.ن. ص 31.

غير أن أعلى بني إريس ملكاً وأعظمهم سلطاناً على حد قول بن خلدون هو يحيى بن إري بن عمر بن إريس الذي كان فقيهاً عالماً بالحديث¹¹ ولم يبلغ أحد من الأئمة مبلغه في السلطان والدولة¹². ولكن في عهد هذا الأمير بدأت إمارة الأئمة تتعرض للخطر الفاطمي ففي سنة 305هـ، التقى جيش الأئمة مع جيوش الفاطميين التي كان يقودها مصادة بن حبوس الكتامي، حيث هزم الأئمة وعاد يحيى بن إريس إلى عاصمته فاس مستولاً فحاصره الجيش الفاطمي فلم يكن أمام يحيى بن إريس إلا طلب الصلح على مال يؤديه للفاطميين وميلعتهم، فجرد من أعتاله وأمواله وترك له فاس ليكون أميراً عليها.

ولم يشأ الفاطميون أن يتركوا الأئمة، فقد أقاموا على فاس ربحان الكتامي وهو من كبار قادتهم غير أن عهده لم يدم طويلاً فبعد ثلاثة أشهر من ولايته تبار في مدينة فاس الحسن بن محمد بن القاسم بن إريس المعروف بالحجام واستولى عليها وحكمها عشرين، ولكن الفاطميين راحوا يديرون نهاية للأئمة يتمكن موسى بن أبي العافية الكتامي وتشجيعه على تصليب أسرة الأئمة وإجلالهم عن فاس ونفهم إلى مدينة حجر التمر¹³ والاستيلاء على عترة الإدلسيين، وبذلك سقطت إمارة الأئمة بحلول سنة 375هـ.

¹¹ ابن خلدون، ص 32.

¹² وتسمى لغة التمر وهي التلجأ الذي انحصر به الأئمة في شمال المغرب الأقصى بناء إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إريس وتقع على جبل شامخ الذي أرضه خصبة كثيرة الغيرات وهي مزرعة من أغوار سبتة ويصطاد بها بعض بين تطوان وسفكوك (الجزيرة المغرب ص 126) وقال ابن عذاري: أجلس موسى بن أبي العافية بن إريس اثنين عن مواضعهم وصاروا في مدينة حجر التمر مذهبهم وحجر التمر حصن صالح بناء إبراهيم بن القاسم بن إريس وعزم موسى على محاصرتهم فسي هذا الحصن واستصابتهم قلعة عليه في ذلك الحين المغرب فقالوا له 14 لله جيشهم تريد أن نقل بني إريس اجمعين وانت رجل من البربر¹⁴ فأعرض عن ذلك ولا غلبهم بصفرة¹⁵ (البيان المغرب ج 1 ص 214).

العلاقات السياسية

الأدارة وبنو العباس:

تتسم العلاقات بين الأدارة والعباسيين بطابع عدائي منذ أن سعى إبراهيم بن عبد الله إلى تكوين إمارة مستقلة عن نفوذ ولاية العباسيين في المغرب، وإذا أُرنا أن نفهم طبيعة هذه العلاقات وجذورها التاريخية فطيناً أن نقرأ علاقات الأدارة مع الأغلبية وهم خلفاء بني العباس حيث سخر هؤلاء لمقاومة نفوذ الأدارة والحد من توسعهم وحصر أخطارهم وتهديدهم لممتلكات الدولة العباسية ومواليهم وأنصارهم.

وقد أترك هارون الرشيد، بعد أن تناهى إليه دخول أغلب قبائل المغرب في طاعة إبراهيم بن عبد الله و تصميحه على إقامة إمارة مستقلة عن النفوذ العباسي، أنه لا طاقة لجيوش العباسيين على الوصول إلى منطقة السوسى التي راجت فيها دعوة الأدارة، فإمارة الأدارة أصبحت حقيقة واقعة في هذه المنطقة وعلى العباسيين أن يعالجوا امرها بما يتوافر لديهم من إمكانيات سياسية أو عسكرية وعلى الرغم من نجاح الخطة التي وضعها هارون الرشيد بتصفية إبراهيم بن عبد الله لكن العباسيون عجزوا عن الإطاحة بالأدارة في عهد إبراهيم بن إبراهيم، فأوكل العباسيون هذه المهمة إلى الأغلبية ليقوموا بهذا الدور والظاهر أن الأغلبية كانوا لا يمتلكون القدرة والقوة على مجابهة أعداء خلفاتهم فطفقوا يستعملون بعض القبائل المغربية ويكثرون من الاتصال بزعمائهم لإبعادهم عن الأدارة أو استبعادهم عنهم، كما حاولوا التدخل في الشؤون الداخلية للأدارة وذلك بتسخير صنعائهم للثورة ضدهم في مدينة فاس، ولكن على ما يبدو أن جميع هذه المحاولات قد باءت بالفشل واستمر قيام إمارة الأدارة التي كان العباسيون ينظرون إليها على أنها خطر يهدد بالتهام المغرب الإسلامي ومصر.

ثم أن الأغلبية وبمرور الزمن لم يكن في صالحهم أن يتأصل عدوهم مع الأدارة ول تنطخ علاقاتهم السياسية طابعاً عدائياً يؤدي إلى الصراع بسبب مصالحهم المشتركة لذلك فليس في وسعهم إلا قبول دعوة الأدارة بعقد الصلح

بين الطرفين⁽¹⁾ وأن يكف كل منهما عن الآخر من ناحيته⁽²⁾ فيشير ابن الخطيب إلى أن إريس بن عبد الله بن الحسن كتب إلى إبراهيم بن الأغلب بن مسلم يستغفريه عن ناحيته و يذكره بقرابته من رسول الله (ص) فلجابه عن كتابه ووداعه ولم تجر بينهما حرب إلا ما ذكر عنه⁽³⁾

ومن المرجح، أن الأغلبية كانوا يدركون أن الإدارة قد أسهموا إسهاما فعالا في خدمة العالم الإسلامي، من حيث أنهم نبّثوا القبائل المغربية على الإسلام بل هم الرواد والممهّدون الحقيقيون لظهور هذه القبائل في المجال الإسلامي ظهورا واضحا⁽⁴⁾ فلا غرو أن يستجيب الإدارة للظروف والأحوال التي يمر بها المغرب الإسلامي فيقتنعوا أن انزعاج المصح وما يطلعه من علاقات عدائية وبخاصة مع الإدارة لا يخدم مصالحهم وكذلك لا يساعد على استقرار المنطقة وأمنها لذلك تهدد أهمية الإسلام والموادعة وتحاشي الصدام في نظر الأغلبية تحت الأولوية في سياساتهم والأغلبية يحكم تحالفهم مع العباسيين من جهة فبينهم يسعون إلى التوفيق بين مصالح الإمارات والدول والقوى الإسلامية في المغرب وبين مطالب الخلافة العباسية من جهة أخرى كما أنهم أحيانا يرون في بعض الإجراءات التي كان يتخذها الخليفة أو توجهاته إليهم خروجاً عن مواقع السياسي التي تعيشه المنطقة لا يسعهم الاستئصال له، وقد ظهر ذلك واضحا من كتاب الخليفة العباسي المأمون إلى الأمير زيادة الله بن إبراهيم 223/201 هـ يحثه فيه على ادعاء بني عبدالله بن طاهر على منابر إفريقية، فعضب الأمير الأغلبي وهدد الخليفة بخروجه عن طاعة العباسيين و التضمعه إلى الإدارة⁽⁵⁾

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 27.

⁽²⁾ ابن الأثير - الكامل ج 6 ص 56.

⁽³⁾ افعال الإعلام ق 3 ص 14 - 15.

⁽⁴⁾ د. حسن أحمد محمود، العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 412.

⁽⁵⁾ كما يشير العباسيون بتقوى الأغلبية بطابعهم، أرسل زيادة الله بن إبراهيم، كما يحتوي على السيف دينار مطروحة بأسماء بني إريس هذا يشير إلى أن الإدارة يشكلون إمارة قوية في المنطقة وأن الأمير الأغلبي كان تهدد الخليفة بالتضامن إمارته إلى صف أعداء الخلافة الأتقواء (ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 422، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 17).

ومعروف أنه يظهر الإدارة، ترسخت الأفكار الإسلامية بين قبائل المغرب واستطاع الإدارة بمساعدتهم في المضي بنشر الإسلام في غرب أفريقيا وهي حوض السنغال، وهذه الظاهرة كانت تسببت انتهاء العباسيين، مما يترتب عليهم اتخاذ تدابير في المجالات السياسية والعسكرية لغرض التعقيم على نشاط الإدارة في هذا المجال غير أن جميع هذه التدابير والخطط قد فشلت نظرا لتناهي بلاد المغرب عن المشرق الإسلامي وعجز جيوشهم عن الوصول إليها، فضلا عن قوة إمارة الإدارة وكثرة جيوشها، وقد جاء على لسان الخليفة هارون الرشيد وهو يستشير رجاله في أمر إدريس بن عبد الله الذي اشتهر أمره واسمه فقال: ... وقد هالني أمره⁽¹⁾ مما يشير إلى أن إمارة الإدارة أصبحت قوة متفجرة.

ومهما يكن من أمر فإن إمارة الإدارة لم تصمد أمام مكائد الولاة العباسيين وخلفائهم من الأغلبية، فحصب، بل أنها كانت تذب عن نفسها عدوان القوى الأخرى في المنطقة أيضا، وثبتت أقدامها وتحدى الصعاب التي كانت تواجهها، مما جعلها تحكم أكثر من قرن (172-375هـ) وأمت نفوذها من الموس الأقصى إلى وهران، وقد حول الإدارة على ذلك بتجنيد القبائل وتعبئتها ضد أعدائهم، وهكذا لم يرضخ الإدارة إلى التهديدات التي كان يطلقها أعداؤهم.

ونعتقد، أن الإدارة، لم يكن ينح لهم مثل هذا الموقف لو لم يحظوا بالتأييد من أغلب قبائل المغرب القوية ومنها أوربة وفطحية و صندية وقبائل زناتة وهي زواوة ولواتة وسدراتة ونفزة ومكناسة وغمارة وكذلك مما زاد في نفوذ الإدارة أن الحركة الانفصالية عن النفوذ العباسي في بلاد المغرب اقتصرت بظهورهم فقد حمل لواءها مؤسسو إماراتهم الأول ولكن من المفيد أن نذكر أن المواجهة لتسي تمت بين الإدارة والفاطميين و أن الإدارة حكموا باسم الفاطميين⁽²⁾ ووضوح الإدارة بين خصميه متنازع الفاطميون في المغرب والأمويون في الأندلس أضحت الإدارة وأتقت إمارتهم قوتها ونفوذها وسبب لها كثيرا من المتاعب مما أفضى إلى سقوطها وزوالها.

⁽¹⁾ ابن أبي زرع، الانيس المغرب يروض القرطبي في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدبله فاس من 203، التكري، المصدر السابق ص 119 ابن خازري، المصدر السابق ص 83، ابن الخطيب، المصدر

السابق ص 192-193 د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 471 فلا عن leve- Provençal, Extrandes Historien arabes P 18

⁽²⁾ السلاوي، الإستقصا ج 1 ص 86-86 ابن خازري، المصدر السابق ج 1 ص 212-213.

الفصل السابع

إمارة الأغالبة في المغرب الأدنى

- 1- فتح جزيرة صقلية
- 2- القيروان عاصمة بني الأغلب
- 3- العلاقات السياسية
الأمراء الأغالبة والخلفاء العباسيين

إمارة الأغالبة في المغرب الأدنى

(184 - 296 هـ / 800 - 908 م)

يلتسب الأغالبة إلى إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي، من قواد جيش الخليفة العباسي هارون الرشيد، حيث عهد إليه هذا الأخير بإقامة إمارة يتزعمها تتمتع بشبه استقلال ذاتي تستظل بالخلافة وتكون قاعدة سياسية وعسكرية للوقوف ضد القوي والحركات المناوئة للخلافة ولاستقطاب القبائل والعناصر المستقلة والمعتدلة والمعتددة وقد امتنع الخليفة هارون الرشيد بهذا الإجراء نتيجة لاستمرار الحركات المناوئة والمعادية للخلافة، وخشية من انفصال المغرب الإسلامي عن النفوذ العباسي الذي كان ينظر إليه الخليفة بأنه بات وشيكا، بل كان ولغا ملموسا في ظروف هذه البلاد البعيدة بعد قيام إمارة الإدريسية التي أصبحت العدو التقليدي للنفوذ العباسي.

وقد تبين، أن اشتراط الخلافة لقيام إمارة الأغالبة في ولاية إفريقية المتمثلة في جهات المغرب الأدنى يقوم على دعامتين أساسيتين، أولاهما، الضمانات المالية واستمرا ر تدفق الإيرادات على بيت مال الخلافة في بغداد سواء تلك الإعانات التي كان يستحصلها ولاية إفريقية من مصر أو تلك التي أقرضت فيما بعد⁽¹⁾ وثانيهما يتمثل في منع الإدريسة من سياسة التوسع أو الحد منها في الأقال وكذلك دفع الأغالبة إلى التدخل في شئون الإدريسة وإشغال دعواتهم بما يراه العباسيون، فصل بلاد المغرب عن العالم الإسلامي أو سعيهم في توحيده المغرب والمشرق تحت قيادتهم.

⁽¹⁾ كانت ولاية مصر ترسل إلى إفريقية مائة ألف دينار سنويا لتعج حركات المعارضة ضد الخلافة، أما الأموال التي أقرضها هارون الرشيد لعضدان على الأغالبة ويسمونها 'جزية سنوية' فهي أربعون ألف دينار سنويا (ابن الأثير، الكامل ج، ص 56).

وفي مقابل ذلك، استحصل إبراهيم بن الأظبل عهد الخليفة هارون الرشيد و موافقته بتقليته في ولاية إفريقية (منطقة تونس) سنة 184 هـ ومن ثم الاعتراف والإقرار له بتأسيس إمارة تدعى بالولاء تسياسي و التبعية الاسمية للخلافة واتخذ من القيروان عاصمة لولايته على أن يقوم بتنفيذ التزاماته تجاه الخلافة فلا غرو أن يسعى إبراهيم بن الأظبل للتعبير عن إخلاصه و مودته للعباسيين فتطخت علاقاته مع القوي المعادية للخلافة طابع العداء.

فهاض القسطنطيني والمغاربة وكذلك على الرغم مما عرف عنه من المعاملة والحرص على أسباب تاحتص الصراع غير انه لم يكن ثمة محيط عن الصدام أمام تشاك الحدود وعدم وضوح معالمها و بخاصة مع إمارة بني رستم وكذلك لبطل بالخوارج الصفرية المتبعين بالقيروان الذين كانوا يمثلون المصدريين على أن الأغلبية دأبوا على ترضية الخلافة بإلغاء الضمانات المالية أما موقف الأغلبية من الدراسة فقد اتم بالعداء حيث بدأ الأغلبية بترصدون أعداء حلفائهم ويحاولون الإيقاع بهم متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا فسفروا من اختال رائد مولي إدريس بن عبد الله مؤسس إمارة الدراسة⁽¹⁾ ووضعوا الخطط للكيد منهم باستمالة العناصر التي تؤيدهم والعمل على بث روح الفرقة والتسلل بينهما سواء باسترضائها بالأموال أو بالتهديد و الوعيد .

ويخيل أيضا، إن التحالف بين العباسيين والأغلبية كان له ردود فعل غريبة من جانب بعض العناصر التي لم يكن يروق لها أن ترى أي أثر للعباسيين أو سيادتهم في بلاد المغرب، فتجد في ثورة " حمليس " الذي ثار في مدينة تونس في عهد إبراهيم بن الأظبل وأبطل شعار بني العباس ذي اللون الأسود⁽²⁾ وثورة أهل

⁽¹⁾ ابن خلّون، المصدر السابق ج 4 ص 428 .

⁽²⁾ استطاع إبراهيم بن الأظبل أن يرفع هذه الثورة و يؤزم حمليس من مدينة تونس و أن يقل معظم أعماره و مؤيديه الذين يرفعون عهدهم إلى أكثر بأمر حشدا آلاف ثار (التامل ج 5 ص 184) انظر أيضا ابن خلّون المرق و ديوان المبدأ و الخبر ج 4 ص 419.

طرابلس على الولاة العباسيين أو ولاية الاغلبية سنة 189 هـ⁽¹⁾ وثورة عمران بن مجاهد في مدينة القيروان سنة 195 هـ⁽²⁾ وثورة الجند في مدينة طرابلس سنة 196 هـ⁽³⁾ وثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلبية في مدينة باجة سنة 207 هـ⁽⁴⁾ وثورة عمر بن معاوية القيسي في مدينة القيصرين سنة 208 هـ⁽⁵⁾

⁽¹⁾ وكان أهل طرابلس قد ثاروا مرات عديدة قبل تولي إبراهيم بن الأخطب على الولاة العباسيين لكن ثوراتهم فشلت وفي عهد إبراهيم ثاروا بحملة سليمان بن المضاء وهزموه واستنقلوه بإبراهيم بن سليمان فجرد إليهم إبراهيم بن الأخطب جيشاً وهزمهم وقتل على ثورتهم (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121).

⁽²⁾ وكان هذا من رجال إبراهيم بن الأخطب تفرّد عليه وأيده رجل اسمه حريش بن الكوسى واعتصمت هذه الثورة كثيراً من الأنصار والمؤيدين واتجه هؤلاء الثوار نحو مدينة الجساسة التي كان إبراهيم بن الأخطب قد اعتصم فيها عبر أن هذا الأخير استطاع تعزيق صفوف الثوار بعد أن هزم عمران بن مجاهد الذي هرب وأقام يثأب وفي عهد عبد الله بن إبراهيم أعطى لهذا الفاجر الأمان ثم قتل (ابن الأثير، المصدر السابق ص 121، ابن خلدون، المصدر السابق ص 421 ابن الأثير، الحلة الشيرة ص 105).

⁽³⁾ قامت على أثر تولية عبد الله بن إبراهيم بن الأخطب على طرابلس حيث ثار الجند وحاصروه في داره وأرغموه على الهروب إلى القيروان غير أن عبد الله اعتنّب إليه الأنصار من بعض القبائل ببذل الأموال لهم فكلّرت حشوده وزحف بهم إلى طرابلس مرة أخرى وأوقع ثورة الجند ولكن أساء عزله واستعمل سليمان بن المضاء فثارّت قبيلة هوزاة وهلمت طرابلس واعتصمتها فاضطر إبراهيم بن الأخطب إلى تقبّل وده عبادة القيادة الجيش فاستطاع هذا الأخير أن يسترد المدينة ويهزم هوزاة لكن الرستميّين التجّدها وحاصروا طرابلس حتى وفاة إبراهيم بن الأخطب فاضطر إليه عبد الله إلى معالجة الرستميّين وعقود اتفاقية بهذا الشأن وعاد عبد الله بموجبها إلى القيروان (ابن الأثير، المصدر السابق ص 156، ابن خلدون، المصدر السابق ص 420-421).

⁽⁴⁾ استطاع زيادة الله بن إبراهيم قمع هذه الثورة وقتل القاتمين بها (ابن عذاري البيان المغرب ج1 ص97).

⁽⁵⁾ استولى على مدينة القيصرين وكان من قبل عاملًا عليها، فجرد زيادة الله بن إبراهيم جيشاً حاصره أياماً ثم استنقله بالأسنان هو وولديه، حباب ومسمعان فخر بهم وقتلهم ويروي ابن عذاري قصة مقتل عمرو بن معاوية وولديه على يد زيادة الله بالتفصيل (البيان المغرب ج1 ص98-97)

وثورة منصور بن نصير الطنيزي في مدينة طنيزة سنة 209 هـ ⁽¹⁾ يقول إن هذه الثورات دليل بنهض علي لاحتجاج الثالرين ضد سياسة الأغلبية التي كانت تقوم علي التبعة و الولاء للخلافة العباسية و كذلك ضد الإجراءات التي كان يتخذها أمراء الأغلبية أو عمالهم في المغرب الأدنى من حين لآخر.

ومن التلميح أن نذكر أن عهد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم 196-201 هـ قد اتم بالهدوء والاستقرار نتيجة لجوءه وتصلبه فقد وصف بأنه كان " منصفاً جاثراً ظولماً مع رعيته أحدث باقرية وجوها من الظلم شنيعة " ⁽²⁾ كما قيل عنه أنه كان " جماعاً للأموال " ⁽³⁾ أما زيادة الله بن إبراهيم 201-223 هـ فتنبأ المصاهر في القول بأنه كان من أفضل أمراء الأغلبية، فقد كان يمتلك المقدرة والثقافة السياسية والعسكرية إلى جانب ما عُرف عنه من حسب للعلم وتقدير

⁽¹⁾ وهي من اعنف الثورات التي واجهتها الأغلبية ومن أشدها خطراً عليهم حيث انقضت القرية على زيادة الله بن إبراهيم فلم يبق في يده سوى السيف و ثابى، وكان منصور الطنيزي يحاول الاستيلاء على تونس فأرسل إليه زيادة الله فلهده محمد بن حمزة و امره بمداخنته غير أنه لم يحد فقول بدر صليحة السلطان في تونس وأرسل إليه وهما من شيوخ تونس لاسترضائه لكن منصور تظاهر بالإخلاص للأغلبية وعرض عليهم العيش بنية السير معهم إلى زيادة الله وأرسل إلي محمد بن حمزة برا وخمسة وعشرين فارساً لذلك غير أن منصور سجن الوقت وحلف مع أتباعه و انصاره إلى تونس و هجموا ليلاً على المعيش هناك و قتلوا وإلى المدينة فلم يبق اسم زيادة الله إلا توجهه عسكرياً إلى الطنيزي بقيادة و يره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب المعروف بظيرون و لكن هذا الأخير هزم و استولى الثوار على عدد من مدن القرية وعلشوا سلطة الأغلبية ثم راحوا نحو القيروان و حاصروها ثم احتاروا لكن زيادة الله استطاع أن يهزمهم ويسترد المدينة. وفي 210 هـ عود الثوار الهجوم على القيروان واستولوا عليها وراحوا إلى زيادة الله أن يرحل عن القرية ولكن أثير على زيادة الله الاستعانة ببقيلة تفسزوا حيث ساعدته في إقناع الهزيمة بالثوار وقاتل قاتلهم و في سنة 215 هـ تعادلت الثورة في مقبلة تونس و كان يفردها فضل بن أبي العنبر و إبدت أنصار الطنيزي ولكن زيادة الله تمكن من القضاء (ابن عذاري ، المصدر السابق ص 101 ابن الأثير المصدر السابق ص 158) .

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق ص 95

⁽³⁾ ابن الخطيب المصدر السابق ص 15

للعماء فآبتي القصور ومراكز الثقافة في القيروان والعماسية وتونس وسوسة
وأنس نواة للأسطول الإسلامي المزود بالسفن الحربية و المعدات العسكرية .

فتح جزيرة صقلية :

لقد كانت سياسة الأغلبية تقتضي في هذه الفترة المعنى لتحقيق الأهداف التي
رسومها لتوسعهم في حوض بحر الروم (البحر المتوسط) ففي سنة 206هـ
توجهت قطعاتهم البحرية وأسطولها إلى الجزر القريبة من تونس ومنها جزيرة
سردينيا⁽¹⁾ سردينيا، ولكن أهم عملية بحرية منظمة في عهد الأمير زيادة الله بن
إبراهيم التي استهدفت جزيرة صقلية حيث تم فتحها فأصبحت جزءا من البلاد
الإسلامية و توارث المسلمون حكمها أكثر من قرنين من الزمان كانت فيها مصدرا
للثقافة و مركزا من مراكز الحضارة العربية الإسلامية.

ولعل من أهم الدوافع لفتح جزيرة صقلية سنة 212هـ هو العامل الديني الذي
يتمثل بالجهاد في سبيل الله و في محاولة القضاء على غارات الروم البيزنطيين
على الثغور الإسلامية وعودة إلى السياسة التي جرى عليها الأمويون في الميمنة
لنفس الغزوات على حدود البيزنطيين، أما العامل الاقتصادي فإن صقلية بلاد غنية و
تعمل أراضي جديدة يمكن استغلالها وقد لعب هذان الدافعان دورهما في التأييد و
التحشيد و إعداد الحملة⁽²⁾. إن اختيار القاضي أسد بن الفرات (وهو مصنف
الإسدية في الفقه على مذهب مالك بن أنس) قائدا للحملة عن روح الجهاد يضاف
إلى أن زيادة الله كان يحرص على الظهور بمظهر المجاهد المتأخر أمام الرعية
كما أنه كان يعاني من ثورات الجند فأراد أن يكسر شوكتهم و يستخلص منهم
ببشرائهم في الحرب هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فإن قائد الأسطول
البيزنطي ' فيمي ' euphemius أعلن تمرده على الإمبراطور ميخائيل الثاني الذي
أمره بمواجهة الجيش الإسلامي حيث استولى هذا القائد على مدينة ' سراقوسة
psiracuse ' و نصب نفسه ملكا على صقلية و لكن أتباعه و جنده خرجوا عليه

(1) ابن عماري م. ز. ص 97.

(2) د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 285.

فتمكن والى مدينة ' بلزم palemo من هزيمة فيمي والاستيلاء على سرقوسة
 فلم يسع فيمي إلا اللجوء إلى الأغلبية حيث ساعدتهم على فتح الجزيرة القلح
 أسطول الأغلبية و هو مؤلف من مائة مركب فيمي و استولى على حصون كثيرة
 وحاصروا سرقوسة برا وبحرا وجاءتهم الإمدادات من أفريقية و بعد مفاوضات
 بين الطرفين فتحوا مدينة بلزم وهي الميناء على الساحل الشمالي للجزيرة و
 استمر جيش الأغلبية يحاصر المدن ثم دخلها حتى سنة 223 هـ حيث توفي
 زيادة الله فلم يهنوا و قاتلوا الروم و هكذا بقيت جزيرة صقلية طوال عصر
 الأغلبية مركزا لجهاد البيزنطيين ولم يكتف الأغلبية بهذه الجزيرة بل أغاروا على
 جزيرة مالطة و احتلوها ⁽¹⁾

لقد حطم إمارة الأغلبية بعد وفاة زيادة الله بن إبراهيم سنة 223 هـ عدد من
 الأمراء تميزت عهودهم بالاستقرار والهدوء، وهو أمر طبيعي لأن الأمراء الأول
 كرسوا قوتهم لكي يذبوا عنها الأخطار ومزمارات المعرضين والمناوئين والثوار و
 إرساء دعائمها على أسس متينة وتوطيدها بانتهاج سياسة داخلية تقوم على
 الإصلاح وإرضاء الرعية و تطمين مصالحها. ونستدل على قوة الأغلبية ومنعت
 إمارتهم بناءهم لمدينة العباسية سنة 227 هـ بالقرب من مدينة ناهرت وذلك على
 الرغم من قيام الرستميين بتخريب هذه المدينة ⁽²⁾ غير أنها ظلت قائمة رمزا
 للتحالف بين الأغلبية و العباسيين. والظاهر أن اهتمام الأغلبية بإقامة المدن
 والمنشآت والمساجد والقلاع وحفر الممرات (البرك لخزن المياه) على شكل
 صهاريج واسعة مستنيرة لمياه الشرب والري، وبناء أسوار المدن والحصون
 والمحارص على ساحل البحر ⁽³⁾ إنما يدل هو الآخر على فترات الانتعاش والهدوء
 السياسي الذي ساد منطقة الأغلبية ففي 252 هـ قام محمد بن حمدون الأندلسي
 المعافى وهو أحد وجهاء القيروان ببناء المسجد المنسوب إليه في القيروان ⁽⁴⁾

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 102 - 106 ابن الأثير المصدر السابق ص 187 ابن خلدون،

المصدر السابق ص 426، د. إسماعيل عباس، العرب في صقلية ص 32.

⁽²⁾ ابن الأثير، المصدر السابق ص 293.

⁽³⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 431.

⁽⁴⁾ ويعرف المسجد الأبواب الثلاثة لله بني بالجر و الجص و الرخام ونحو رخارف و جهنسه من أروع
 الرخارف (د. السيد عبد العزيز سالم المغرب الكبير ج2 ص 399

وذلك في عهد الأمير أبي الغرائق محمد بن أحمد 261/205 هـ، كما أقام الأمير إبراهيم بن أحمد 289/261 هـ مدينة قادة وبني فيها جامع الفتح سنة 264 هـ⁽¹⁾ أما مظاهر الصراع على السلطة في إمارة الأغلبية، فبيدوا واضعاً في الفترة الواقعة من 231 - 290 هـ ولعل أوضح صورة لهذا الصراع ما جرى بين الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم 226 - 242 هـ وأخيه أبي جعفر أحمد بن الأغلب، حيث كان هذا الأخير سلطوا على أخيه بسبب تسلط وزيره على أمور الإمارة، وكان من نتيجة خروجه على أخيه أن استصلى خصومه واستأثر بالسلطة لنفسه ولم يبق لأخيه غير الاسم ولكن أحمد بن الأغلب عمد إلى تسيير مؤامرة لتفويض على أخيه وأعوامه و نفاهم إلى مصر⁽²⁾ وكذلك ما حدث بعد تولي الأمير أبي العباس عبد الله بن إبراهيم حيث نسج له ابنه زيادة الله مؤامرة لقتله فحسب أنها عثقت لتفويض على زيادة الله وأودع السجن ولكنه عول على قتيان الصقالبة فأمرهم بقتل أبيه⁽³⁾ فتولى زيادة الله بن إبراهيم الإمارة سنة 290 - 296 هـ و قرر الانتقام من أعمامه ففأهم ثم قتلهم وقتل القتيان الصقالبة الذين قتلوا أخاه بما عبد الله الملقب بالأحول⁽⁴⁾ .

ومن المحتمل أن تكون سلسلة الثورات بوجه الأمراء والأغلبية قد أوهنت في قواهم وجعلتهم لا يقومون على مواجهة أي خطر خارجي قد يتعرضون له و بخاصة بعد أن استكملت حلقات هذا الوهن بالصراع على السلطة الذي أضعفهم كثيراً أمام تدفق الخطر اللاتامي الذي راح يهدد بلاد المغرب برمتها وانتهازم إماراته ودوله والقضاء على قواه السياسية والعسكرية خلال هذه الفترة.

⁽¹⁾ ابن الأثير، المصدر السابق ص 5 ن ابن خلدون، المصدر السابق ص 431

⁽²⁾ ابن عازي، المصدر السابق ص 108، ابن الأثير، المصدر السابق ج 5 ص 270، ابن الخطيب، المصدر السابق ص 21.

⁽³⁾ ابن الأثير، المصدر نفسه ص 103.

⁽⁴⁾ ابن عازي، المصدر نفسه ص 135 - 136.

واعتقد أن الفتاة التي وضعها الفاطميون لإمارة الأغلبية كانت خطة محكمة تنطوي على الإعداد المسبق لها وقد تم اتخاذاها من قبل قائدهم أبي عبد الله الملقب بالمحسوب حيث زحف بجيشه بطريقه أرهبت أعدائه وأدخلت في السويهم الهلع والخوف، فلم تصمد جيوش الأغلبية أمام زحف الجيوش الفاطمية لثلاث مرات⁽¹⁾ حيث تقدم لإسقاط المدن واحتلالها مبتدئا في مدينة طنجة وبلزمة وباغاية ونيجسي وقصبة وبلاد فسطيلية والأريس وكذلك مدن مجانة وتيفاس وسبويه ولموده وسكبانه ونهسه ثم القصيرين⁽²⁾ وأمام هذا التقدم الظاهر للجيوش الفاطمية لم يقو زيادة الله على الصمود وقرر الهرب إلى مصر فأخرج متخفيا ليلا مع وجوه قومه وفتياته وألف من عبيده الصقالية وأفرغ ما في خزان الإمارة من ذهب وجوهر ورجل من رفاقه⁽³⁾ تاركا إمارته أمام رحمة القضاة الفاطميين حيث أسلمت عليها السدار وسقطت سنة 296 هـ.

القيروان عاصمة بني الأغلب:

أخط عقبة بن نافع القيروى، مدينة القيروان وأصبها لأغراض عسكرية ودينية سنة 50 هـ/670 م في منطقة تونس وبني في وسطها مسجدها الجامع وقد بقيت هذه المدينة ربحا من الزمن مركزا لجميع بلاد المغرب الإسلامي وعاصمة لأفريقية⁽⁴⁾ ويقدم لنا أبي عبد البكرى، معلومات مفيدة عن القيروان تلقي ضوءا عن أحوالها الاجتماعية والعمرانية وتساعدنا على القول أنها كانت نموذجا للمدينة الإسلامية في خططها ومنشأتها وبروبها وفنادقها وحماماتها وأيوبيها وأسوارها⁽⁵⁾ لذلك فقد اتخذها الأغلبية حاضرة لهم وعاصمة لدولتهم سنة 184 هـ.

(1) ابن الأثير، المصدر السابق ص 130.

(2) ابن عذارى، المصدر السابق ص 141، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص 440.

(3) تذكر المصادر أنه لما اتصل العمير برفادة إلى زيادة الله علم أن الأمر خطير وأن الإمارة قد تعرضت لاستبداد لظهوره وأخذ في رفع الأموال وأصبح الناس يهابون تلك القبلة إلى تصور زيادة الله فأنهوها وأعطوا الأموال منها (ابن عذارى، ص 147، ابن الخطيب ص 42، ابن خلدون ص 441.

(4) ابن الخطيب، أعمال الإغلام في 3 ص 9 عايش رقم (1).

(5) المغرب في لفر بلاد افريقية و المغرب ص 25.

فاكتسبت أهمية بين أمصار المغرب و قواعد ومدنه حتى وصفت بأنها " لم أمصار وقاعدة لقطار و كانت أعظم مدن المغرب قطراً و أكثرها بشراً " (1)

ويمكن القول أن التطور العمراني والاجتماعي التي شهدته القيروان في عهد الأغلبية إنما كان بسبب مركزها السياسي والديني ومواقعها الجغرافية حيث تشخص على الطرق التي تؤدي إلى الأندلس والمغربين الأوسط والخصي من جهة و المشرق الإسلامي وموانئ الطرق التجارية الواقعة على شاطئ أفريقية من جهة أخرى ويذهب الدكتور الحبيب الجعفاني إلى القول أن خطط الفيسروان ومنشأتها ومساكنها تعطي فكرة واضحة عن أهمية التقدم الحضاري فقد بلغ طول الشارع التجاري الرئيسي فيها المسمى " سبط القيروان " مليون وثلاثاً أي بما يزيد عن الثلاثة كيلو مترات ونصف، ولا شك في أن هذا يدل على سعة المدينة و ضيقاتها وتعدد مرافقها وتشابك المصالح فيها (2)

ويبدو أن الأغلبية قرروا أن يقتلوا أثر المرابيين والروستميون والأدارسة في تأسيس مدن تمثل وجودهم السياسي والاجتماعي مثل سجلماسة وتاهرت وفاس فشرعوا في إقامة مدينة العباسية جنوبي القيروان ليتخذوها مقراً ومركزاً لهم (3) وللأسف لا توجد لدينا معلومات كثيرة ومفصلة عن هذه المدينة سوى النكت التي يذكرها ابن عذاري التي جاء فيها أن إبراهيم بن الأغلب شرع سنة 185 هـ أي بعد سنة واحدة من قيام إمارته في القيروان في بناء مدينة " القصر القديم " الذي هو نفسه مدينة العباسية على الأرجح، وربما كان هذا القصر في بدايته داراً غير رسمية للأمير إبراهيم بن الأغلب ثم صار بعد ذلك " دار أمراء بني الأغلب " حيث

(1) الأبريسي، نزهة المشتاق في إقتران الأنوار ص 110.

(2) المغرب الإسلامي ص 53.

(3) ربما كان الأغلب يتشبهون بمقلداهم العباسيين أو بالمأمويين في الأندلس كانوا يتشبهون لمدونهم عواصم ملكية غير العواصم التقليدية التي كانت تضم طبقات و فئات اجتماعية قد لا يتوفر فيها الإجماع لهم كما هو الحال بالنسبة للعباسيين عندما تركوا الكوفة و اتخذوا لهم القاسمية مقراً ثم كيف أنشأوا بغداد في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ثم ساروا في عهد الخليفة المعتمد بساط و كيف تركوا القسطنطينية و أنشأوا مدينة الصغر في مصر و كيف بنى عبد الرحمن الناصر مدينة الزمراء و محمد ابن أبي عامر الزاهرة في الأندلس.

نقلوا إليه السلاح والغد سرا وأقاموا فيه واستنوا عبيدهم وأهل القلعة من خدمهم⁽¹⁾ وأن إبراهيم بن الأغلب هو الذي أطلق عليه اسم "العباسية" -⁽²⁾ تعبيرا عن ولائه لحلفائه العباسيين ولكن المؤرخ النفوسي يشير إلى أن الأغلبية في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم أقاموا مدينة العباسية سنة 239 هـ في بلاد الجريد⁽³⁾ لتكون قاعدة عسكرية ينطلقون منها ضد الرستميين و عاصمتهم تاهرت ولمنع الأخطار المحتملة منهم فضلا عن منافستها للعاصمة الرستمية في تجارة مرور القوافل غير أن الرستميين ألقوا في تدميرها وحرقها لانتفاء خطر الأغلبية في المنطقة⁽⁴⁾.

وأغلب الظن أن مدينة أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم هذا تمثل المحاولة الثانية لإقامة مدينة بالاسم نفسه بعد عباسية إبراهيم بن الأغلب، أو إن الأول أقام المدينة نفسها بعد تخريبها من قبل الرستميين وأقام الأمير إبراهيم بن محمد 261 - 289 هـ المدينة رقادة سنة 263 واتخذها داراً ووطناً فنقل إليها من مدينة القصر القديم العباسية وبنى بها قصورا عجيبة وجامعا وعمرت بالأسواق والحمامات والقنائق وهدت دار ملك لبني الأغلب -⁽⁵⁾ ثم أصبحت هذه المدينة مركزا مهما من مراكز التجارة والعلم والحضارة بيد أن مدينة القيروان التي اعتمدها الأغلبية قاعدة لهم لم تبق محتفظة بدورها كمركز سياسي واقتصادي وحضاري فحسب بل أنها وصلت إلى أوج تطورها العمراني والاجتماعي والثقافي فهي لم تزال دار ملك لبني الأغلب إلى أن هرب زيادة الله منها وهو آخر أمرهم⁽⁶⁾

⁽¹⁾ البيان المغرب ص 92 - 93.

⁽²⁾ ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 154 ح ابن خلّون، المعرج 4 ص 419.

⁽³⁾ الأزهري الرياضية ج 2 ص 189، الظاهر، محمود إسماعيل، القوافل في المغرب الإسلامي ص 143

⁽⁴⁾ البلاتري، لوجج البلدان ص 227 ابن خلّون، المصدر السابق ص 200 - 201.

⁽⁵⁾ ابن خلدون، البيان المغرب ص 94.

⁽⁶⁾ البكري، المغرب في ذكر الخريطة و المغرب ص 27.

العلاقات المياسية

الأمراء الأغلبة و الخلفاء العباسيين:

تخلفت علاقات بني الأغلب منذ قيام إماراتهم بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد، مع الخلفاء العباسيين طبعاً ونياً اتسم باستمرار صلات التحالف، وكان تولي الأمراء الأغلبية لولاياتهم قد استلزم عهداً بالولاية "التقليد" من الخلافة في مقابل التبعية الاسمية لها، وقد جرى الأمر بهذا الشكل منذ تولي إبراهيم بن الأغلب سنة 184 هـ وحرصت الخلافة أن تكون علاقتها مع الأغلبة تسير على نمط واحد في جميع العهود، ويبدو أن الأغلبية حرصوا من جانبهم كذلك على تيمونها بهذا الإطار ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ولكن من المحتمل جداً أنهم عكسوا يراهم الظروف السياسية التي كانت تمر فيها إماراتهم وهي بين حشد من الأعداء فسي حين تحتم عليهم الاستجابة للعباسيين وتتلقى "لوازمهم وإجراءاتهم التي في كتبهم" (1) فإنهم كانوا في أحيان أخرى يفضلون الابتعاد عن مناجزة أية قوة سياسية أو مناهضتها والإحجام عن إكذاء أو تشجيع ما يؤدي إلى الخصومة والعداء معها فهم في ذلك يؤثرون حياة الهدوء والموادعة ولكنهم في ظروف أخرى لم يعدموا إزاء الضغوط العباسية وسياسة التبعية، العمل على مناهضة الكيانات القائمة وإرسالهم للعلاء والمنافع لغرض التطويع بها كما فعلوا مع الرسميين والممارسة وبني مدرار وأمويي الأندلس.

ومن الواضح، أن الأغلبية يكونهم أداة الخلافة العباسية وعماتها في أفريقيا ورمزا للنفوذ الوحيد في جميع بلاد المغرب الإسلامي، فإنهم يعجزون في كثير من الأحيان عن تقديم صورة بؤن آخر لمواقفتهم وعلاقتهم مع القوي والفتات والعناصر، وذلك لأن هذه القوي قد تاصل عدائها للعباسيين ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تستبدل نظرتها تجاه الخلافة، فإذا شاء الأغلبية اتخاذ مواقف وعلاقات جديدة معها، فعليهم أن يعيدوا النظر في علاقتهم مع العباسيين وأن يحنوا شجبهم

(1) ابن خلدون، المرجع 4 من 422، ابن الخطيب، أعمال الأعلام 3 من 17.

لسياسة العداء التقليدي التي تتلخصها الخلافة و تزد الأحقاد القديمة و تطبيقي سياسة تقوم على التفارب و المودعة و تحاشي التدخل و الشقاق.

ومن الجدير بالذكر أن كلا الطرفين العباسيين والأغلبية إذا كان حقا بظلال العداء السياسي و إسقاطه من سجل العلاقات مع بعض العناصر في المغرب الإسلامي فإن هذه العناصر لا يسعها نسيان الخلافات المذهبية و العقائدية، مما يجعل أي مسعى من جانب الأغلبية للتوفيق معها غير مؤثر لذلك ينكسب الأغلبية على تكبير المكائد و إبداء الشقاق بين هذه القوى و مناهضة حكامها⁽¹⁾

وتقبض المصائد المتوفرة بمزيد من التوصلات حول إيمان بعض أمراء الأغلبية في السير بهذا الطريق جريا على سنة الخلافة وتنفيذا لمشيئتها غير أنهم في ظروف معينة لا يسمعون فيها صوت الخلافة، ينتج توتر في العلاقات معها تضطربهم في نهاية الأمر، إما في الاستسلام لمشيئتها و إما إلى التهديد و الوعيد بالخروج عن طاعتها⁽²⁾.

وغنى عن البيان، أن قيام إمارة الأغلبية لا يمثل في الواقع الا استغلالا محدود الألق، استقلال في السياسة الداخلية، أما تقرير سياستهم الخارجية وعلاقاتهم في المنطقة فتحكمه توجهات الخلافة و أوامرها كما أنهم لا يملكون حتى التصرف بممتلكات العباسيين و شؤون قريبة مما يجعلهم عاجزين في بعض الأحيان حتى عن الدفاع عن أنفسهم فالعباسيون لم يقدروا أن يتجدوا حلفائهم الأغلبية ويحولوا دون سقوط إماراتهم بيد القاطنين الأمر الذي حدا بزيادة الله إلى تكليف تحالفه مع الخلافة وطلب النجدة منها فأرسل كتابه إلى الخليفة المكتفي بالله ومعه هدية⁽³⁾

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان ج 1 ص 107، 119، 122، 123، 131، 137- إسماعيل الدين بن الخطيب، أصل ص 26، ابن الأثير، الكامل ج 5 ص 253، 259، 300، ابن خلدون، المعراج 4 ص 428، 431.

⁽²⁾ ابن خلدون، المصدر نفسه ص 422، ابن الخطيب، المصدر نفسه ص 17 (تكرر أيضا الفصل السادس من هذا الكتاب ص 13).

⁽³⁾ وكانت الهدية تشمل على مائة مئال من الذهب و كتب في كل مئال هذين البيتين من الشعر

يا سامرا نحو خليفة كل له أن قد طاعت الله امرأته

زيادة الله بن عبد الله سيوف الله من يوفى الخليفة منه

(ابن عذاري، المصدر السابق ج 2 ص 137)

لإشعاره باستمرار العلاقات الرسمية بين الطرفين و أنه علي أهبة الاستعداد للصد الهجوم الفاطمي الذي كان يستهدف بنظر زيادة الله الوجود العباسي ونفوذه في المغرب و لكن لم تفلح محاولات الخليفة في حث أهل المرقية علي نصره زيادة الله ومحاربة الفاطميين بكتاب أرسله وقرأه علي الناس هناك⁽¹⁾ فقد واصل الفاطميون تقدمهم في أملاك الأغلبية واحتلوا منهم، فلما اتصل الخبر بزيادة الله و هو في رقادة أيقن أن إسناد العباسيين المعنوي و الروحي و العسكري له لا يقوي علي الصمود أمام الفاطميين، فضلا عن أن أوضاع الخلافة هي ليست أحسن حالا مما آلت إليه إمارة الأغالبة من الضبط والوهن.

⁽¹⁾ وجاء فيه: ضرورة التوفيق صفا وانعا وراء الأمير المجاهد المطيع لأمر المؤمنين لقتال "هو الله الخارجي التاجم بالخراب تولعي المغرب وكساره. الشياح الظلال وأوباش الجهال والباغين في الفتن وأن من كان مذهبه مذهب زيادة الله كانت وسيلته الوحيدة و فريته عند أمير المؤمنين و كان حقيقيا بالأجتهاد له و الإتصاف إليه و السلوك إلى لهجته وأمر المؤمنين مرتضى لأمره حامد لطريقته والى من صحبته معتمد عليه في الصنيع الذي هو به "د، موسى لقبال، دور كتابة في تاريخ الخلافة الفاطمية ص 389 نقلا عن مخطوطة النعمان بن محمد التميمي افتتاح الدعوة وأبداء الدولة مكتبة جامعة القاهرة رقم 24055 (ابن عكاري- المصدر السابق ص 140).

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

1- تمهيد

الفاطميون

2- المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية

- علاقات الدولة الفاطمية السياسية

‘ في نطاق المغرب الإسلامي ‘

أ- الفاطميون ودولة بني العباس

ب- جزيرة صقلية بين المواطنين والعباسيين

ج- تطلع الفاطميين نحو مصر

د- الفاطميون وأمويو الأندلس

الدولة الفاطمية في بلاد المغرب

(197 - 365 هـ / 909 - 975 م)

تمهيد:

الفاطميون:

عرفوا بالإسماعيلية⁽¹⁾ أو السجعية أو التعظمية أو الباطنية⁽²⁾ أو لكنهم حرصوا أشد الحرص على أن يعرفوا بالخطوبين أو الفاطميين⁽³⁾ بيد أن اسم العبيدين هو الشائع في الكتابات التاريخية وذلك نسبة إلى عبد الله المهدي بن سعيد بن محمد الحبيب الذي ولد سنة 259 هـ في مدينة الكوفة و قيل في سلمية⁽⁴⁾ أو هو أخو الأئمة المستوريين للإسماعيلية⁽⁵⁾.

بيد أن اهتمام الفاطميين ببلاد المغرب الإسلامي، بإرسال داعين من مفرهم في مدينة سلمية من بلاد الشام الواقعة بين حمص وحماة، إلى هناك، و هما عبد الله

⁽¹⁾ نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، سائر الأئمة الاثني عشرية.

⁽²⁾ الباطنية، من يعتقدون أن لكل نص باطلا يدرجه الخاصة من الناس بطريق التواريف، وقد ألفوا بالسمجة لقولهم أن دوران الإمامة سبعة و الانتهاء إلى السليح هو آخر الدور و لذلك لأن خليفه الصلح السليح ملوك السجعية و أهلها أهل، أما التعظمية فإن مذهبهم دعوة الخلق إلى التعظيم من الإمام المصوم و استخدام الفعل (نظر: أبو حامد الغزالي فتاوى الباطنية ص 11 - 7، د. موسى توفيق، دور كتامة ص 203 هامش 41)

⁽³⁾ لأن أولاد عبد الله المهدي هم أولاد فاطمة بنت علي (ص) منهم علويون و لكن نسب هذه الأسرة غال و لا يزال موضوعا مثيرا فيه آراء الكتاب و المؤرخين القدمين و المحدثين (انظر: د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 97 - 79)

⁽⁴⁾ ابن حنبل، وفاته الاثنان ج 1 ص 272.

⁽⁵⁾ يرون أن الأئمة أو يمكن أن يكون قائلين جميعا بل ينبغي أن يستقر قسم منهم بتأثير الظروف و بالغ الأئمة المستوريين تلك - المستوريين في ذلك أنه " وقد ترتب على ذلك قيام عدد من الأئمة المستوريين بين محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وبين ظهور الفاطميين (انظر: الشهرستاني، المل و التمل ج 2 ص 5، ابن أبي عمير، الفرة المصحة في أخبار الدولة الفاطمية ج 6 ص 4)

بن علي بن أحمد المعروف بالخطوفي وأبو سعيد الحسن بن القاسم، حيث زودوا بالوصايا في استمالة القبائل المغربية لدعوتهم و مراعاة الطرز والسنن.

وقد استطاع هذان الداعيان أن يكسبان أناصر في مدن تالة ومرمجة والأريس ونظفة وسكينة ومجدة وسيببة وباخلة، مما أوجد للحركة الفاطمية ركائز سياسية في نضالها في التاريخ اللاحق في هذه المنطقة ومعروف أن أكثر حركات المعارضة العلوية بوجه الأمويين أو العباسيين⁽¹⁾، كان نصيبها الإخفاق ولكن نجاح الأمازيغ الذين يمثلون العلويين من الفرع الحسني شكل إرغاصاً بنجاح فرع الحسينيين الفاطميين في إقامة أكبر دولة علوية في بلاد المغرب الإسلامي هي الدولة الفاطمية⁽²⁾ ولكن قبل أن يتوج نضال الفاطميين بقيام دولتهم استطاعت معارضة العباسيين أن تزرع بذور الحركة الانفصالية التي أبتعت بظهور مجموعة من إمارات المدن و المراكز في المغرب الأوسط والأقصى، التي لم يتج لها التوسع. وبقيت داخل حدودها، ويلاحظ أن أغلبها كان علوي الاتجاه⁽³⁾، ومن المعتقد أنها كانت إرغاصاً مكملاً لما سبقه من أجل النهوض الفاطمي العلوي.

⁽¹⁾ المسعودي، مروج الذهب ج 2 ص 199 ابن الخطابي المغربي في الأدب السلطاني ص 201

⁽²⁾ د. موسى لبال، المصدر السابق ص 198 (أي أن الأمازيغ يرجع نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، والفاطميون إلى الحسين بن علي بن أبي طالب).

⁽³⁾ ومن هذه الإمارات: إمارة هق، قرب المدينة بسيطر عليها الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسن بن علي، و منطقة سبجة (قرونة) وهي مراكز محمد بن جعفر الحسني وبحوض الشلف الذي يشغله تيو الشلف أكبر هذه المراكز حيث توجد فيه مدن ومراكز عدة ومدينة سوق إبراهيم التي كانت تسيطر عليها فرع علوي من بني الحسن أولهم إبراهيم محمد بن سليمان بن عبد الله و إمارة لمطاس في مضارب قبيلة مطاطلة وإمارة اورج وحاملها إبراهيم بن محمد المتزلي والمدينة الصينة وتليها مدينة تلمسان وهي دار مملكة زناتة "ومدينة العلويين وكانت مركزاً لمحمد بن سليمان ومدينة القوس وإمارة تكور لبني سعيد بن صالح و ارشول لبني محمد بن سليمان و جزيرة اشول وهي مراكز حصصين لجأ اليه الطو بون و منهم الحسن بن عيسى بن أبي الجعيل و مدينة ترملة قرب الساعل تلمسان و مدينة حمزة (البيرة) أسست إلى حمزة بن الحسن بن سليمان و مدينة تلمس بالقرب البحر مركز لبني محمد بن محمد بن سليمان ثم الحسن بها إبراهيم بن محمد الخطوبي الذي كتب عنها (التاريخ المغربي، المغرب ص 63 - 88، د. - موسى لبال، المصدر نفسه ص 209 - 213).

ويبدو أن انتهاء الداعيين عبدالله بن علي بن أحمد العلواني وأبي سفيان بن الحصين بن قاسم الثنين أرسلهما الفاطميين بوفاتهما أدى إلى اختيار ما عرفته المصادر باسم "الداعي" وهو الحصين بن أحمد بن محمد بن زكريا الذي يكنى بأبي عبدالله وكانت له ألقاب عدة منها، الصنعقي والمحتشب والمعلم والتصوفي والاحوازي⁽¹⁾ لكي يخل بأرض المغرب ويقود الدعوة الفاطمية بقوة السلاح. يذكر أن ابن عذاري أن أبا عبد الله التقى بعشرة من زعماء قبيلة كتامة في الحجاز واستمالتهم لدعوته واتفق معهم على الرحيل إلى بلاد المغرب ليعين كتامة وبقيّة القبائل المغربية الأخرى مثل عميسة وزاوية ويكون قوة تستطيع أن تثبت أقدامها في هذه البلاد الثانية من نفوذ الخلافة العباسية⁽²⁾.

وتبدأ بحلول أبي عبد الله لبلاد، مرحلة مهمة من مراحل اتصاله ونفسيه للأوضاع والظروف في المنطقة حيث استطاع أن يوحد صفوف قبيلة كتامة للتبويض بأعيان الدعوة الفاطمية من الناحية العسكرية وكان يقول لهم: "إننا لا نعولكم لنفسي وإنما دعوكم لطاعة الإمام المصوم من أهل البيت" ويبدو أن أول قوة يجابهها أبو عبد الله ووطن تحدته لها هم الأغلبية وقد وجاء ما يشير إليه أحد رجاله ليستطلع جلية الأمر لهذا الداعي بعد أن ظهر في مدينة فيكجان "ولما عاد رسول الأمر كانت ردود أبي عبد الله على رسالته تبعث على الخوف وعدم الاطمئنان⁽³⁾ حتى أنه عرف "أنه صاحب قطع دعوته"⁽⁴⁾ وعلى الرغم من أن الأمراء الذين خلفوا إبراهيم بن أحمد قاوموا الحركة الفاطمية بجهود مؤلفة فـ

⁽¹⁾ يذكر المؤرخون أنه لما اتصل بقاء الدعوة الفاطمية عبد الله المهدي ووجد فيه التقاء و التشاطف معه إلى سلك دعوته ثم أرسله إلى مركز تكوين الدعاة الصاعدين في بلاد اليمن حيث يوجد هيسر دعاتها منصور اليمني الذي رجب به ووضح "أن أرضي كتامة موطناً مهيأة لك" ثم أرسله إلى أرض كتامة (اللعان، افتتاح الدعوة، الورقة 27: التويري، نهاية الأرب ج 26 ورقة 25).

⁽²⁾ د. مرسي لقبال، المصدر السابق 128.

⁽³⁾ اللعان، افتتاح الدعوة ورقة 79-80.

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 38-39.

مدن تازروت وميلة وإيجان غير أن الخارطة حلت بأسرة الأغلبية في مدينة الأريس/ حيث فر آخر أمرهم زيادة الله إلى مصر ولكن كان من الممكن أن نشل الحركة الفاطمية ويبند رجالها على يد الأغلبية، لو لم يرتكب زيادة الله هذا بدافع الخوف على نفسه و مركزه جرماً كبيراً بقتله لأخيه أبي عبد الله محمد الملقب بالأحول الذي لابتأت الأحداث عن أهميته لاستمرار نظام الأغلبية وإسارتهم وقد وضح أن اختفائه كان بداية النهاية لأسرة الأغلبية⁽¹⁾

هذه هي الخطوة الأولى التي خطاها أبو عبد الله لغرض الدعوة الفاطمية في ربوع المغرب إما الخطوة التالية التي بدأ ينفذ خيوطها فهي التحركات العسكرية لإسقاط المدن والمناطق ومن ثم الإجهال على الإمارات و الدول الأخرى ففي 289 هـ بدأت الأعمال العسكرية المنظمة فأتجهت صوب مدن الأغلبية لاحتلالها وكانت موقعة كبتوته التي لصالح الجيوش الفاطمية، قد وضعت نهاية لمقاومة جنية من الأغلبية و سهلت تقدم الفاطميين مدن سطيف وبلزمة وباغاية وقرطاجنة و تيمسه والقصرين في إقليم قمودة ثم الاستيلاء على قسنطينة وتيجي وقصة ومن ثم دخلت جيوشهم مدينة الأريس مما أتاح لهم لاحتلال مدينة رقادة حيث تمت تصفية إمارة الأغلبية بالزحف النهائي على القيروان فترأى لأبي عبد الله أنه لم يتبقى أمامه سوى النهايات لاستحكام حلفاء سيطرته التامة على أهم بلد من بلدان المغرب فكتب إلى سيده عبيد الله المهدي يحثه على القدوم إلى هذه البلاد فحل هذا الأخير متخفياً إلى مدينة سلجاسة عاصمة بني مدرار حيث أكرمه أميرها التيسع بن مدرار⁽²⁾ ولعل اختياره للإقامة في سلجاسة كان بسبب إنها إمارة مستقلة سياسياً ومذهبياً عن العباسيين وخلفائهم الأغلبية غير أن وصول الجيوش الفاطمية إلى مشارف سلجاسة لإرغام أميرها على الخضوع جعل هذا الأمير يأمر بالتضييق على عبيد الله المهدي ووضعه في سجن الفردي "سجن المطبق"

(1) د. لغزال ، المصدر السابق ص 263 .

(2) ابن الأثير ، الكامل ج 8 ص 14 ، ابن خلدون ، المعراج 4 ص 70 .

وتعرض ألقابه ومرافقيه للتعذيب مما ترتب عليه أحكام القاطميين السيطرة على سلجماسية وهروب الأمير ورجاله ليلاً في مجاهل الصحراء وعندئذ تم تحرير عبد الله المهدي وأصبحت سلجماسية في إطار النفوذ الفاطمي.

وتوجه رأس الدعاة الفاطميين عبيد الله المهدي إلى رقادة عن طريق ابنكجان⁽¹⁾ وبذلك يمكن القول أن قيام الدولة الفاطمية يبدأ بدخول هذا الأخير مدبنة رقادة سنة 296 هـ كما يمثل ذلك بداية لظهوره بعد استناره في قيادة الحركة السياسية الفاطمية علنياً بمساعدة قائد جيوشه وداعيته أبي عبد الله والظاهر أن الفاطميين كانوا يعملون على اتخاذ رقادة قاعدة لدولتهم ومنطلقاً لجيوشهم بعد سقوط إمارة الأغلبية وذلك للتوثب على القبائل المناوئة لهم وتصفية القوى السياسية التي ما تزال تنشط بالبقاء في المنطقة وقد اتخذ عبد الله المهدي جملة من الإجراءات بعد نزوله في قصر الصحن ومقابلاته لوفود الفقهاء ووجوه أهل القيروان الذين دعوا له وهنأوه وأظهروا له السرور بأيامه وسألوه تجديد الأمان لهم⁽²⁾ وتعمل من أهم الإجراءات التي اتخذها لقب " المهدي أمير المؤمنين " واصطلاح وجوه جديدة من رجاله بإسناد ومناصب مهمة لهم في الدولة مثل الإشراف على بيت المال وفضاء رقادة و ديوان الكتبة وديوان الخراج و المجلبة والتعيين على منطقة قابس وإثبات الموالى وإنشاء العبيد في ديوان العطاء وضرب سكة⁽³⁾.

غير أن فرار عبد الله المهدي بتصفيته قائد جيوشه ومؤسس دولته أبي عبد الله يمثل مرحلة جديدة للدولة الفاطمية الفتية حيث عمد إلى تجريده من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم القضاء عليهم تدريجياً والإجهال عليه واغتياله بخطة أعدائها مع

⁽¹⁾ الحسن ، المصدر السابق الورقة 179.

⁽²⁾ ابن خلدون ، المصدر السابق 158.

⁽³⁾ م ن ص 158 - 160.

رجاله وحاشيته والمقرئين من أنصار أبي عبد الله ⁽¹⁾ ويبدو أن من بين الأسباب التي دفعت عبد الله المهدي للتخلص من أكثر رجاله وأخلصهم له ما يزعم بالتطابق أبي عبيد الله وأخيه أحمد أبي العباس علي تحريض قبيلة قتامة وقبائل المغرب ضده والظعن في خلافته سرا وهو ما أشار إليه ابن خلدون حيث "دعا الناس إلى خلعه والقول أنه ليس الإمام المعصوم، فقال فيه المهدي أنه مفسد للهيبة" ⁽²⁾

وقد أثار مقتل أبي عبد الله وأخيه ⁽³⁾ مشكلات بوجه الدولة الفاطمية، ربما هي في غنى عنها في هذه الفترة الحرجة التي كانت تجتازها، حيث أظهرت بعض

⁽¹⁾ ذكر بن عذاري أن عبد الله المهدي أمر عروبة بن يوسف الطوسي وجير بن نجيب العبلي، أن يكمن خلف قصر الحسن - فبما مر أبو عبد الله وأخوه أبو العباس فظهرهما بالرماح حتى بدوتا قلنسوا هناك مع جماعة من قتامة وبعث عبيد الله المهدي في أبي عبد الله وأبي العباس ليحضرا طعامه على جاري عائلتهما معه - فلما مرا بالموضع الذي فيه الثمين فخرج عروبة عليهما فاصحاح أبو عبيد الله بعروبة - لا تغلب يا ولدي - فقال له عروبة - أرسني فقتلك من أمرت الناس بطاعته و التفت له من الملك بعد نطقه - ثم طعنه بده طعنه وأعداه من منها صريعا ووقعت في أبي العباس سبع عشرة طعنة و مكنا صريعين علي صف الطعير المعروف بالشحر إلى ما بعد الظهر ثم أمر عبيد الله بفلقهما السدفا في الجبل و قال عبيد الله ارحمك الله أبا عبد الله و جازاك في الأثرة بقديم مسجك و لا رحمك الله أما العباس فذلك صمدته من السبيل و أوردته موارد الهلاك - (البيان المغرب ج 1 ص 164)

⁽²⁾ جاء أن أبا عبد الله حدث رؤسائه قتامة علي استعاله، وذكروا أن شيئا منهم جاء إليه و قال له - قلنا بأية علي أمرك فقد شغلنا بك - فقتله المهدي علي الفور (العرج ج 4 ص 76).

⁽³⁾ وكتب عبيد الله المهدي إلى أنصاره في المشرق - أما بعد فقد علمتم معي أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام فاستقر لهما الشيطان فظهرتهما بالسيف والسم - ابن عذاري المصدر السابق ص 165) و يزوي هذا المورخ ما يدل على استمالة المغربيين من أبي عبد الله لأعيانه قائلا: إن أبا عبد الله قام يوما بمحاضرة اسمعية و خلفه جماعة من دعاة قتامة فتحرك في نومه فالتفت سؤته فظهر بعضهم إلى بعض - ولم يقدموا أن يسأروه بعد عروبة بن يوسف بده إلى الملحقة التي كانت عليه فشره بها و اتبه أبو عبد الله قائلا - من سألني إذا التفتت ؟ فقلوا له عروبة فقال - هو و ات فاستي - فجهل عروبة بكنى بين يديه و يقول له - يا سيدي: مر بقتلي فقال له - لا سبيل إلى ذلك - فذلك والله فاستي فعلن الأمر كما ذكر.

يطلقون كرامة الخلفاء علي عبيد الله المهدي ⁽¹⁾ وإقيام مجموعة من كهراء أهل القروان بمعارضة سياسته وديروا له مؤامرة لاغتياله ⁽²⁾ وثورة أهل طرابلس علي عامل الفاطميين ⁽³⁾.

وعلي الرغم من أن الفاطميين استطاعوا إخماد الثورات والقن هذه ولكن كان عليهم أن يواجهوا اعتمادات المستقبل المشحون بالأخطار و نزر الشر و مصاعب الحرب الحقيقية سواء في ميادين القتال ضد الإمارات و القبائل المعارضة أو في الحواضر و المدن المغربية الكبرى حيث كانت تضم فئات و عناصر معادية و مخالفة لهم مذهبياً، ويذهب الدكتور موسى لقبال إلي أن التحول الذي شهدته الحركة الفاطمية من دعابة سرية لتلك أخصار منطوعين و حشد من الدعاة التاريخية إلي نظام دولة تقليدية مستقرة لها رتبس وموظفون رسميون وتقاليد ورسوم جديدة، أن هذا التحول فرض وضعاً جديداً لأخصار الدولة من القبائل المغربية و بخاصة قبيلة كرامة، وأدي ي إلى حدوث تشقق خطير بين بناء الدولة وأخص رجالها وإلي تصدع في صلب عقيدتهم ⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر نفسه ص 165 - 166.

⁽²⁾ ومن هؤلاء المتأمرين: محمد بن أبي سعيد الملقب بصلب السوي، و عبد الله بن محمد المعروف بابن القديم و محمد بن أبي رجال الباقلي و أبي الوهب عمرو بن زُرارة العبدي (م. ن ص 167)

⁽³⁾ ينظر في خلدون، إلى أهل طرابلس أغلقوا أبواب المدينة و قتلوا من كان داخلها من كتبة و قسموا علي أنفسهم محمد بن إسحق المعروف بابن القرنين، ففُرج إليهم عبيد الله المهدي جيشاً و حاربهم شهراً، و أضر أيضاً خروج أبي القاسم بن عبيد الله لمحاربة طرابلس فوجه إليها خمسة عشر ركبا حربية قتلوا ووصلت إلى طرابلس انفرجوا إليها من بينهم فخرقوا الأسطول و قتلوا من فيه و سار أبو القاسم في البحر نحو طرابلس فأوقع بأهل هوارة ثم نزل طرابلس فحاربها و حاصرها حتى أطلقوا التهمة فخرجوا إلي أبي القاسم في الأمانة بأنهم إلا ثلاثة أناس الشرط لتحكم قبهم و هم : محمد بن إسحاق القرشي و محمد بن نصر و رجل يعرف بالحوجة فدخل طرابلس و تمكن فيها سنة 308 هـ (م - ن ص 167 - 169).

⁽⁴⁾ دور كرامة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 332.

المهدية و استكمال قيام الدولة الفاطمية:

بعد الإطاحة بأبي عبد الله شرع عبيد الله المهدي بالترتيب موضع لتأسيس عاصمة له لابد من القيروان، ليتخذها " عدة للشدة " ⁽¹⁾ ولكي " تعصم بها القواطم ساعة من نهار " ⁽²⁾ فكان عبيد الله المهدي قد بدأ النظر فيها واستكمل فيها سنة 300 هـ و استكمل سورها سنة 305 هـ و تم الانتقال إليها سنة 308 هـ ⁽³⁾ عندئذ قال : " أتممت اليوم على القواطم " ⁽⁴⁾ ويوضح ابن عذري " أنه في سنة 300 هـ خرج عبيد الله من مدينة رقادة مارا بتونس وفرطجة ونواحي البحر لرفع اختياره على جزيرة جمة فابتدأ بنائها واتخذها دار مملكته وهي التي تسمى المهدية ⁽⁵⁾.

ومهما تكن البواعث لبناء الفاطميين مدينة المهدية وجبهة إلى حد ما يبقى ما أشار إليه البكري يستأثر بالاهتمام حول النوايا التي كان يضررها أبو عبد الله و أنصاره من قبيلة كتامة للإيقاع بعبيد الله المهدي و خلعه ⁽⁶⁾ على حذرهم هذا الأخير، يدل عليه ثورة الكتاميين في مدينة القيروان ⁽⁷⁾ أما مدينة رقادة التي ولدت فيها الدولة الفاطمية و سلطتها و مؤسساتها فإنها على ما يبدو لا تصلح لتطلعات المستقبل الذي ربما يحمل بين ثنائه الحاجة إلى قاعدة عسكرية يمكن الاعتماد عليها في التوسع صوب مصر أو الأندلس حيث استكثر بها من العدة والخصرين ⁽⁸⁾ أو الاحتماء بها من الغزاة و الظالمين و الظالمين و جعلها مواقع مواجهات

⁽¹⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 56.

⁽²⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

⁽³⁾ البكري، المصدر السابق ص 25 - 30.

⁽⁴⁾ ابن خلدون، المصدر نفسه ص 80.

⁽⁵⁾ البيان المغرب ص 169.

⁽⁶⁾ م. ن. ص 30.

⁽⁷⁾ وكذلك ما أشار إليه عذري عن ثورة الكتاميين في القيروان حيث قاموا على أنفسهم حداثا اسمه قاتوا من معارك يعرف بالملطي و رجعوا أنه المهدي الملقب (م. ن. ص 164).

⁽⁸⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 50.

قوية و صاعدة أمامهم أو جعلها مركز انطلاق لإخماد أعدائه أو تصارعه في
الأمس من الكتائبين.

حرص الفاطميون بجعل عاصمتهم الجديدة المهدية ميناءً بحرياً وعسكرياً ومن
ثم تجازيا لذلك لغتاروا موضعها في جزيرة متصلة بالبر " كصورة كسف التصلت
بزنڊ ^(١١) والبحر قد أحاط بها من ثلاث جهات ويمكن الدخول إليها من الجانب
الغربي، ^(١٢) وكان لها بابان من الحديد لا يفتح فيهما وقد نُقش عليهما تخطيطات
لرسوم الحيوانات ^(١٣) حيث تلقى هاتان البوابتان فيحكم تحصينها و يصعب الدخول
إليها أماماً وخلفاً.

أما مرسى السفن في المدينة فهو منقور في صخر صلد يبعد ثلاثين مركباً من
المراكب القائمة من الإسكندرية أو الشام أو صقلية أو الأندلس وقد حصن هذا
المرسى بسلسلة من الحديد لمنع أساطيل البيزنطيين من الاقتراب إليها وجعل في
المدخل الوحيد على المدينة ستة عشر برجاً للرصد والمراقبة، كما أقيمت دار
صناعة السفن على غرار مدينة تونس وهي رصيف ترسو فيه السفن يبعد أكثر
من مائتي مركب، و فيها قبوان كبيران طويلان يغطي المراكب الراسية أو الجائئة
بعد تصنيعها و آلاتها فيقيها من الشمس و المطر ^(١٤).

ويذكر ابن عشاري الاستخدامات الحربية في المهدية بقوله: " و بها دار صنعة
الإنشاء العجيبة، و يخرج الجفن معوراً من خلف السور فلا يعلم به حتى يفلجاً
القاصد فيحيط به فلا يفرها العدو لأجل ذلك ^(١٥).

إن تعلق الفاطميين إلى مصر والاستمواذ عليها بات يشغلهم فبحوا للأمر حثه
باتخاذ عاصمتهم في شبه جزيرة قريباً من تونس ووسوسة وصفائق وقلصه،
وهي مراكز بحرية مهمة ترتبط بخطوط التجارة البحرية مع الإسكندرية، لكي يتاح

^(١١) ابن خلدون، المصدر السابق ص 79.

^(١٢) البكري، المصدر السابق ص 75.

^(١٣) م. ن. ص 79.

^(١٤) البكري، المصدر السابق ص 79.

^(١٥) ابن عشاري، المصدر السابق ص 207.

لهم تحقيق أهدافهم التوسعية في مصر على المدى البعيد من جهة والاعتماد على أسطولهم في حماية عاصمتهم وتموينها عن طريق البحر إبان الأزمات من جهة أخرى فضلا عما يترتب عليه من مكاسب سياسية و عسكرية في بلاد المغرب الإسلامي عامة.

ويخيل إلينا، أنه باقتمال بناء المهدي حسيما خطط لها عبيد الله المهدي بهذا الإطار برزت الدولة الفاطمية، دولة مقتررة استطاعت بأمد ليس بالقصير أن تنفذ أهدافها البعيدة التي رسمتها أو في التوسع أو إخضاع الإمارات والدول في المنطقة وفيما يتعلق بالأندلس التي كان للفاطميين فيها مطامع توسعية فلم يكن من المستطاع تحقيقها حيث برز لهم حكام الأندلس وهم يذّبون عن بلادهم تدخلات الفاطميين وتحركاتهم في شئونهم الداخلية ومنعهم من التقرب إلى سرائرهم بل درج هؤلاء الحكام على الاجترار على مناطق الفاطميين في بلاد المغرب وأخذوا يتجاوزونهم في غر دارهم مما أوقع عبيد الله المهدي باستحالة إسقاط الحكم الأموي هناك كما يتعذر القيام بالعمليات العسكرية ضدهم فلجأهم إلى تكرار محاولاتهم إلى مصر للمرة الثالثة حيث نكّل بالنجاح في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله سنة 358 هـ⁽¹⁾

⁽¹⁾ م. د. ص 228.

علاقات الدولة الفاطمية السياسية

(في نطاق المغرب الإسلامي)

الفاطميون و دولة بني العباس:

يمثل قيام الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي وسيطرتها على مصر فيما بعد منعكفا في التاريخ الإسلامي حيث شهدت حكما يقوم نظام الخلافة بغية تعدي القوى والعناصر السياسية و تكتيصى نفوذهما ومن ثم الإجهاز عليها أن لم يكن في جميع أنحاء العالم الإسلامي ففي بلاد المغرب في الأكل.

وكان العباسيون ينظرون إلى محاولات الفاطميين بزور نفوذهم في بلاد المغرب وإقامة دولتهم هناك على أنها تحد سائر لنفوذ القولة العباسية الروحي والسياسي يجب بالأنظمة التي تدين لهم بالاتبعة وفي مقدمتها إمارة الأغلبية وحث رعاياهم على الوقوف صفا واحدا وراء هؤلاء المطيعين لأمر المؤمنين لقتال: "عدو الله الخارجي" النجم بأطراف نواحي المغرب وأقصاه من قتاسه أشياع الضلال و أوباش الجهال والباغين في الفتن لتطرفهم وأسوتهم على غيرهم من المسلمين و إشاعتهم الفرقة والانفصال في المنطقة⁽¹⁾

لقد شعر العباسيون بخطر الفاطميين الحقيقي ليس بالاستحواذ على بلاد المغرب فحسب و إنما على جميع البلاد الإسلامية فأرادوا يعملون على تحشيد جميع المؤمنين بقضية الخلافة العباسية و رسومها الدينية والسياسية والعسكرية و لكنهم في حقيقة الأمر كانوا بذلك يعملون مشاعر فائرة تجاه الخلافة التي سادت ظروفها في المشرق بسبب نشاط الحركات المضادة و تسلط العنصر التركي و هيمنته على مفاصلها و حتى أننا لم نسمع عن اهتمام الخلافة العباسية بالتصدي للخطر الفاطمي بعدما أصيب الأغلبية بالهزيمة و السقوط.

⁽¹⁾ انظر موضوع "الأغلبية ودولة بني العباس" من هذا الكتاب ص ٥٨٨ رقم .

جزيرة صقلية بين الفاطميين والعباسيين:

كان من المفروض أن تؤول صقلية إلى النفوذ الفاطمي بعد سقوط الأغلبية لكننا نقرأ أن تحركا عباسيا ضد إجراءات الفاطميين بإرسال وإيهم الحسن بن أحمد بن علي بن أبي المنهال، وهو تحريك عملاتهم في الجزيرة وتحريضهم ضد السلطة الجديدة التي لم تواجه باثني مقاومة في بداية الأمر، مما اضطر الفاطميين إلى تعيين وال آخر هو بن عمر البايي سنة 299 هـ الذي نشط في الوقوف ضد حركة المقاومة التي ثمرت بانتفاضة ضد الفاطميين و لم تمض إلا فترة قصيرة حتى ظهرت بوادر و اتجاهات للثورة التي كان بغذبا العباسيون بموافقة الخليفة المعتز بالله و بقايا أسرة بني الأغلب في الجزيرة.

حيث ألت بالإطاحة بالوالي الفاطمي وأعدت الخطبة و الدعوة للعباسيين ويذكر بن عذاري إن أهل صقلية قدموا علي أنفسهم أحمد بن زيادة الله بن قرقب سنة 300 هـ وكتب الخليفة المعتز بالله ببغداد بأن يكون 11 داعيا لهم وقتما بأمر هلا بجزيرة صقلية فانفذ المعتز ذلك لهم وبعض لهم بالوية سود وخلق سود وطوى ذهب⁽¹⁾ مما جعله يستمر في الثورة ضد الفاطميين.

وقلت المناوشات بين الفاطميين و العباسيين من أجل السيادة في جزيرة صقلية حتى سنة 336 هـ، إذا ولي الفاطميون بعد فرض سيطرتهم التامة عليها وإبعاد أي فكر للنفوذ العباسي عنها، فوالي الحسن بن علي بن أبي الحصن الكلبي الذي أصبح رأس أسرة عربية جديدة في صقلية هي أسرة الكلبيين التي استمرت حتى الاجتياح التورماني للجزيرة في نهاية القرن الخامس الهجري.

ويبدو لنا، أن التناقص بين القوي والمجموعات الإسلامية الكبرى وبخاصة بين الدولتين الفاطمية والعباسية حول توسيع مناطق النفوذ والسيطرة المباشرة وتخريب المصالح و طغيان الطموح كان علي حساب المجموعات الصغيرة في صقلية مما جعلها فريسة للفوضى وفقدان الأمن الأمر الذي أودى بضياعها

⁽¹⁾ البيان المغرب ج 1 ص 168.

وإتصلاتها نهائيا عن البلاد الإسلامية ومن المبالغة القول أن سياسة الفاطميين وحدها هي المسؤولة عن ذلك، بل يمكن تحميل العباسيين أيضا قسطاً كبيراً من عدم الشعور بالمسئولية عن تفريق القوى الإسلامية وبعثتها والحفاظ على البلدان التي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من العالم الإسلامي وخاصة جزيرة صقلية حيث كانت مركزاً للحضارة والعلم ومصدراً لإشعاعات الثقافة الإسلامية، وقد احتلت شهرة واسعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي طوال الحكم العربي فيها وبعدة بقرون عدة فأنجبت العديد من العلماء والفقهاء والشعراء ذاع صيوتهم وانتشر أثرهم.

تنظلم الفاطميون نحو مصر:

أن سعى الفاطميين ليستولوا على مصر ومناطق بلاد الشام والحجاز لا يشكل لديهم تكتيكا سياسيا وعسكريا أبداً فحسب بل هدفاً من أهدافهم الاستراتيجية في تعيد طريق المشرق أمامهم وذلك على الرغم من أن الخلافة العباسية وقتها كانت تحتك شيئا من القوة والنفوذ، حيث كانت لعل السيطرة على ولايتي الشام والحجاز.

لقد توضح التخطيط الفاطمي بالتقدم نحو طرابلس وبرقة ومحافظة ولاية مصر العباسيين لتهميد الطريق نحو مصر، لذلك حول الفاطميون على قاعدتي طرابلس وبرقة اللتان كان لهما أهمية كبيرة في الوصول إلى الإسكندرية لأحدهما من المراكز الأساسية الغربية من مصر كما وصفتا بأنهما باب مصر وينبغي على الفاطميين ولوجها ولكن قبل ذلك إرسال الخليفة القائم بأمر الله الفاطمي كتابا لاستمالة محمد بن طلح الأختشيدي الذي كان يحكم مصر ليتهون عليه مسألة الانفصال عن العباسيين⁽¹⁾ وكان هذا الأخير أن يستجيب لمضمونه لولا تأثير مستشاريه وأعوانه الذين عدلوه عن الخطية للفاطميين مما حدا بالخليفة المعز لدين الله الفاطمي بتبني سياسة أباءه وأجداده فيما يتعلق بالتعرض إلى البلاد المصرية ونتيجة لذلك لم يشأ الفاطميون إلا أن يرغموا العباسيين على التراجع حيث أسقط بأيديهم إذ رأوا تقدم

⁽¹⁾ ابن سعيد المغربي، المغرب في خلا المغرب ج 1 ص 175.

الجيوش الفاطمية نحو مصر يفوقها أبو الحسن جوهر بن عبد الله الصقلي⁽¹⁾ حيث دخلت مدينة الإسكندرية دون مقاومة ثم تقدمت نحو مدينة القسطنطين وفرضت سيطرتها على المدينة بالرغم من المقاومة التي أبدتها الإخشيديون⁽²⁾ وقطع الفاطميون بذلك الخطية للخليفة العباسي المطيع لله والدعوة للمعز لدين الله الفاطمي ولآبائه في المسجد الحبيب و إزالة شعور العباسيين، واستهلت دار الضرب نشاطها بسك دنانير جيدة العيار⁽³⁾ نكش عليها تاريخ الفتح واسم المعز لدين الله وشعار الفاطميين⁽⁴⁾ وزاد الفاطميون بالتحاذ مصر مقرا لدولتهم بتأسيس مدينة القاهرة سنة (346) هـ وجعلوها

عاصمة لهم⁽⁵⁾، أما القيروان أو المهدية فلم تكونا متصلحا حاضرتين لدولة الفاطميين الكبرى لما يستدعيه اتخاذ العاصمة في موضع يسهل معه التواصل مع

(1) وهو من مسلمي صقلية و قد عرف بالرومي ولكن الغالب الصقلي لأن صقلية أصبحت بلاد إسلامية ينسب إليها (انظر ترجمته في أبي الفدا المعتمد في أعيان البشر ج3 ص115 بالقول: معجم البلدان ج6 ص372، وما كتبه عن جوهر الصقلي الدكتور موسى لطاف خور كلمة ص483) .
(2) ابن عذري - من ص228، ابن الخطيب - من ص58-59 المغربي اعطاء الحنفا بذكر أئمة الحنفا ، ص147،
(3) تزيد فيها نسبة معدن الذهب عن المعدن الأخرى المسبوكة.

(4) وشعارهم ينطق (علي أفضل الوحيين وزير خير المرسلين) المغربي المصدر السابق ج1 ص115-116، الطبري، نهاية الأرب ج26 ص41.

(5) لاحتطها القائد جوهر الصقلي سنة 358 هـ، وتقع في السهل الرملی الممتد لى شمال شرق القسطنطين بعدها من الشرق جبل المعظم و من الغرب ترعة التخليق المتفرعة من النيل. وكان لها سور سميك يمر قوله فارسان جنباً إلى جنب وإلى الوسط لحظة قصر المعز والجامع الأزهر وأطلق عليها اسم "المنصورة" ثمناً بمدينة المنصورة (مصرية) التي بناها المنصور والد المعز لدين الله بجوار القيروان و بقيت هذه التسمية حتى جاء المعز إلى مصر سنة 362 هـ فأسماها القاهرة تذكراً لأنها ستظهر الخلافة العباسية وكانت القاهرة التي في بدايتها مدينة بالقاعدة العسكرية فلم يسمح ببنائها أو التحويل إليها دون إذن خاص. وقلت كذلك حتى أولفر عهد الخليفة المستنصر الفاطمي (القرن الخامس الهجرى) عندما أعرفت مدينة القسطنطين لقتل أهلها إلى القاهرة، أما اصطلاح (القاهرة المحروسة) ربما يأتي من عزلتها و حراستها القوية فضلاً عن أسوارها المنيعه (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 48 - 49 هامش رقم 4).

ومن ثم بدأ الفاطميون بتكثيف النفوذ العباسي فتقدموا لاحتلال بلاد الشام واعتبروها قاعدة لحراسة بلاد المغرب ورأس جسر نحو بلاد حاضرة العباسيين وكذلك نحو بلاد الحجاز حيث أرسل المعز لدين الله الفاطمي إلى الحسن بن جعفر الحسني - بتقليد الحرم وإعماله⁽²⁾، ولكن مع ذلك فقد أصبحت الخلافة العباسية هي القوة الوحيدة التي كانت تهيمن روحياً و سياسياً على العالم الإسلامي وذلك على الرغم من أن قوة جديدة تمثلته بالخلافة الفاطمية التي سيطرت على أجزاء كبيرة من العالم الإسلامي.

الفاطميون وأمويو الأندلس:

تعددت العلاقات بين الفاطميين وأمويي الأندلس طابعاً عدوانياً فقد اتجه الفاطميون منذ قيام دولتهم في المغرب إلى تحقيق أهدافهم التوسعية نحو بلاد الأندلس التي تتوافر فيها الثروات وتتمتع بالاستقرار، فاشروا دعائهم وعيولهم لاستطلاع أحوال البلاد السياسية والعسكرية والتعرف على دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية زودوا عبيد الله المهدي بكثير من المعلومات عن أحوال الأندلس السياسية والإدارية ويبدو أن الفاطميين لم يكتفوا لك بل اتخذوها الخطوات العملية في تحدي أمويي الأندلس والتعرش بهم فضلاً عن إظهار قوتهم في أقصى بلاد العدو فحاصروا سبتة، القاعدة الحصينة للأمويين ومركزهم المهم في الاتصال بزعماء المغرب إدارة الريف و الانطلاق نحو مراكز النفوذ الأموي في هذه البلاد.

أما إجراءات الأمويين في علاقاتهم مع الفاطميين، فيقترب عليها طابع الدفاع عن كياناتهم السياسية ضد تحديات الفاطميين الذي اتخذ موقفهم طابع الهجوم ومن وسائل الأمويين في التعامل ضد خصومهم الفاطميين اتخاذ لقب الخلافة والاحتساب إمارة المؤمنين لتوجيه عواطف المسلمين في المغرب والأندلس وذلك لعزلهم وتحتيد نفوذهم الديني والسياسي فضلاً عن جهود الأمويين في جذب أنصار الفاطميين وولائهم بمختلف الأعراف ودعم حركات المعارضة والثورات وتبليسي

⁽¹⁾ د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 112 - 113.

⁽²⁾ ابن عسار، ج ١ ص 231 ابن الخطيب، ج ١ ص 58، المغري، ج ١ ص 120، ابن الأثير، ج ١ ص 112.

العملاء و الصنائع والخارجين عليهم وتزويدهم بالأموال والسلاح، كما يعثوا عيوناً ورقباءاً ووسطاء في جهات كثيرة من المغرب لئلا الأفكار المضادة للنفوذ الفاطمي وأغلبهم كان يستتر بالتجارة أو بالزراعة فتمكنوا من تزويد الأمويين بمعلومات عن نزول أهل الأندلس الذين كانوا قد توطنوا المغرب منذ القرن الثالث الهجري، وكذلك التجأ الأمويون إلى التشهير بالفاطميين وطرده العناصر المشبوهة من الأندلس والتضييق عليهم وقتل من تظاهر بالعودة للفاطميين، لما لم يتورع الأمويون من استعمال سلاح القرصنة للقضاء على القوة البحرية لأعدائهم الفاطميين، حيث اهتموا بدور صناعة السفن والعراك في مدن طركونه والعربة والجزيرة الخضراء ومالقة وميورقة ولقنت وشلب، فانشأوا أسطولاً قوياً ينزاع سلطنة الفاطميين في البحر المتوسط، استطاع هذا الأسطول الاستيلاء على طنجة ومبلة سنة 314 هـ في حركة الوليد بن هشام الذي ادعى الانتماء لبني أمية واستبد بشلون برفعة وجعل هدفه مصر وكان أعوانه من قبائل لواتة وزنتة كما أن أنصاره في مصر، عرباً من بني قرّة وفي التاريخ تلاحق للفاطميين أي بعد عبد الله المهدي اعتمدوا وسائلهم الجديدة في الصراع مع الأمويين وأجداها هو التشهير والظعن بماضي الأمويين وموقفهم من القوى الإسلامية فكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يصف أعدائه الأمويين بالمتغلبين⁽¹⁾، والقاهر أن هذه الحملة من التشهير ضد الأمويين قد أظهرت حركة معادية استهدفت الإطاحة بحكمهم وقد انتشرت هذه الحركة التي كان يقودها شخص قرطبي يسمى أبا الخير فداعي في مدن الأندلس، قرطبة والزهراء وسائر الكور، غير أن الأمويين استطاعوا تحجيم الحركة ومن ثم القضاء عليها.

ولعل من المفيد أن نذكر أن كلا الطرفين استخدمتا قوى سياسية لاستعداداتها ضد الطرف الآخر، وكان الأندلس قد لعبوا هذا الدور بكونهم صنائع وأعدوان تارة للفاطميين وطوراً للأمويين ولكن تسخيرهم بهذا الاتجاه لم يخدم وجودهم بل عجل بنهايتهم وسقوط إماراتهم سياسياً وعسكرياً⁽²⁾.

⁽¹⁾ كان المعز لدين الله الفاطمي يصف الأمويين أمام من يعرض مجلسه بالوصف القوي لسياسة لاستعداداتها ضد شأنهم (انظر للاستزادة د. موسى القبال، المصدر السابق ص 382

⁽²⁾ السكاوي، الاستعصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج 1 ص 369.

الفصل التاسع

دولة المرابطين

- 1- أصل المرابطين
- 2- مراكز عاصمة المرابطين
- 3- المرابطون و الخلافة العباسية

دولة المرابطين

(448 - 541 هـ / 1056 - 1147 م)

أصل المرابطين:

يجمع المؤرخون على أن أصل المرابطين من قبائل صنهاجة التلثم الجنوبية الضاربة في الصحراء الموريتانية، و بطونها، لمتونة وجداله ومسولة، وقد تحالفت هذه البطون لتواجه ظروف المغرب الإسلامي، وكانت لمتونة قد تسولي رئاسة هذه القبائل وسيطرت عليها، فبرز من بين رجالها محمد بن نيلات التمطي ⁽¹⁾ ليفود قبائل صنهاجة غير أنه قتل، فتولت جدالة الرئاسة ممثلة بـ يحيى بن إبراهيم الجدالي ⁽²⁾ الذي سعى إلى طلب العلم الدينية في مدارس القيروان و فاس فتعرف هناك على شخصية ⁽³⁾ وحاج بن زشلوا التمطي الذي ندب أحد تلامذته وهو عبد الله بن ياسين الجزولي ⁽⁴⁾ لتلقيه قبائل صنهاجة، و هناك في مضارب لمتونة شرع هذا الأخير في التقفيف و الإرشاد إلى أصول الدين و فروعه و لكن ولادة يحيى بن إبراهيم الجدالي دفعت هذه القبائل إلى الانصراف عن الأحكام و الحدود التي كان قد وضعها لهم عبد الله بن ياسين حيث ثقلت عليهم و طأنه فبرموا بدعوته الإصلاحية الأخلاقية التي كانت تدعوا إلى رابع المنكرات واجتساب المحنورات ⁽⁵⁾.

اتجه عبد الله بن ياسين إلى بلاد السودان، على بعد أنصاراً له هناك و قد صحبه سبعة من رجال صنهاجة اتخذوا لهم موطئاً في ريوه من الأرض تحيط بها المياه من جهاتها الأربع، ولم يلبث أن أسس رباطاً ⁽⁶⁾ والرباط من المرابطة أي

⁽¹⁾ بن الخطيب، المصدر السابق ص 226.

⁽²⁾ م. ن ص 227.

⁽³⁾ ابن أبي زرع، الأيس المطرب ص 76، بن الخطيب م. ن ص 226.

⁽⁴⁾ بن الخطيب م. ن ص 227.

ملازمة الثغور للجهات حيث تباطئ خيل المجاهدين اجتمع له فيها نحو ألف رجل معاهم المرابطون ⁽¹⁾ انقصوا له وأطاعوه واستطاع أن يحولهم من مجرد رعاة جذاة إلى طبقة من المحاربين المؤمنين برسالتهم في الإسلام ويكون منهم ومن غيرهم الذين التحقوا به جيشاً جعل على قيادته صاحبه يحيى بن عمر ⁽²⁾ وهو من قبيلة التمتونيين الصنهاجة وتطلقت قوات المرابطين نحو المغرب الأقصى وسرعان ما خضعت لهم قبائل لغتونه ومسوفة وجدالة ولمطة وغيرها من قبائل صنهاجة الضاربة في الشمال حتى درعت التي يقول عنها ابن الخطيب أنها تكرب من سبعين قبيلة ⁽³⁾ ثم اتجهوا نحو درعة سنة 445 هـ في إعداد ضخمة وهزموا جيوش مغاوة وصاحب سجلماسة ودرعة ودخلوا مدينة سلجماسة كما نشطوا في محاربة قبيلة زناتة وهي من كيريات القبائل في مناطق تافيلت فانضمت اليهم قبلتها جزولة ولمطة واستطاعوا الاستيلاء على بلاد السوسي سنة 448 هـ، واسترداد واحة درعة والتوغل في أحوارها ولجئازهم الأطلس الغربي واحتلال بلاد جدميورة.

وواصل المرابطون تقدمهم فتطقت جيوشهم الكثيفة مدينة أغمات وما حولها سنة 445 هـ ثم تدفقا على بلاد المساعدة وحاربوا قبيلة برطواطة في إقليم تاسينا والريف الغربي وكان من نتيجة هذه المعارك أن قتل عبد الله بن ياسين سنة 450 هـ وذكر ابن الخطيب أن قائد المرابطين هذا جمع أصحابه وحشهم على الوحدة واتعاسك قبل أن يموت ⁽⁴⁾ وقد تولى يوسف بن تاشفين التمتوني أمر

⁽¹⁾ وعرفوا أيضا "التمتير" لأنهم كانوا يصنعون قلما يلهمهم هجرة الصحراء وبردها و يورد ابن الأثير رواية عن القائد التمتونيين، القائد "سنة" و "عدوا لا يربطونه ليلا ونهارا حتى لا يعرف الشيخ من الشهاب" (الشهاب ج 9 ص 223) ثم افترقا ضمن إمرائهم حين، نازح الإسلام و السياسي و الديني و التقاضي ج 4 ص 115 هامش (3).

⁽²⁾ وهو ابن عم عبد الله بن ياسين الذي قتل في هذه المعارك و حلفه أخوه أبو بكر من عمر الذي التحق يوسف بن تاشفين قائدا من قومه.

⁽³⁾ ابن الخطيب- المصدر السابق ص 225.

⁽⁴⁾ أعمال الإخاء ص 230.

جيوش المرابطين⁽¹⁾ وبدأ يزحف به نحو المغرب الأقصى فاحتل مدينة فاس سنة 454 هـ وراح يتجول بأطراف المغرب ثم عمد إلى تأسيس مدينة مراكش لتكون عاصمة للمرابطين ومنطلقاً لهم ومركزاً لقواتهم في جنوب المغرب بدلاً من مدينة أغادير.

وسمي يوسف بن تاشفين إلى تمويه الأوضاع لصالحه وتقلده بحكم المرابطين فيروي ابن الخطيب أن زوجة يوسف بن تاشفين، أشارت عليه أن يستبد بأسر عمه أبي بكر بن عمر الذي كان قد اختاره قائداً في جيوشه، فإلتفت به بالأموال والطعام والكساء وورد إلى الصحراء التي خرج منها نفعاً ذلك ومضى أبو بكر بن عمر إلى الصحراء سنة 465 هـ حيث قتل هناك في إحدى معاركه في بلاد السودان سنة 480 هـ⁽²⁾ وبذلك برز يوسف بن تاشفين أميراً أو أحد دولته المرابطين.

مراكش عاصمة المرابطين⁽³⁾

يمكن القول أن تأسيس مدينة مراكش⁽⁴⁾ كان بمثابة حلول مرحلة جديدة في بلاد المغرب خاصة وفي العالم الإسلامي حيث أصبحت من مراكز الثقافة والعلم

⁽¹⁾ علي أكر الشلق الذي حدث بين قبليتي لغونة و مسوفا ببلاد الصحراء. رأي أبو بكر ابن عمر، ضرورة وجوده إلى جانبهم في الصحراء ليصلح بينهما، لعهده إلى ابن أبيه يوسف بن تاشفين لقيادة الجيوش و قتاله قبيلة زنقة الصراغة (ابن الخطيب المصدر السابق ص 232).

⁽²⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 233.

⁽³⁾ مراكش اسم مشتق من مراكش وتعني ابن عرش والعرش بالبربرية مطافاة الأسود وإلما سميت نسبة إلى عبد أسود كان يقيم في موضعها ويخيف المرأة اسمه مراكش لما تعطي مراكش عبارة أمشي مسرعا في لغة المصاعدة لأن موضعها كان مائي المصومس والقطاع الطريق وكان المسافرون يقولون تراقشهم هذه العبارة عند مرورهم بهذا الموضع (عبد الواحد المراكشي، المعجم في تشخيص أخبار المغرب ص 100، ابن خلكان، وفیات الأعيان ج 5 ص 90) و مراكش مدينة عظيمة في المغرب الأقصى على سطح جبل الأطلس الكبير ويمر في شمالها نهر تاشفين و تمتاز بقصوبة تربتها الحمراء وجودة مناخها ومنازلها الخلابة حيث توجد فيها غابات النخل الطعراء وبجوارها التواج البيضاء على قسم جبل الأطلسي وقد تحلقت عظمها أثناء الموحدين التي التوتوها هم أيضا عاصمة إمبراطوريتهم الواسعة وركزوا فيها مآثرهم وأصبحت مسجد القنينة ومسجده المشهورة (ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234 مع هامش رقم 1).

والسياسة وحاضرة لدولة المرابطين الكبرى ولعبت دوراً كبيراً في توجيه الأحداث السياسية والعسكرية فضلاً عن نفوذها الديني والفكري حيث كانت دولة المرابطين تستند قوة دينية مطلقة وعلى الرغم من الاختلاف المؤرخين في تعيين إختطاط المدينة فإن الإجماع على بنائها كان في سنة 454 هـ إذ تم الانتهاء منها سنة 459 هـ ⁽¹⁾ وكان تأسيسها علي يد يوسف بن تاشفين.

" فاستوطنها الناس بعد أن تملك أرضها بالشراء ⁽²⁾ وبوضع المؤرخ ابن أبي زرع ذلك، أن يوسف بن تاشفين، اشترى موضع مراكش من جماعة المصامدة لمكان الموضع بخيام من الشعر وأسس مسجدها الجامع وقصبة صغيرة لحزن أمواله وسلاحه ⁽³⁾ وتكر أمير المرابطين نفسه كان يعمل في الطين والبناء مع الخدم والقطعة لتشييد المسجد والظاهر أنه لم يؤسس سوراً حول المدينة ولكنه نشط بحفر الآبار وجلب المياه إليها غير أن ابنه علي بن يوسف ابتنى سور المدينة سنة 526 هـ وجعل لهذا السور أبواب عدة منها باب أغصت و باب دكالة و باب الدباغين و باب الصالحة و باب الضريعة.

ومن المفيد القول، أن مراكش بقيت تحافظ علي سمعتها العامة كقاعدة عسكرية لقوات المرابطين حتى دخلتها جيوش الموحدين، فقاموا فيها الدور و اتخذت القصور وجلبت إليها المياه من أغصت لسقيها بمائتها و يشير صاحب كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار إلى أن مراكش " ارتقت أيام الموحدين فاجتمعت فيها المنشآت العظيمة و أمهرت بمختلف أنواع المعاني ومنها البيمارستان (المستشفى) الذي وصف بأنه أعظم ما أقيم في العالم الإسلامي و قد سمي بـ (دار الفرج) ويقع في شرق الجامع " يدخله العليل فيعالج ما أعده فيه من العسكرة والمياه

⁽¹⁾ لم يشر الفري الذي كان معاصراً إلى تاريخ بنائها سنة 454 هـ ذلك يذهب بعض المؤرخين أن تأسيسها كان سنة 462 هـ و إلا ما ذات أن يشير إلى ذلك

⁽²⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 234.

⁽³⁾ الألبن المطرب في بعض النسخ ص 369.

والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفروقة ويستطعمهما ويستغنيهما فتنتعه من حينه بقدرة الله تعالى .⁽¹⁾

لقد ساهم وجود مراكش إلى حد كبير في تدعيم مركز المرابطين و لغوذهم في المغرب الإسلامي وأوجد لهم مركز انطلاق لإخضاع بعض القبائل مثل غمارة وغياثة وبني مكنود و مغاوة، كما تم لهم الاستيلاء على مليلة ووجدة و بلاد بني سنان وعلى تلمسان و تلمسي و وهران و جبل و الشريفي⁽²⁾ وبعد أن أتم يوسف بن تاشفين اعتواء الأندلس في معركة الألفاة الشهيرة ضد جيوش الممالك الأيبانية الشمالية⁽³⁾ ، أصبحت مراكش عاصمة لغطرين هما المغرب و الأندلس

علي أن دولة المرابطين، بعد وفاة يوسف بن تاشفين سنة 500 هـ و تولي ابنه علي، كانت في أوج قوتها، إذ أصبحت إمبراطورية كبرى تمتد من بجاية شرقاً إلى الموسي غرباً ومن السودان جنوباً إلى سرقسطة واثغر الأعلى في الأندلس شمالاً وكانت مراكش مركزاً للحكم و انطلاق الجيوش. غير أن حكام المرابطين بدأوا يفقدون قوتهم بعد انخساعهم في الفرف و الرقابة و الرقة بسبب فقدانهم لخشونتهم رجال حرب، فضلاً عن سيادة الثقافة الأندلسية في مراكش التي تسربت إليها من الأندلس حيث خلقت كثيراً من جفونهم فندهورت جيوشهم وأصبحت لا تقوى على قمع الثورات و الاضطرابات و التمردات المستمرة في بلاد المغرب و الأندلس، إضافة إلى ما تعرضوا إليه من الضربات العنيفة التي كانت تسدها لهم الممالك الأيبانية الشمالية، مما أدى إلى استنزاف قواهم و قضى على مواردهم هناك و قد خذلهم أهل الأندلس لما طلب المرابطون معونتهم للمداية و البشرية فتحولوا عنهم و طردوا و لاتهم فبدأت علامات الضعف تدب في جسم دولتهم و بخاصة بعد وفاة علي بن يوسف بن تاشفين و تولي ابنه تاشفين، حيث

⁽¹⁾ مجهول، ص 210.

⁽²⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 381.

⁽³⁾ د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ج 2 ص 723، د. محمد إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 119، د. محمد مختار الحادي ، في تاريخ المغرب و الأندلس ص 303.

تولت على هذا الأخير الهزائم في المغرب على أيدي قوة جديدة هم الموحدون، وبعد وفاة تاشفين بن علي بن يوسف سنة 539 هـ انطلقت ثورات الأندلسيين بوجه المرابطين⁽¹⁾.

ولعل من أسباب ضعف دولة المرابطين وانهيارها، هو العامل الديني المرابط الفقهاء المرابطين الذين لم يولوا دراسة الحديث، الاهتمام ما يستحقه فهم لا يرجعون إلى الأصول لاستنباط الأحكام، وإنما بالأحداث العجموعة في كتب الفروع، الأمر الذي جعلهم يبتعدون عن علم أصول الفقه الذي تستنبط بمقتضاء الأحكام الشرعية، كما اتخذ المرابطون "فلسفة التجسيم" وهي الالتزام بالآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها ذكر صفات الله، النص الحرفي لها، مما يلضي إلى تجسيم للذات الإلهية وإلى إثبات نظرية لصفات جسمانية لله تعالى، فضلا عما أثارته قراءة كتاب إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي في بلاد المغرب من موجة من الغضب لدى فقهاء المرابطين، حيث أن الغزالي كان قد فضح فيه تزعم هؤلاء الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحصولهم على المناصب الدنيوية مما اضطر الأمير علي بن يوسف علي حرق كتب الغزالي علي باب مدينة مراكش نتيجة لضغط الفقهاء عليه، حيث أثار هذا الإجراء أهل المغرب فدفعهم إلى تأييد ثورة المهدي بن تومرت زعيم الموحدين .

⁽¹⁾ مجهول، كتاب الحلال الموشية في فكر الأئمة المرابطينة ص 63.

المرابطون والخلافة العباسية:

تشير المعلومات المتوفرة لدينا، إلى أن العلاقات بين المرابطين و خلفاء بني العباس قد اتخذت طابعاً ودياً، حيث لم يشأ يوسف تاشفين أن يتلقب بألقاب الخلافة اعتقاراً لمنازلتهم الروحية، و قد علل أمير المرابطين عدم تلقيه بأمر المؤمنين و هو ما يختص به الخلفاء العباسيون عندما طالبه بعض أصحابه بذلك قائلاً: "حاشا لله أن تسمى بهذا الاسم أما خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة و لأهم ملوك الحرمين و المدينة و أنا راجلهم و قائم بدعوتهم"⁽¹⁾

لقد استخدم المرابطون، السواد، وهو شعار العباسيين، شعاراً لهم في ملابسهم و أعلامهم. و تلقب يوسف بن تاشفين، بلقب "أمير المسلمين" و "ناصر الدين" منذ سنة 468 هـ، حتى إن ابن عذاري يذكر صراحة، أن يوسف بن تاشفين "كان يخطب لبني العباس، وهو أول من تسمى بأمر المؤمنين"⁽²⁾ وبخاصة بعد انتصاره في معركة "الذلاقة" التي حاولت الممالك الأسيانية الشمالية أن تقوض الحكم العربي الإسلامي في الأندلس، وبعد إسقاطه ملوك الطوائف الذين كفروا بالحكم هناك وكتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه الخلع والإعلان السود والتقليد فلم يعترض الخليفة على ذلك و لعل من مظاهر توطيد العلاقات مع الخلافة العباسية، أن المرابطين نقلوا اسمهم على السكة وذلك منذ سنة 450 هـ إلى جانب اسم "عبد الله" الذي ورد في الرسالة التي بعث بها الخليفة المستظهر بالله إلى علي بن يوسف بن تاشفين، على أن اسم هذا الخليفة هو أحمد⁽³⁾.

⁽¹⁾ كتاب الحل الموسوية ص 68.

⁽²⁾ قامت حول هذا القبط شجة شرعية و هي: هل يجوز لخطباء المساجد أن يدعوا يوسف بن تاشفين باعتباره أميراً للمسلمين ؟ على أن هذا الأمر لم يصرح للخطباء بطلبه إلا بعد أن أرسل بعض من الفقهاء إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله ، يستأذنه في حواله حمل هذا القبط فلم ير الخليفة بدا من عرض هذا الأمر على فقهاء بغداد الذين ائتمروا برأيه أتمام إلى حادثة الخزانة سنة 484 و أقصوا باستحقاق يوسف بن تاشفين لهذا القبط (ابن عذاري المتصفح المسالك ج 4 ص 124 - د حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام ج 4 ص 313.

⁽³⁾ ابن الأثير، الكامل ج 10 ص 81.

ويزيدنا ابن الأثير توضيحاً، من أن العلماء خاطبوا يوسف بن تاشفين لئلا يوردته من بلاد الأندلس منتصراً وبخوله مراکش حاضرة ملكه، بأن طاعته ليست واجبة حتى يذكر اسم الخليفة في الخطبة و يأتيه عنه تقليد بالقراره فأرسل رسالته إلى بغداد فأتاه التقليد مع الخلع والأعلام ونُقب بلقب " أمير المسلمين وناصر الدين " وبعضى هذا المؤرخ قائلًا، أن يوسف بن تاشفين لما استولى على بلاد الأندلس جميع الفقهاء وأحسن إليهم، فقالوا له: " ينبغي أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على الكافة، فأرسل إلى الخليفة رسولاً يحمل هداياه و معه كتاب يذكر فيه ما فتح الله عليه من بلاد الفرنجة ويطلب منه تقليداً بولاية الأندلس التي دانت له، فبعث إليه الخليفة، التقليد بالحكم و لقبه " أمير المسلمين وأرسل إليه الخلع ⁽¹⁾ وهكذا تقدم لنا هذه المعلومات، الصلات القوية التي كانت تربط الخلافة العباسية بالمعربين طوال مدة حكمهم للمغرب الإسلامي والأندلس التي استغرقت قرناً من الزمن تقريباً.

(1) م. ذ. ص 87.

الفصل العاشر

دولة الموحدين

1- تمهيد

2- علاقات الموحدين بالخلافة العباسية

دولة الموحدين

(541 - 646 هـ / 1143 - 1248 م)

تمهيد:

أورث أبو عبد الله محمد بن تومرت الهرغي (485/ 524 هـ) وهو مؤسس الدعوة فقيهاً في جماعة، أفكاره وآراءه في التوحيد الذي هو رأس أركان الإيمان في الإسلام وسرّ الطائفة الإيعانية الذي هو علم الاعتقاد وحسب عرف مريدوه وأنصاره وجميع من آمن بدعوته بالموحدين، لأنهم أول من تحدث بهذه الآراء في بلاد المغرب، وقد أصبحوا، بعد وقت وجيز من سريان الدعوة، القوة التي أعلنت الثورة على المرابطين إذ بدأوها منذ سنة 514 هـ وسرعان ما تحولت حركتهم الدينية⁽¹⁾ إلى حركة سياسية لإسقاط دولة المرابطين وإقامة دولتهم على أنقاضها.

خاض محمد بن تومرت مباركة عدة ضد المرابطين، تكبد هؤلاء فيها هزائم مثالية وتوالت انتصارات الموحدين، فكان من نتيجتها أن وجه محمد بن تومرت رسالة إلى المرابطين يدعوهم فيها إلى طاعته وينذرهم بمسقطهم إذا لم يستجيبوا، وقد أورد صاحب الحلل الموشية نص هذه الرسالة بقوله "...وكلنا بنا هذا إليكم أعمار وأنذار، وقد أخطر من أخطر⁽²⁾ وبعد لنا أبو بكر الصنهاجي المعروف بالمتقي، الموافق بين المرابطين والموحدين، ويقول إنها طاعت ثمان غزوات متوالية⁽³⁾، الأمر الذي أتاح للموحدين أن يسيطروا سيطرتهم المطلقة على منطقة

⁽¹⁾ قامت فكرة الموحدين على أساس 'الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر' ووجوب الاعتقاد في استئاء الأخلاق على القرآن والسنة دون غيرها، وموافقة مذهب أبي الحسن الأشعري سوى مسألة الصفات، فذهبوا للفراة المعتزلة في نفيها

⁽²⁾ مجهول من 81

⁽³⁾ كتاب أخبار المهدي بن تومرت وإنشاء دولة الموحدين من 74 - 78

السوس. وفي سنة 518 هـ سار محمد بن تومرت بقواته نحو منطقة " إيمتل " (1) الصغيرة التي تقع فوق ربوة عالية في سفح جبل درن وهو أحد شعاب جبال الأطلس، المشرفة على مراكش بمسافة لا تزيد عن المائة كيلومتراً واتخذها داراً ومسكراً وقاعدة للاطلاق، وبدأ يرهب عن كثب، المرابطين وتحركاتهم حتى سنة 520 هـ، حيث بادى إلى تنفيذ خطة الهجوم على نطاق واسع فأرسل جيشاً ضخماً من الموحدين بقيادة أبي محمد البشير، وقد تلقى هذا الجيش بجيوش المرابطين التي هزمت وجمت الموحدين في مطاردتهم، غير أن أكبر المعارك التي خاضها الموحدون ضد أعدائهم، هي التي وضع خطتها محمد بن تومرت سنة 524 هـ، حيث انقضت إلى المخول في مراكش، ولكن المرابطين استعانوا منهم في السنة التالية.

لقد تأهب محمد بن تومرت للمعركة الفاصلة وجمع أنصاره وعساكره ووجه إليهم رسالة يحثهم فيها بإنهاء المرابطين الذين سماهم باسم " المشركين " أو المعسكين " أو " الزراجنة " (2) وجعل قنديه المعتمدين أبا محمد البشير وعبد المؤمن بن علي في مقدمة جيوشه، وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالمرابطين في البداية، لكن الموحدين لم يستطيعوا أن يدخلوا مراكش مما جعلهم يعيدون للمعركة أخرى زاعوا فيها ضغوطهم وهزموا المرابطين ثم زحفوا نحو مراكش ورابطوا أمام أسوارها وأبوابها واستمروا في حصارها وبدأت المناوشات بين الطرفين، كان المرابطون يهزمون فيها في كل مرة، ومع ذلك فإن الموحدين لم يستطيعوا أن يصنعوا نهاية للمرابطين الذين استنفروا سائر أمراء القبائل

(1) يكتسبها بالقوت " عين مقل " ويقول أنها جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يستلها الجور بين أو ثلثها ومراكش مرور ملك إلى عبد المؤمن بن علي بها كان أول خروج محمد بن تومرت بإعجم البلدان ج 2 ص 445.

(2) تشبها لهم بظاهر الزحاح وهو أسود البصر أبيض الريش، فالمرابطون باعتكده بعض القباب سود القلوب (الجبال العوشية ص 86) بظر محمد عبد الله علل، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس / القسم الثاني ص 183

المغربية الموالية لهم وولاتها وقادتها، فوافظهم بالعساكر والحشود وكان من نتيجة ذلك أن وقعت بين الطرفين أكبر معركة هي معركة البحيرة هُزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر فادحة، إذ قُتل منهم عدد كبير ولم ينج من عساكرهم إلا أربعمائة بين فارس وراجل وسقط بين القتلى أبو محمد البشير أكبر قادتهم وقتل معه معظم الرؤساء والقادة ومنهم الأصحاب العشرة لمحمد بن تومرت⁽¹⁾.

وفي 524 هـ توفي محمد بن تومرت على أثر هزيمة جيوشه أمام المرابطين فخلفه عبد المؤمن بن علي، الرياسة ولعل توليه أمر الموحديين يمثل مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين المرابطين والموحدين وبداية تحول في تاريخ الموحديين. ينتمي عبد المؤمن بن علي إلى قبيلة (كومية) وهي بطن من بطون قبيلة زناتة وقد استطاع أن يضع الأسس المتينة لدولة الموحديين، فقد قضى عامًا ونصف العام بعد توليه خلافة محمد بن تومرت، ينظم شؤون الموحديين ويحشددهم ويستأمرهم لجهاد المرابطين، وقد عباً سنة 526 هـ جيوشاً جراراً وسار به لمنازلة المرابطين فأخضع أغلب أقاليم دولة المرابطين لمسلطته، وذلك خلال السنوات من 526 - 540 هـ حيث جرت معارك محلية بينهما، كان النصر فيها دائماً للموحدين، وفي نهاية عام 540 هـ لم يكن ثمة شك في غلبة دولة المرابطين وسلطانهم في المغرب الأوسط والشمالي حيث بسط الموحدون نفوذهم على سائر القواعد الجنوبية للمرابطين، فيما عدا مراکش وبعض الثغور الشمالية ولكن بدأ واضحاً أن دولة المرابطين راحت تتلقى الضربات المتتالية فتضعفها وتبدد قواها خلال تلك المعارك، وفي الوقت الذي بدأ الموحدون يقتربون من مدينة فاس للاستيلاء عليها، شعروا المرابطون بحاجة الموقف، وبعد استكمال الموحديين الانتشار في مدينة فاس سنة 540 هـ استعدوا للدخول إلى مراکش والقاهر أنه لا يمكن تحقيق ذلك إلا بإخضاع قبيلة مقتتة التي تحصنت في مدينة مكناصة التي أبقي الموحدون الحصار مضروباً حولها، ثم اتجهوا إلى مناطق أزموور وهي ريوخ قبيلة صنهاجة فاستولوا عليها ثم انضمت قبيلة دكالة إليهم واحتلوا جبل إجليز

⁽¹⁾ انظر الموشيه ص 89، ابن أبي رزق، التكميل المطرب ص 114، ابن الأثير الكامل ج 10 ص 205

الذي يشرف على مراكزه وبذلك حكموا الحصار حولها وعقد أول لقاء بين الطرفين هُزم جيش المرابطين وتمكن جند الموحدون من تسليق أسوار مراكزهم واقتحموها وعندها سقط آخر معقل للمرابطين و زالت دولتهم سنة 541 هـ ⁽¹⁾ كما انتهت حكم أسرته بمقتل إسحق بن علي بن تاشفين آخر أمراءهم على يد الموحدين ⁽²⁾.

وبدأ الموحدون عهداً جديداً في مدينة مراکش إذ اتخذوها حاضرة لهم فأنشأوا عليها إصلاحات كثيرة وبنوا فيها مسجدهم الجامع وأنشأوا جلب المياه إليها وصنعوا أسبقيات لها بقرب دار الحجر ⁽³⁾. وفي 542 قدم علي عبد المؤمن بن علي وفد من أهل أنشبية رفعوا إليه البيعة ، مكتوبة بخطوطهم فأستحسن خليفة الموحدون موقفهم وقبل طاعتهم وكان لذلك أثره في نفوس الموحدون وإيثارهم لأنشبية بالتفادها حاضرة للأندلس في عهدهم .

والظاهر أن الموحدون بعد ربع قرن تقريباً من انحوائهم للأندلس لم يسعهم السيطرة على مقاليد حكمهم في الإقليمين المغرب والأندلس وبخاصة بعد تحالف الممالك الأسبانية الشمالية ضدهم ونقض القشتاليين للهدنة القائمة بينهم التي عقدت سنة 607 هـ إبان عبور الموحدون إلى الأندلس ومحاصرتهم للمدن والحصون في بلاد قشتالة، لذلك تراخت همهم في المحافظة على مكان دولتهم، فاندلعت ضدهم ثورات خطيرة هددت نفوذهم وزعزعت سلطتهم الدينية والسياسية وسقطت بأيدي الثوار بلاد تانسنا وبلاد المصامدة وهاجت قبائل حاحة ورجرجة وهزيرة وهكسورة ودكالة، وعلى الرغم من أن الموحدون استطاعوا في مرحلتهم الأخيرة أن يخمدا هذه الثورات وينفذوا حكمهم من السقوط ولكن معركة " العلب " بينهم وبين جيوش الممالك الأسبانية الشمالية جاءت لتضع حدا لدولة الموحدون ليس فقط في الأندلس وإنما في المغرب الإسلامي، حيث توجهت كتائب الموحدون

⁽¹⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ج 4 ص 108، ابن خلدون، المصدر السابق ج 6 ص 232

⁽²⁾ البينقي، أخبار المهدي بن تومرت ص 104

⁽³⁾ أحمد ضوحي مراکش أنظر الأندلس، نزعة المشرق ص 68 ، 69 .

وعسكرهم إلى طنجة عاصمة بلاد فشتالة لمواجهة حشود هؤلاء الصليبيين هناك سنة 609 هـ / 1212م حيث اشبكوا بمعركة أسمنتها المصادر الفشتالية "لاس نافلس تولوسا" التي أطلق عليها المؤرخون المسلمون "العقاب" فهزمت جيوش الموحدية على أثرها وتقدمت الجيوش الأسبانية الشمالية المتحالفة إلى المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب فاستولوا على باثيوس وكاسترد فرات وتولوسا وبيلاسة وبسطة ثم عانت بعض قلاع الموحدية إلى تشبيلة وعبرت مضيق جبل طارق إلى مراكش مما وضع نهاية انهيار دولة الموحدية بعد هذه المعركة.

وبوفاة آخر أمراءهم محمد الناصر انتهى دورهم في بلاد الأندلس بعد سقوط أنشبية بأيدي الأسبان غير أن دولتهم استمرت في المغرب حتى سنة 668 هـ وهي السنة التي قتل فيها آخر حاكم مرهدي نصب من قبل المرينيين، أمام أسوار مراكش حيث استولى الخراب والدمار على معظم ديارهم ودخل ورشتم بنو مرين إلى مراكش وبدأت مرحلة جديدة بولادة الدولة المرينية في بلاد المغرب الإسلامي.

علاقات الموحدين بالخلافة العباسية :

يرى الموحدون أحقيتهم في لقب الخلافة الإسلامية لأنهم على حد زعمهم أكثر المسلمين إيماناً وأصحبهم مذهباً، ولما استولى هؤلاء على بلاد الأندلس واستمد نفوذهم من طرابلس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً وحاولوا الاستيلاء على مصر وما يليها من بلاد المشرق الإسلامي. فظهروا وكانهم يتحدون الخلافة العباسية، وقد رآه ذلك القدي وضوحاً عندما أقر محمد بن تومرت عبد المؤمن بن علي قائداً على جيش الموحدين وقال لأتباعه: " أنتم المؤمنون وهذا أميركم ⁽¹⁾ وبهذا لم يجد أتباع محمد بن تومرت حرجاً في أن يلقبوا عبد المؤمن بن علي بلقب "أمير المؤمنين" ⁽²⁾ وهذا اللقب هو من ألقاب الخلافة العباسية وحدها، ولا شك في أن

⁽¹⁾ البرنابسي، المعجب في تخلص أخبار المغرب ص 188

⁽²⁾ اعتبار الموحدين هم خلفاء المسلمين في الأرض والفسلهم التلوذ الروحي والمعنوي في العالم الإسلامي بدلاً من العباسيين

اتخاذ عبد المؤمن بن علي لقب خليفة وتسميته بأمر المؤمنين وإعلان رسوم الخلافة ببلاد المغرب في الوقت الذي أشرقت فيه الخلافة الفاطمية على الزوال في مصر، يقدم صورة عن تدرج العلاقات بين العباسيين والموحدين.

ويذكر أن تغري بردي، أن الخطبة للعباسيين ظلت مستمرة في المغرب حتى سنة 524 هـ / 1129 م وهي السنة التي تولى فيها عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين فقطع الخطبة للخليفة العباسي المعتمد بالله وتلقب بلقب أمير المؤمنين⁽¹⁾ وما مدام المرابطون في حينها قد حرصوا على توطيد علاقاتهم بالخلافة العباسية بصور شتى ومنها عدم التلقب بأنفسهم وضرب السكة بأسمانهم، فإن الموحدين سلكوا طريقاً مغايراً لتنهج المرابطين في علاقاتهم بالخلافة فلم يعترفوا بالتقليد والأعلام السود والشارات التي كان العباسيون يرسلوها للمرابطين سابقاً وقطعوا كل صلة كانت تربطهم بالخلافة العباسية روحياً وسياسياً حتى سقوط دولتهم ولعل من المفيد أن نذكر، أنه على الرغم من سعي صلاح الدين الأيوبي خليفة الفاطميين في مصر لتوطيد العلاقات مع الموحدين بنية الحصول على قطع من الأنسطول البحري الموحدى للاستعانة بها في دفع خطر الصليبيين الذين كانوا يغزون على بلاد الشام والأراضي المقدسة في فلسطين، فإنه أدرك تدرج العلاقات التي كانت تربط الموحدين بالخلفاء العباسيين وحيث كان هو مرتبط بهم روحياً ومصرياً، عندئذ خاطب أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي بلقب " أمير المسلمين " ولم يلغبه بأمر المؤمنين احتراماً للعباسيين لذلك لم يستجب خليفة الموحدين لصلاح الدين الأيوبي ولم يحقق له غرضاً إذ لم يعجبه أن يخاطبه هذا الأخير بهذا اللقب⁽²⁾.

⁽¹⁾ انظر الزاهرة في ملوك مصر والفاخرة ج 5 ص 50 - 51

⁽²⁾ المستوفي، المستقصى أخبار دول المغرب الأقصى ج 2 ص 63

الفصل الحادي عشر

إمارة بني مرين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

- 1- إمارة بني مرين
- 2- سقوط إمارة بني مرين.
- 3- الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي
 - أ - إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط (بلاد الجزائر).
 - ب - إمارة بني حفص في المغرب الأدنى (بلاد ليبيا وتونس).
 - ج - دور المغرب الإسلامي في احتضان العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة.

إمارة بني مرين والإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(1) إمارة بني مرين:

(592-957 هـ/ 1195-1550 م)

كان بنو مرين قادة جيوش الموحدين وولاتهم وعمالهم في البلاد التي تخضع لسيادتهم ابتداء من المغرب الأدنى حتى الحافات النهائية الغربية للمغرب الأقصى وبعد أكثر من مائة عام من حكم الموحدين، بدأ بنو مرين يتعينون الفرصة للانقضاض على حكم الخلفاء الضعفاء الأواخر الذين فقدوا السيطرة على مقدرات دولتهم المترامية الأطراف حيث ظهرت بوادر الانهيار على مؤسساتها الإدارية والمالية والعسكرية وقد أعلن المرينيون استقلالهم على منطقة طنجة وسبتة واعترف أهلها بأبي زكريا الحفصي بالسيادة عليهم كما أقرت بعض مدن الأندلس التي كانت تحت هيمنتهم بالحكم المريني، وبذلك أصبحت هناك قوتان تتنافس إرث الموحدين وهم المرينيون وبني عبد الواد وبخاصة في منطقة المغرب الأقصى، وبمرور الزمن تركّز بنو مرين في حدود المغرب الأقصى والأوسط واستقلّاهما بحكم هاتين الأسرتين قد تم بسهولة لأنهما كانا يحكما هذه البلدان سابقا باسم الموحدين.

ويمكن القول أن قيام دولة بني مرين الحقيقي بدأ منذ أن دخلوا مدينة مراكش حيث تمكن أحد أشرافهم وهو أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من اجتياحها سنة 668 هـ وقد اتخذوها فيما بعد مركزاً لهم بعد أن كانت عاصمة الموحدين وحاضرتهم، وفي عهد هذا الأمير أطلق لأول مرة على دولتهم اسم "دولة المرينية" نسبة إلى مرين الذي ينتسب إلى فرع من فروع قبيلة زناتة، كما أطلق عليها "الدولة الوطاسية" نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مرين، وهو الفرع نفسه الذي حكم هذه الدولة.

وليس من شك في أن بروز اسم المرينيين غلما كان بسبب مساهمتهم الفعالة في معركة الأرك " التي وقعت سنة 591 هـ/ 1195 م بين الموحدين والبلنسيين

من جهة وبين الأسبان القشتاليين من جهة ثانية⁽¹⁾ حيث أبلوا فيها بطلاً حسناً ولكن أصيب خلالها أميرهم محمد بن أبي بكر ومات متأثراً بجراحه فخلّفه على رئاسة القوّة ابنه عبد الحق وكان عهد الأمير عبد الحق يمثل عهد القوة والتوسع، فقد دخل المرينيون جميع بلاد المغرب الأقصى وانتشروا في منطقة الريف سنة 610 هـ مستغلين ضعف خلفاء الموحدين واضطراب الأوضاع السياسية وتراجع الموحدين عن الثغور المتاخمة لتفرنّج والأسبان، وعدم السدّافع عنها، وعلى الرغم من وفوف الخليفة الموحدي يوسف المنتصر بوجه المرينيين وحشده لجيش يناهز العشرين ألف فارس، لكن بني مرين استطاعوا أن يهزموا جيش الموحدين في وادي نكور سنة 613 هـ / 1216م ثم زحفوا نحو مدينة رباط تازي وانتزعوها من الموحدين.

وفي غمرة الانتصارات التي كان يحرزها المرينيون على مواقع الموحدين وجيوشهم حدث انشقاق بين صفوف قوات بني مرين فأخرج جيش منهم بقيادة عسكر بن محمد والتحق في صفوف الموحدين وتحالف معهم بعض عرب العسّري في رباح⁽²⁾، وفي معركة وادي سبو على مقربة من مدينة شافر كانت سنة 614 هـ تفرّق بنو مرين وتكاثّر جيشهم، غير أن بني مرين أقسموا على التآثر وما لبثوا أن انفكوا في معارك عدة مع أعدائهم واستردوا نفوذهم وسلطتهم وخاصة في عهد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق الذي راح يستغل ضعف الموحدين وإخسّال جيوشهم في أكثر مناطق المغرب الإسلامي وأخذ يدعو القبائل إلى السدّخول في طاعته فأعلنت أكثر القبائل⁽³⁾ إسلامها والاحتياز إلى جانبها.

⁽¹⁾ وكان الجيش القشتالي بقيادة الملك ألفونس الثاني، حيث أقيم في محنة الأراك حصداً عرباً بخصم الأراك وقد جرت المعركة قرب المدينة الملقبة وإلى شرق السهل الذي جرت فيه معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479 هـ (بن عطار: البيان ج 3 ص 191، محمد عبد الله طاهر، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 200).

⁽²⁾ ويسمون (عرب رباح) وهم أقوى القبائل العربية في المغرب الإسلامي.

⁽³⁾ ومن القبائل التي انضمت إلى المرينيين، حوارة وزرارة وشول ومغاسبة ويطوبية وفشتالة وسدرانة وبيبلولة ومديونة وفرغوا عليهم المصراع والفراب ووجه إليهم الجياد والعمال، كما أكرم أهل فاس وتازي وأمر إقامة بنّاية ضاربة مغاربة مقابل حمايتها المستعانة إلقاء من غاراته التي كان يشنها عليهم (بن علون، التمر ج 3 ص 198).

وعلى الرغم من إغتيال أبي سعيد بن عثمان بن عبد الحق سنة 618 هـ - كان
المرينيون وصلوا تصديهم للموحدين ومقاتلتهم وتحقيق هدفهم في بسط نفوذهم
وسيطرتهم على جميع المغرب الإسلامي، على عهد معروف بن عبد الحق، استتب
المرينيون مع جيش الموحدين الذي كان يلوذ به - أجبر محمد بن والدين
وقتصروا عليهم بالقرب من مدينة مكناصة غير أن الموحدين بذلوا جهودهم
ونشاطهم في محاربة بني مرين فأعدوا لذلك جيشاً ضخماً مؤلفاً من فرسان عرب
المشرق والمصاعدة وبعض العاصم الرومية والتقى معهم على مقربة من منطقة -
أحواز فاس - حيث أوقفوا الهزيمة في صفوف المرينيين وتفرق جيشهم إلى فلول
منهزمة في منطقة جبل غيلانة⁽¹⁾.

ويمكن القول، أن الثورة المرينية لم تشرف على نهايتها حتى بسطت سيطرتها من
برقة وطرابلس شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى غرباً حيث بدأت نذر الضغط
والانهدام تدب في كيانها المتسع الأرجاء. ولكن قبل أن نأول نجمها يمكن الاعتراف
المرينيين بالفضل في وأولهم مع والاندلسيين والغرناطيين ضد تغيات الأسيان
القشتاليين واعتدلتهم المستمرة على المدن الأندلسية، لذلك وطفوا أنفسهم على
مساعدة إخوانهم فعبروا أربع مرات لتجديتهم مع جيوشهم ومعداتهم وأحزروا
التصر على الجيوش المتحالفة من الأسيان القشتاليين:

- أ - في سنة 591 هـ / 1195م العيور الأول في معرفة الأرك⁽²⁾.
- ب - في سنة 677 هـ / 1278م العيور الثاني محاصرة اشيلية في أراضي قشتالة⁽³⁾.
- ج - في سنة 681 هـ / 1282م العيور الثالث⁽⁴⁾.
- د - في سنة 684 هـ / 1285م العيور الرابع⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ المصدر نفسه ج 4 ص 455 - 457.

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق ص 191.

⁽³⁾ ابن أبي زرع، الفخيرة السنية ص 160.

⁽⁴⁾ المقرئ، أذهار الرياض في أخبار بني ج 1 ص 61.

⁽⁵⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 393، ابن الخطيب، الأمانة في أخبار غرناطة ج 1 ص 563.

جرى اشتباك جيوش المرينيين مع المتحالفين في البر والبحر مما أرغم الفشتاليين على طلب الصلح وعقد هدنة بين الطرفين فوضع المرينيون شروطهم ومنها عدم الاعتداء على الأندلسيين ومسالمة العرب المسلمين من الغرناطيين⁽¹⁾. واستمرت نجدة بني مرين لإخوانهم والأندلسيين فلي سنة 690 هـ / 1291م وجه الأمير أبو يعقوب المريني أسطولاً لمقاتلة الفشتاليين انتصراً لعرب الأندلس، فتوغل الجيش المغربي إلى شريط ثم اجتاز أحواراً شيبيلية ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء فكان لهذا العمل العسكري أثره لدى الفشتاليين، فقد ترك في نفوسهم التوجس والخوف من تكرار مثل هذا الهجوم في المستقبل فحفظوا من ضغوطهم على مملكة غرناطة بل وسعوا إلى مخالفة أمراء بني الأحمر فيها. وهكذا وضع بنو مرين أساساً متيناً للتعاون ونصرة العرب المسلمين الأندلسيين وإبعاد الأخطار المحتملة على مملكة غرناطة طوال مدة حكمهم للمغرب وأسلموا صورة واضحة للتضامن وتقديم العون من أجل المحافظة على السيادة العربية الإسلامية في بلاد الأندلس حتى نهايات القرن التاسع الهجري بسقوط مملكة غرناطة.

سقوط إمارة بني مرين:

يلاحظ بعد وفاة الأمير أبي الحسن علي بن عثمان المريني، سريان الضعف والانحلال في أجهزة الدولة المرينية ومرافقتها ومواسيتها وذلك نتيجة لتولي بعض الأمراء الذين وصفهم المصادر بالضعف وعدم الاكتدار وضيق النظرة ومسألة الشهوات وكثرة النزاعات⁽²⁾، فلم تلبث أن فقدت دولتهم المغرب الأدنى ثم المغرب الأوسط وعادت إلى إطارها وحدودها القديمة، وقد توج استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة 818 هـ / 1415م سقوط المرينيين بل وكان نذيراً ليس فقط لإهيار دولة بني مرين بل وفوق جميع بلاد المغرب الإسلامي تحضت السيطرة

⁽¹⁾ توفى أبو يوسف يعقوب المنصور المريني سنة 685 هـ وكان يتوعد جيش العجور قبل أن يعود إلى المغرب (انظر ابن عذري - المصدر نفسه ص 196).

⁽²⁾ ابن الخطيب، مشاهدات أساق الدين بن الخطيب ص 119.

البرتغالية⁽¹⁾ حيث كان هؤلاء يقنشون عن مناطق نفوذهم في شمال أفريقيا بصورة خاصة وهكذا اختتمت الثورة المرينية عهدا بالإكتصار على مدينة فاس⁽²⁾ حتى سنة 956 هـ / 1544 م حيث سقطت دولتهم بسقوط هذه المدينة على أيدي قوة من "الشرايف المعنيين" .

⁽¹⁾ استولى البرتغاليون وحلفائهم من الفرنج على جزء كبير من ساحل المغرب فاعتكروا "أصبلا" سنة 876 هـ / 1471 م وسألي وأزمور وطلجة سنة 879 هـ / 1476 م

⁽²⁾ حيث ألفت أغورا مراکش وتغلبت ودرعة والموس وبنات الربيع.

الإمارات المحلية في المغرب الإسلامي

(أ) إمارة بني عبد الواد في المغرب الأوسط "بلاد الجزائر"؛

(633-914 هـ / 1235-1508 م)

استقل بنو عبد الواد، وكانوا في الأصل من أمراء القبائل المرحلي التي كانت تجوب صحراء المغرب الأوسط، ضعف الموحدين وعدم سيطرتهم على الحفاظ لقيام دولتهم الناشئة الأرجاء، للسيطرة على بعض المناطق والحصون القريبة من تلمسان التي كانوا يحكموها باسم الموحدين، بل أرادوا تمادياً بإعلان استقلالهم في تلمسان واتخاذها عاصمة لهم سنة 624 هـ / 1227 م وذلك بعد أن أطرح تمادياً دولة الموحدين والظاهر أن الظروف التي أحاطت ببني عبد الواد مكنتهم من تكوين إمارتهم التي شاء لها أن تلعب دوراً مهماً في تاريخ المنطقة، استمرت ما يقرب من ثلاثة قرون، وإن الاستقرار الذي ساد بلاد المغرب، كان أحد العوامل التي ساعدت بني عبد الواد من تكوين سلطتهم ونفوذهم وفرض أنفسهم فرضاً على سكان سواحل المغرب الأوسط، ثم ما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها، وقد لعب يغمرس بن زيان وكان أحد ولاة الموحدين في تلمسان، دوراً كبيراً في تأسيس إمارة بني عبد الواد وإقامتها، فقد سمح للقبائل المنتمية إليهم وأقاربهم وحلفائهم أن يتركوا الصحراء ويستقروا في سهول وهران، لكن يضعوا أمكاناتهم تحت تصرف عامل الموحدين، وكان بنو زيان قد ساهموا مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران فقتلوا نظير ذلك بعض الإمبراطرات، الأمر الذي أدى في نهاية الأمر إلى استقلاله ومجابهة الإخطار المحيطة به من الشرق ومن الغرب.

ومن الأخطار التي كانت تهدد غمارة بني عبد الواد، مجموعة القبائل العربية الشرقية المنتشرة في واديان الساحل الشمالي للمغرب الأوسط، كما إن بني حلفص في تونس هم الآخرون كانوا يشكلون تهديداً دائماً لبني عبد الواد، فقد كان هؤلاء

يحاولون أن يبسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ويضعون بأنهم ورثة الموحدين ومن حقهم أن ينشطوا في هذا المجال. ونتيجة لقوة بني حفص وتأثيراتهم في القبائل المنتشرة في تلك الأصقاع، اضطر يعقرب بن زيان، الاعتراف بسيادة الحفصيين على مناطق واسعة في المغرب الأوسط، فيما كان المرينيون يمتنعون الفرص السالحة للتدخل في المغرب الأوسط والسعي للاستيلاء عليه رغم أنهم فشلوا في اقتحام أسوار تلمسان المنيعه، وتكررت محاولات المرينيين ضد تلمسان في سنة 737 هـ / 1336 م حيث سار أبو الحسن علي بن عثمان إليها وشدها عليها الحصار وأقام معسكراً ثابتاً أمامها ليكون قاعدة لعنبراته العسكرية، ولم تثبت محاولات المرينيين إن أسقطت تلمسان بالفعل سنة 738 هـ، فوسعوا نطاق القاعدة العسكرية التي أقاموها أمام المدينة حتى أصبحت تلمسان مدينة كبيرة أطلق عليها اسم ' المتصورة ' ثم أطلقوا منها ليقضوا على سلطة بني عبد الواد بقتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وعلى الرغم من بقاء تلمسان في حوزة بني مرين أكثر من عشر سنوات من تاريخ سقوطها بأيديهم وبقاتها مركزاً لحكومتهم، فإنها خرجت من نفوذهم، حيث استعادها بني عبد الواد سنة 750 هـ / 1349 م ولكن مع ذلك لم يستطيعوا الاحتفاظ بها، إذ سقطت بيد المرينيين سنة 753 هـ / 1352 م ومع ذلك لم يلبث أحد أمراء بني عبد الواد وهو أبو مسلم إبراهيم بن أبي الحسن أن دخلها واستولى بالأمان عليها سنة 761 هـ / 1359 م وعهد بحكمها إلى أحد أحفاده.

ونظراً خلال هذه الحقبة عن الازدهار الذي أصابته مدينة تلمسان وذلك نتيجة لموقعها الجغرافي ومياهها الجارية وأحاطتها البساتين والجنان، فاستعادت بذلك مجدها القديم وأصبحت مركزاً تجارياً مهما يقصده تجار العالم الإسلامي ومركزاً للقوافل التي تمر بها من تافيلت والسودان، كما أبنى فيها بنو عبد الواد المساجد والقصور والحصار والمتنشات التي اتخذت بمثابة المدارس.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري، فقدت تلمسان استقلالها على أثر اجتياحها من قبل جيوش بني حفص، حيث تغلب الأمير أبو فارس عبد العزيز بن أحمد

الحفصي على أميرها الوثائق بالهد. ومنذ سنة 870 هـ / 1465 م تعرضت للمعاصي إلى حملات الحفصيين العسكرية حتى نجحوا في هدم أسوارها وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت سلطة بني عبد الواد متمسكة، إلى أن ظهر الأسبان على المسرح السيلاني، ففي سنة 914 هـ/1508 م سقطت وهران بيد الغزاة الأسبان ومن ثم سقطت الجزائر. وهكذا أسلمت بلاد بني عبد الواد إلى خير الدين بربروسا ومن ثم أحد فرائصة الأتراك لئلا تقع لقمة سائغة بيد الأسبان، وقد كان ذلك سببها في دخول الأتراك العثمانيين بلاد المغرب الإسلامي.

(ب) إمارة بنو حفص⁽¹⁾ في المغرب الأدنى "نونس"

(625 - 950 هـ / 1227 - 1446 م)

استقل بنو حفص عن كيان دولة الموحدين في عهد أبي زكريا يحيى الحفصي الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لإمارة الحفصيين في تونس حيث استقل بإمارة أفريقية سنة 625 هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله بن أبي محمد أبي حفص⁽²⁾ وعلى الرغم من الأحداث الخطيرة التي رافقت قيام إمارتهم، استلهم حكموا حقبة طويلة بما يقرب من ثلاثة قرون ونصف، أقاموا خلالها علاقات وثيقة مع أهل شرق الأندلس والبيبلية والميرية، وقد أرسلوا إلى أبي زكريا يستعرجونه ويستجدون به ضد الأسبان الفشتالبيين، وكان محمد استجد به عليه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خلف بن قاسم الأنصاري والعلامة الشاعر والمؤرخ أبو عبد الله بن الأبار⁽³⁾ حيث وصل هذا الأخير إلى تونس سنة 635 هـ⁽⁴⁾، فيار الأمير أبو زكريا الحفصي إلى تجهيز أسطول شعبه بالمون والسلاح مكون من ثمانين

⁽¹⁾ ينسب الحفصيون إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو الهنالي من قبيلة هذالة البحر الأبيض المتوسط وكان لأبي حفص حشدة سامية في دولة الموحدين.

⁽²⁾ يبدو أن سبب استقلال أبي زكريا بنونس يرجع إلى ما قام الموحدون من قتل بعض أنصارهم ومريدتهم في مدينة مراكش وبخاصة من هذالة ولينعل (د. السيد عبد العزيز ساج، المغرب الكبير ج 2 ص 875).

⁽³⁾ ابن الأبار الحظ المبرور ج 2 ص 125.

⁽⁴⁾ المغرب، إدهار الرباطي ج 2 ص 500.

عشرة سفينة كبيرة وصغيرة توجهت إلى بلنسيا بصحبة ابن الأبرار ولوفد الأندلسي⁽¹⁾، وعلى الرغم من عدم وصول هذه كنجدة لأهل المدينة ولكنها ظهرت مدى استجابته الحفصيين لأهل الأندلس ووقوفهم إلى جانبهم في محنتهم وجاء ذلك في كتاب "رحلة السراء" لابن الأبرار حيث وصفها كشاهد عيان⁽²⁾.

ونتيجة لتوطيد العلاقات بين الحفصيين والأندلسيين فقد تأثرت بلاد المغرب الأندلسي "تونس" بعوامل الحضارة الأندلسية، حيث فتح أبو زكريا، أبواب بلاده ومدنه للمهاجرين من أهل الأندلس ولخاصة من العلماء والشعراء والفقهاء، وقد بلغ تأثير الأندلس ذروته في الإمارة الحفصية في عهد أبي عبد الله المعتصم بالله خليفة أبي زكريا يحيى الهنتلي. حيث وصف بأنه كان من أعظم بناء هذه الأسرة وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس من العلماء. وقد اشتهى القصور وأقام البساتين على نسق قصور الأندلس واستأنفها، كما توطدت العلاقات التجارية في عهده بين تونس ویرشلونة ومرسيليا وجنوة وبيزا والبندقية وصقلية وأنشأت الفنادق والمنشآت والمباني بتونس، وبعد وفاة أبي زكريا يحيى الهنتلي تعاقب على الحكم عدد من الأمراء لم يستطيعوا الاحتفاظ بثقافة أسرة الحفصيين، مما أدى إلى سريان الضعف والانقسام بين صفوفهم فخرجت بجاية عن طاعتهم واستقل أعداؤهم من المرينيين وبني عبد الواد ذلك فاستطاع الأمير أبو علان المريني تجريدهم من تونس. ولكن في عهد أبي العباس استعادت إمارة الحفصيين بعض نفوذها، ثم قام ابنه أبو فارس بالإغارة بحرا على ماططة وجريه واستولى على تلمسان، لذلك عرفت دولته جانباً من الازدهار والقوة وتمكن كذلك أن يضم الدويلات المستقلة التي نشأت بعد الفوضى والاضطراب التي حلت بالبلاد بعد وفاة أبي أبي زكريا يحيى ففي سنة 801 هـ/1400 م استولى على إمارة توزر وقصصه وفي سنة 805 هـ/1402 م دخلت جيوشه إلى إمارة بسكرة ونجح في سنة 813 هـ/1410 م بالاستيلاء على مدينة الجزائر. وفي عهده أقيمت السفارات من سائر

(1) م. ب. ص. 205.

(2) كتاب رحلة السراء ج 2 ص 27، ابن الخطيب، أصان الأعلام ج 2 ص 273

أنحاء العالم إلى تونس، نهالته وتغلب مودته ومنها سفارة أمير غرناطة وسفارة
 فارس وسفارة مصر. وفي سنة 838 هـ / 1434 م توفي أبو فارس بن أبي
 العباس. فتولى عدد من الأمراء الذين اضيقوا كبلان الإمارة حتى سنة (854 هـ /
 1446 م حيث استطاع أبو عمرو جميع الاضطرابات وقطع الثوار وعمل على إزالة
 ما يحول دون ازدهار الإمارة الحفصية، فعقد المعاهدات التجارية مع فرنسا ومصر
 والاندلس. غير أن هذا الازدهار لم يدم طويلا فبعد وفاة أبي عمرو وعثمان بن أبي
 العباس، تمزقت وحدة الإمارة تحت ضربات الغزو الأسباني انتقاما من الأتراك
 الذين كانوا قد اتخذوا المواعيل التونسية وكرارا لهم وهكذا انتهت نهائيا الإمارة
 الحفصية بانتشار قوات الأتراك العثمانيين لاستكمال سيطرتهم على جميع بلاد
 المغرب الإسلامي.

دور المغرب الإسلامي في استقبال واحتضان العرب المسلمين

المهاجرين بعد سقوط غرناطة 897 هـ / 1491 م⁽¹⁾

تضح أن استيلاء بني مرين على مراكش سنة 668 هـ / 1269 م وإقامة إمارتهم فيها، جعل نشاطهم يتركز في مجالين أولهما بلاد المغرب الأدنى والأوسط ومحاولتهم السيطرة والاحتواء السياسي، وثانيهما نحو بلاد الأندلس ومملكة غرناطة بصورة خاصة وسعيهم على إيجاد أهل الأندلس علماً ومساعدة بني نصر أصحاب غرناطة ضد القشتاليين والأسيان المتربصين بهم، وقد درج بنو مرين على هذه السياسة بعد أن تركز وجودهم في المغرب واستحوذهم على مختلفات دولة الموحدين، ففي عهد الأمير يعقوب بن عبد الحق سنة 668 هـ، خرج بنو مرين بجيش من فاس متجهاً إلى الأندلس فاكسحوا الفخوص والزروع والبساتين والوديان لتهديد القشتاليين وإشعارهم بقوة حلفائهم من بني نصر⁽²⁾ بل وتركوا فرقاً دائمة في الأندلس للترابطة على الثغور الأندلسية متفرعة لرد الأسبان القشتاليين وحلفائهم، وتظاهر أن موافق المرينيين هذا كان له أهمية بالغة في الحفاظ على الأندلس وعلى مملكة غرناطة، وفي سنة 673 هـ أرسل هذا الأمير جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل ليقوده الأمير نفسه وعند مدينة لسته، اشتبك مع جيش القشتاليين الذي كان يقوده الدون فوينودي لارا⁽³⁾ حيث هُزم القشتاليون واندهرت جيوشهم.

⁽¹⁾ وهم الذين يرجع نسبهم إلى سعد بن عباد الأندلسي، أحد قبايل الصنهاج، ومن رجالهم ورواسيهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خنيس بن نصر بن قيس الطازجي (د. عبد الرحمن عني الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

⁽²⁾ وهم الذين يرجع نسبهم إلى سعد بن عباد الأندلسي، أحد قبايل الصنهاج، ومن رجالهم ورواسيهم في عهد بني مرين ابن الأحمر وهو: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خنيس بن نصر بن قيس الطازجي (د. عبد الرحمن عني الحجي، التاريخ الأندلسي ص 516)

⁽³⁾ تنقل عليه المصادر الأندلسية اسم "لثة أو لثونة" (ابن الخطيب، الأحياء في مشار غرناطة ج 1 ص 565، ابن خلدون، المعر ص 370، المغربي، فتح المغرب ج 1 ص 449)

ولكن بعد سقوط غرناطة سنة 897 هـ / 1491 م، لم ينجح الإمارات والدويلات في المغرب الإسلامي أن تحول دون ذلك ولكنها بدأت تستقبل من يضطر على الهجرة وهم أفواج من العرب المسلمين من مختلف المزارع والطبقات منهم العلماء والفقهاء والشعراء وطلبة الفقه والرؤساء والأمراء. وأول من عبر إلى المغرب أبو عبد الله محمد سلطان غرناطة وذلك بعد سقوط مملكته حيث ارتحل مع عياله وأمر بالجواز إلى الحدة الأندلسية وأعدت له المراكب حيث ركب معه كثير من المسلمين ونزلوا في مليلة من ريف المغرب ثم ارتحلوا إلى مدينة فاس⁽¹⁾.

ومن العلماء الذين ارتحلوا من الأندلس القاضي الشهير أبو عبد الله بن الأرق الذي استقر في تلمسان والفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن الحدة الشهير بالوادى أشي والفقيه أبو الحسن البفتي⁽²⁾، ثم استمرت أفواج العابرين إلى المغرب تتوالى وخصوصا بعد أن نقض ملوك قشتالة عهودهم ومواثيقهم في الصلح التي أبرمت مع سكان غرناطة واستطالوا عليهم وفرضت عليهم المغارم الثقيلة وأجبروا على الخروج إلى الأرياض والقرى وأخذت منهم أملاكهم ومعاقلهم وانقرعت أسلحتهم⁽³⁾.

وفي سنة 981 هـ/ 1573 م أزمع أهل تلمسان والجزائر على تكبير حملة بحرية لمهاجمة (المرسى الكبير) في مياه بلنسية بغاوتهم العرب هناك، لذلك باشرت السلطات القشتالية إلى نزاع سلاح العرب في بلنسية، وعلى الرغم من فشل هذه الحملة التي استهدفت غنات إخوانهم من الاضطهاد والتصف ولكنّها كانت بداية لمحاولات أخرى على هذا الطريق، وقد وضعت الأسس لغارات مستمرة على الشواطئ الأندلسية لغرض الانتقام للأندلس الشهيدة⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ الطري، زمار أرياض في أخبار عباس ج 3 ص 67

⁽²⁾ م. ن. ص 71 - 72

⁽³⁾ الطري، المصدر نفسه ص 69 - 70

⁽⁴⁾ محمد عبد الله حزان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين، ص 367

واستقرت هذه الغارات طوال القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي، ويشير المعري وهو معاصر لهذه الأحداث إلى أن هذه الغارات قد انطلقت من المغرب منتظمة في جيش الأسير ومستهدفة جهه العدو ومن الأسباب فقال: " أنهم انتظموا في جيش سلطان المغرب وسكنوا سلا وكان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن " (1).

(1) فتح الطب من حصن الأندلس للطيب ج 2 ص 617

الباب الثالث

تلخيص حضارة المغرب الإسلامي

فصلان

الفصل الثاني عشر

المضارة الفكرية والثقافية

- 1- تمهيد
- 2- بنو مدرار / حاضرتهم سجلةاسة
- 3- بنو رستم / حاضرتهم تاهرت
- 4- الأكراسة / حاضرتهم فاس
- 5- الأغالبة / حاضرتهم القيروان
- 6- الفاطميون / حاضرتهم المهدية
- 7- المرابطون / حاضرتهم مراكش
- 8- الموحدون / حاضرتهم مراكش وأشبيلية
- 9- بنو مرين / حاضرتهم مراكش وفاس

الحضارة الفكرية والثقافية

تمهيد:

استغرق حكم إمارات المغرب ودوله أكثر من ثمانية قرون ابتداءً من إمارة بني مدرار وإنهاءً بالإمارات المحلية وخلال هذه الفترة تركت هذه الكيانات تأثيراتها في الحياة الفكرية والعلمية والثقافية والاجتماعية، حيث شيدت المدن الحواضر التي أصبحت مراكز علمية يذب إليها العلماء وطلبة العلم من سائر أنحاء المغرب والمشرق على السواء، ولعل أهم أثر تركته هو سعيها في نشر الإسلام بين الجماعات والقبائل المختلفة سواء في بلاد المغرب أو المناطق الواقعة جنوب الصحراء، فتقبلت منهجة ومسرفة ولمسونة الأفكار الإسلامية كما عقدت حلقات الدرس لتدريس العلوم الإسلامية والعلوم العقلية وأقيمت المناظرات بين العلماء والفقهاء في مختلف المسائل الفقهية والشرعية ووجدت مهنة تعليم الصبيان وتاديبهم وهي بمثابة ما تقوم به المدارس في الوقت الحاضر.

لقد ظهرت الحركات الفكرية وهي تمتلك تراثاً غنياً تعمل في مجموعة الآراء والمفولات والإستنباطات في تفسير النصوص الدينية على نطاق الشريعة والسياسة والفلسفة وفنون الحكم وكان أغلب مؤسسي هذه الحركات من حملة العلم والفقه فوضعوا أسساً للحياة الفكرية لإماراتهم ودولهم ورعاياهم فكتبوا العلماء وأخذوا بأيديهم ونشروا العلوم وشجعوا الناس على طلب العلم وأنشأوا المساجد والزوايا والتكايا والمراكز والمدارس التي كان يختلف إليها العلماء لتدريس أصول الدين والفريعة وعلوم قرياضيات والطب والكيمياء وغيرها.

ولعل من المفيد أن نستعرض الجهود الحضارية الفكرية التي مهنتها الإمارات والدول في المغرب الإسلامي وما خلفته من معالم وصروح علمية لعبت دوراً كبيراً في ظهور العلماء والفقهاء والفلاسفة وأصحاب الفكر الذين سجلوا مساهمات أفكارهم في مصنفات وكتب ورسائل فاحتلوا منزلتهم العلمية في العالم الإسلامي وأعترف لهم زملائهم العلماء والفقهاء المشاركة بما وصلوا إليه في العلوم والفنون والآداب وجميع صنوف المعرفة:

بنو مدرار / حاضرتهم بجلجامسة

عرف عهد بنو مدرار حب العلم والرغبة في طلبه وتحصيله⁽¹⁾ ، وأن أهل بجلجامسة كانوا يجلبون العلم ويطلبونه وهم يهابون أهل المغرب في المنظر والمخبر مع علم⁽²⁾ ، وهناك ما يشير إلى إهتمام المدرارين في عقد حلقات الدرس في العلوم الإسلامية وكذلك مناقشة مخالفاتهم ومجاهلتهم في العلوم الدينية وعلوم العربية والعلوم العقلية، وكان لأتباع المدرارين من العلماء والمتعلمين في مدينة القيروان الذين كانوا يبدون نشاطا في العلم والفقه والمنسقة⁽³⁾.

ولكن المؤسف أننا لا نمتلك معلومات وفيرة ومفصلة عن مساهمات المدرارين في الحركة الثقافية والعلمية إذا قورنت بما نعرفه عن غيرهم في المغرب الإسلامي ولعل السبب على أكثر الإحتمال أنه لم يتبقى من آثارهم الفكرية ما يجعلنا نأثي بكثير من التفاصيل والمعلومات المهمة فيما عدا الإشارات التي تعرضنا إليها، وربما كانت آثارهم عرضة للتلف والإهمال، كما لا يوجد من المؤرخين والكتاب المعاصرين لهم ما يمكننا أن نجد عندهم أخبار بجلجامسة وبنو مدرار واهتماماتهم بالحركة الفكرية والعلوم، أو أن عدوى الأيام قد اتلفت مولفات من أهتم بتواريخهم وتصانيفهم أو عثت عليها يد الحداث بقصد أو بدون قصد غير أن الموجود من شتات المعلومات عنهم بهذا الصدد يمكن أن يلقي بعض الضوء على نشاطهم ودورهم في الحياة الفكرية، ليس فقط في داخل مدينة بجلجامسة وإنما في مدن المغرب الأخرى حيث يتوزع بعض علماء المدرارين ومناصروهم في إمارات الأغالية والفرستمين والأرامسة.

⁽¹⁾ إسماعيل حاتم، نبذة في تاريخ الصحراء القصوى ص 7.

⁽²⁾ ابن حوقل، صورة الأرض ص 90 .

⁽³⁾ المصطفى، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ج 1 ص 276 ، دباغ ، معجم الإيماين في معرفة أهل القيروان ج ، ص 53 .

يخو وسنم / حاضر تهم تاهرت

كان مؤسس إمارتهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان، وهو أحد ما يعرف بحملة العلم الخمسة، الذين هم عاصم المراتي من غرب الأوراس وأبو داود القبلي النزاوي من إفريقية وإسماعيل بن ضرار الغداسي من جنوبي طرابلس وأبو الخطاب عبد الأعلى بن المصح المعافري من اليمن وكانوا قد تلقوا العلوم الدينية في العراق وفي مدينة البصرة على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة وهو من أبرز العلماء في هذه الفترة. وكان عبد الرحمن بن رستم قضا خمس سنوات يتلقى علومه هناك فأصبح بارعا في علوم الدين واللغة والفلك⁽¹⁾، وأصبه تلك مهارة في وضع أساس للحياة الفكرية لإمارته ورعيته بتوسيع الحركة العلمية والثقافية بتشجيع العلماء ونشر العلوم حتى أصبحت تاهرت مركزا علميا مرموقا في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث ضمت المساجد والمرکز والمدارس

وإلى جانب تاهرت، ظهرت مدينة شروس في منطقة جبل نفوسة ومدينة جندوا وقرية إجناف وجزيرة جربة ومنطقة ورجلان، مراكز للعلم والثقافة حيث كانت تجلب إليها الكتب والمصنفات والرسائل من العراق ومصر وبلاد الشام والحجاز، كما كان يؤمها عدد غير قليل من العلماء وطلبة العلم ومريديه ليتعلموا ويتفقهوا على يد علماء تاهرت وفقهائها من أمثال ابن أبي إدريس وأحمد التيكه وأبي العباس بن فتحون وعثمان بن الصغار وأحمد بن منصور وأبي عبيدة الأعرج⁽²⁾، ولكن العالم الشيخ مهدي النفوسي الذي قتله الأغلبية فيما كان يرافق جيش الرستميين الذي حاصر مدينة طرابلس في عهد عبد الوهاب عبد الرحمن بن

⁽¹⁾ أبو زهراء، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42.

⁽²⁾ محمد علي بوز، لتاريخ المغرب الكبير ج 3 ص 392.

رستم، ومحمد بن يونس وأبو الحسن الأندلسي وعروسي بن فتح ويطلبون بن
أفطح وغيرهم، كانوا يمثلون القمة في العلوم الدينية وعلوم العربية والفلك⁽¹⁾.
لقد كانت العربية الرسمية لإمارة الرستميين وهي لغة التأليف لهذه العلماء
والفقهاء، فالكاتب والمصنفات التي كانوا يتناولونها كانت باللغة العربية وإن
الرستميين كانوا يقدسونها ويحاولون نشرها بين أهل المدن، فكان الناس
يتنافسون في تعلمها وإتقانها ويعتفون على دراسة نحوها وقواعدها⁽²⁾ كما نلمس
هناك حركة دائمة لترجمة الكتب اليونانية والهندية والرومية والفارسية إلى العربية
يشجعها ويدعمها عبد الوهاب بعد أن خلف أباه في الحكم الذي هو نفسه محباً
للعلم وفقهاء، صنف كتاب "نوازل نفوسه" وهي مجموعة من الفتاوى الشرعية،
كما كان أفطح بن عبد الوهاب عالماً في الحساب والفلك وشاعراً⁽³⁾

ومن المعالم الحضارية العلمية للرستميين (مكتبة المعصومة) التي أسسها
عبد الوهاب بن عبد الرحمن في قصبة المعصومة في مدينة تاهرت، وكانت تضم
أصناف الكتب والمصنفات الدينية والفنية وكتب الصنائع وكان يربو عددها على
الثلاثمائة ألف مجلد⁽⁴⁾ ويشير التوماني إلى أن البصريين في العراق استنسخوا
معظم كتب المشاركة وأودعوها في هذه المكتبة، فقليل المخاربة على دراستها⁽⁵⁾
ولكن الدرجيني يذكر أن مكتبة المعصومة خاصة بالبيت الرستمي الذي وصفه بأنه

⁽¹⁾ ومن تخرج من علماء في مدينة تاهرت، ألفت أفطح بن عبد الوهاب التي لم تذكر المصدر شيئاً عنها
سوى أنها برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم، السيد عبد العزيز، المغرب الكبير ج 2 ص 575 -

⁽²⁾ محمد علي بيوز، المصدر نفسه ص 419.

⁽³⁾ ومن شعراء ومجد العلم وأهلها.

تعلم أبني لأهل العلم انكرا	يريدك تشافهم روحا وأبلا
هي وإن ملك ذو علم وذو ورع	ما ملك عبد قضى من ذلك أوطار
وذو حياء على جهل ومنفعة	كيف قد نوى في الرمن انصار

السيد عبد العزيز، المصدر نفسه ص 584 .

⁽⁴⁾ أبو زهراء، السيرة وأخبار الأئمة، الورقة 42

⁽⁵⁾ سيرة أبي الربيع بن عبد الصلح، الورقة 779

أبيت العلوم جامعاً بقولها من علوم التفسير والحديث وعلم اللسان وعلم النجوم والأصول والفروع والفرانج⁽¹⁾ وإلى جانب مكتبة المعصومة هناك مكتبات في المدن الرسمية تحتفظ بالكتب والتصانيف، وهي مكتبات عامة يؤمها الناس من مختلف الطبقات والطبقات.

ولعل من أبرز مظاهر الحياة الفكرية التي عرفت فيها تاهرت في هذه الفترة، الملتفات العامة التي كان يدعى إليها سكان المدينة وكانت تجرى على نهر مينة وأصبح لها صدى واسعاً في العالم الإسلامي وقد تنظّر فيها شيوخ الإباضية من الرسميين وعلمائها مع علماء المعزلة ومجتهديهم وتناولت موضوعات في الفقه والشريعة وفي العلوم العقلية والنقلية⁽²⁾.

ونظائر أن الفاطميين كانوا ملتفتين بالمنزلة العلمية التي كان يتمتع بها الرسميون وبذل على ذلك استحوذهم على مكتبة المعصومة والمكتبات الأخرى وتجريدها من محتوياتها، ولكن لا صحة لما ذكر عن إجراءات الفاطميين بحرقها بعد أن حصلوا منها على الكتب الفلسفية في الرياضيات والطب والفلاحة والهندسة والفلك بل نقلوا كتبها ومصنفاتها جميعاً إلى بلادهم بدون استثناء⁽³⁾.

⁽¹⁾ طبقات الإباضية ج 1 ص 136

⁽²⁾ د. المصيب الجفالي، المصدر السابق ص 141

⁽³⁾ د. موسى خليل، دور كتابة في تاريخ الدولة الفاطمية ص 345 - 346

الأداسة / حاضرهم قاسر

ترك الأداسة أثراً واضحاً في الحياة الثقافية، ليس في المغرب الأقصى، فحسب بل في جميع أنحاء المغرب الإسلامي. فقد قاموا بدور ملموس في نشر الإسلام وبثني الحركة الإسلامية، ثم يمضي وقت طويل على قيام إمارتهم حتى برزت مدينة قاس وأصبحت مركزاً من المراكز الثقافية والفكرية يشد إليه العلماء والمفكرون وطلبة المعرفة، الرجال من جميع العالم الإسلامي، وكان المسجد الجامع المعروف بـ'الشرفاء' أو 'الشرفاء' الذي أسسه إدريس بن إدريس سنة 192 هـ بداية إقامة جامع القرويين الذي اكتسب بدوره صيغة علمية وجامعية عالمية⁽¹⁾.

لقد تلقت مدينة قاس في عصر الأداسة، تأثيرات علمية وفكرية وثقافية وحضارية مادية مزوجة من بلاد الأندلس ومن القيروان، فالمدينة كانت تتألف من عدوتين واحدة للأندلسيين والآخرى للقيروانيين، وكان أهل كل من هاتين العدوتين، تلقوا كثيراً من تراثهم العلمي والمعرفي إلى مستقرهم في قاس ولا تخفى الأهمية التاريخية لكل من القيروان وقرطبة عاصمة بلاد الأندلس وبخاصة من الناحية العلمية والحضارية، فهما مركزان بارزان في سعة العلم والثقافة وإن " الوافدين من الأندلس، نزلوا بعدوة الأندلس والوافدين من القيروان سكنوا بعدوة القرويين، فضممت العدوتان بالسكان بفضل هؤلاء الوافدين وتميزت بهم -⁽²⁾.

⁽¹⁾ إسان الدين بن الخطيب، أصل الأعلام في 3 من 118 هاشبي رقم 2

⁽²⁾ د. السيد عبد العزيز سبال، المغرب الكبير ج 2 ص 496 (ينظر عن مؤرخ غرناطي مجهول من القرن الثامن الهجري [وهي مجموعة مكررات تاريخية] تسمى الزهرة المنيرة في الأخبار المنورة

الأغلبية / حاضر تهم القبريوان

ينجلي أثر الغلبة الثقافي والعلمي طوال مدة حكمهم لأفريقية وصقلية الذي استغرق أكثر من القرن، فيما تركوا من بصمات واضحة في الحركة الثقافية والفكرية، فليس جديداً على هذه الأسرة المستنيرة، أن تنهض بنشر مبادئ الحضارة أو أن تضع لها مفاهيم صحيحة. إن مؤسس إمارة الأغلبية إبراهيم بن الأغلب بن سلم التيمي هو نفسه كان - فقيهاً ولبياً وشارعاً وخطيباً ذا رأي ونجدة وبأس وحزم، وكان حافظاً للقرآن عالماً به ⁽¹⁾ كما كان ابنه زيادة الله 201 / 23 هـ أكثر أهل بيته نبأً وأصحهم لساناً وأوسعهم فهماً ومعرفة، حيث اختار له أبوه - علماء العربية ورواة الشعر ليقوموا على تعليمه ⁽²⁾ أما أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن أحمد 289 - 290 هـ فقد - جالس أهل العلم وشاورهم - ⁽³⁾.

غير أن أكبر ماثرة تركها الأغلبية في تاريخ الحضارة العربية والفكر الإسلامي هو فتحهم لجزيرة صقلية في عهد زيادة الله بن إبراهيم، بقيادة الفقيه القاضي أسد بن الفرات ⁽⁴⁾ فقد خرج معه أشراف أفريقية وفتهاؤها وعلمائها من العرب والجنود الأندلسيين وأهل العلم والبصائر - ⁽⁵⁾.

وتتبدى أهمية صقلية من الناحية العلمية، إنها أصبحت مركزاً للحضارة والعلم ومصدراً لإشعاعات الثقافة الإسلامية، واحتلت شهرة واسعة في هذا المجال في العلم الإسلامي وذلك طوال الحكم العربي فيها وبعده بقرون عدة حيث أنجبت جمهرة من العلماء والفقهاء والشعراء، ذاع صيتهم وانتشر أثرهم.

⁽¹⁾ ابن عذاري، البيان ج 1 ص 92 - 93

⁽²⁾ ابن الخطيب، أصال ص 16 - 17

⁽³⁾ ابن عذاري، ج 2 ص 123

⁽⁴⁾ وهو مصنف المهمة في تلك الملتقى، وعلى فاضل القبريوان

⁽⁵⁾ ابن عذاري، ج 2، ص 103

ومن المبدأ القول، أن عهد الأغلبية كان يتسم بإتاحة الحرية الفكرية والثقافية وتتحال البحث في المسائل المذهبية وأهلام المساجلات والمناسطرات والمجادلات حول مسائل العلم والفقه والأب بين الفرق الإسلامية، فبشير ابن أبي دينار إلى أن أبا سعيد كنون المنقلب "سراج القيروان" لغو منزلته في الفقه والعلم الذي استنضى على مدينة القيروان أمتع أهل الأهواء من المسجد الجامع وكانوا قبل ذلك يجتمعون فيه وينظأهرون بمذاهبهم مثل الإباضية والصفرية والمعتزلة، منهم من الاجتماع⁽¹⁾ ويبدو أن هؤلاء كانوا يشكلون تظاهرة علمية وفكرية في المناظرة والطرح والمحااجة في المسائل الجدلية المتعلقة بالعقائد والشرايع والعلوم الدينية والعقلية، ومن المحتمل أن تتألفهم ونصارع أرواهم بحرية واسعة نجم عنه ظهور مواقف سياسية لهذه الطوائف والجاليات، وليس أدل على ذلك من أن يقرر قاضي القيروان منهم من الاجتماع وتهديد خلفاتهم كما منهم من مزولة مهنة تعليم الصبيان وتأديبهم⁽²⁾.

والحق إن القيروان خلال حكم الأغلبية أضحت من كبريات مدن العلم والثقافة ليس في المغرب، بل في جميع أنحاء العالم الإسلامي. فقد استقطبت إليها العلماء والفقهاء والمدرسين، كما كان يقد إليها طلبة العلم من بغداد ودمشق ومصر ومن حواضر المغرب من تاهرت وكلماسة وفاس وأرطبة للفقه والدرس والمناظرة على شيوخ الفقهاء وأصحاب الفرق، فيذكر النفاوس قيام بكر بن حماد التاهرتي بمحاولة علماء القيروان ومناظرتهم في أمور الدين والمذهب⁽³⁾.

أما تونس، فقد لعبت هي الأخرى دورا كبيرا في ازدهار العلم والفقه والأب وتركت أثرها الفكري في إفريقية وبلاد المغرب، وقد وصفها البكري بقوله: "أها دار علم وفقه ولي منها قضاء إفريقية جماعة كثيرة"⁽⁴⁾ وأول هؤلاء الذين يشيرون

(1) المؤمل في أخبار إفريقية وتونس ص 50

(2) د. محمود إسماعيل، الفوارج في المغرب الإسلامي ص 99

(3) الأذهار الرياضية في الأمة ومثلك الإباضية ج 2 ص 71

(4) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 40

إليهم البكري هم النخبة التي كانت تتولى مناصب القضاء في جميع
الريفية والمغرب.

والظاهر أن الأغلبية كانوا ينسبون بالعباسيين وخصوصاً فيما يتعلق بإيجاد
المؤسسات العامة الثقافية منها والدينية فقد أسسوا مكتبة 'بيت الحكمة' التي
أشرف على قيامها وتجهيزها الأمير زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة 290
هـ وضمت مختلف الكتب والمجلدات والرسائل والتصانيف جلبت من بغداد
والأندلس وقد أصبحت فيما بعد تشبه إلى حد كبير ما كان سائداً في بغداد في عهد
الخليفة العباسي المأمون⁽¹⁾، وإلى جانب مكتبة بيت الحكمة، توجد مكتبات عامة
مماثلة في المدن الأخرى، كذلك أصبح مسجد القيروان الذي أسس سنة 50 هـ
وجامع الزيتونة سنة 114 هـ في تونس بمثابة جامعتين عظيمتين يختلف إليها
طلبة العلم طوال عهد الأغلبية وبعده فضلاً عن مسجد سوسة ورياطها اللذين
أصبحا مدرستين لأصول المذهب المالكي.

(1) عثمان بن الفلك: الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط ص 112

الفاطميون / حاضر نعم المهدية

تتميز الحركة الثقافية والفكرية التي أرسها الفاطميون في بلاد المغرب الإسلامي وأما بعد في بلاد مصر. بالعق والشمولية، فقد تعهدوا بمسؤوليات النمو وأثروا باستيعاب علمائهم ونضجهم واهتمام خلفائهم بالانشغال بالعلوم والمعارف والفنون والآداب، فكتبوا العلماء والفقهاء والقضاة والمحدثين والقراء والأدباء والشعراء وأصحاب المواهب والقاعات من المؤرخين والأدباء والشعراء والمتصوفين، وصنفوا مئات الكتب في الحديث والعلوم والطب ونسخوها وأوجدوا مراكز العلم والثقافة في القيروان والمهدية ومن ثم في القاهرة والفسطاط وشدوا القصور التي أصبحت مدينا لتجمع العلماء والفقهاء، يتنافسون ويتناظرون ويتطرحون في العلوم الدينية واللغة والشعر. أما المساجد فقد كانت بمثابة مراكز للعلماء والقضاة والوزراء يحاضرون الناس في العقائد والفقه، كما دأب الفاطميون على إقامة المكتبات التي كانت تحوي المصنفات من كتب اللغة والحديث والتاريخ والسير والفلك والتكمياء والطب، وكانت تغرد بافتاء كتب لم يكن لها وجود في مكتبات قرطبة أو دمشق.

أما العلوم التي عنى بها الفاطميون واشتغلوا فيها، فهي جميع العلوم الإسلامية أو الدينية التي أفلحوا عليها العلوم التقليدية أو الشرعية مثل علم التفسير والقراءات والحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية مثل النحو واللغة والبيان والأدب وكذلك تناولوا العلوم العقلية والحكمة التي كانوا يطلقون عليها علوم الأوائل أو العلوم الدخيلة وتشمل الفلسفة والهندسة وعلم النجوم وعلم الفلك والموسيقى والرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا.

ومن أبرز الفلاسفة في العهد الفاطمي في بلاد المغرب هو عبد الرحمن أبو حاتم الرازي الورسني، وقد تأثر إلى حد كبير بمدارس الدعوة التي أسسها عبد الله المهدي في بلاد المغرب، وكانت لأبي حاتم نظريات في المبادئ التي كان يؤمن

بها الفاطميون، كما أسهم في نشر الثقافة الإسلامية فتكلم في الفلسفة واللغة والتفسير والفقه ومن مؤلفاته كتاب ' التزيّة ' تناول فيه الأمور الفقهية وفلسفة ما وراء الطبيعة وفيه معلومات عن الفرق الدينية وعن الجغرافية، وكتّاب ' أعلام النبوة ' وهو من أهم الكتب الفلسفية، وقد توفي أبو حاتم الرزاز سنة 822 هـ⁽¹⁾ ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من البواعث السياسية والعسكرية لبناء الفاطميين مدينة المهدية فإن دورها لم يقتصر على ذلك بل حرص الفاطميون أن تكون عاصمتهم الجديدة مركزاً من مراكز العلم ومجمعاً لعلمائهم وفقهائهم كما تميزت بالفنور والمنشآت والمساجد التي كان يتربد عليها طلبة العلم لأخذ الفقه وإتقان القرآن.

ولا شك في أن نشر ميادين الفاطميين في بلاد المغرب بعد قيام دولتهم هناك استخدم تبصير المغاربة بفقهه وأرائه وعقائده فالتخووا للتفسير والتأويل وسيلة لهذا الغرض واعتماد الاستدلال العقلي في تفسير النصوص الدينية، كما أطلق الفاطميون الأموال على الشعراء الذين اتصلوا ببلاتهم فوجد المغالاة في شعرهم للإشادة بمجد الفاطميين وربما كان الفاطميون يفعلون ذلك لغرض استقطاب القبائل المغربية التي وفقت منهم موقفاً معادياً ولتنشيط دولتهم الفتية التي كانت تحتاج إلى التأييد والتعزيز.

⁽¹⁾ انظر للاستزادة عن دور أبي حاتم الرزاز في الحركة العلمية والسياسية في الدولة الفاطمية في بلاد المغرب (د. حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية ص 467 - 469)

المرابطون / حاضرهم وراکش

شهر عن المرابطين ومؤسسي دولتهم الأول، أنهم كانوا من المتفهمين والمتبحرين في العلم، فقد عرف عن يحيى بن إبراهيم الجدلاني، ميله للعلم والفقه كما كان وجاه بن زلتو اللمطي، فقيهاً من أهل السوس الأقصى لأخذ العلم والقطع للعبادة والعلم وأسس مدرسة للملكية في بلدة في عهد دولة المرابطين وكثر عدد تلاميذه، أما عبد الله بن ياسين الجزولي، فقد هدى المرابطين إلى المتاجرة بالعلم والفقه في الدين، وكان بحث لمنونة وجداله على أخذ العلم وسرعان ما تجمعت حوله طائفة من التلاميذ أخذ بعضهم القرآن والسنة وأحكام الدين.

وعلى الرغم من جلوة المرابطين وخشونتهم، فلهم بدوا يشجعون شعراء الأندلس وأهلباءها وأهل العلم إلى الاختلاف إلى بلاد المرابطين في المغرب فيذكر عبد الواحد المراكشي ما يشير إلى اهتمام المرابطين بأهل العلم والكتاب وفرسان البلاغة، وهو يشبه بلاط المرابطين مجالس بني العباسي في بغداد في تشجيع العلماء والفقهاء والشعراء بقوله: "فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحولته حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم ينلق اجتماعه في عصر من الأعصار".⁽¹⁾ وكان ممن اختلف من البلاغة والأدباء واللغويين أبو بكر المعروف بابن القصيرة، وهو كاتب المعتمد بن عباد الذي أسقطت إمارته بعد دخول المرابطين الأندلس والوزير عبد المجيد بن عيود وأبو القاسم بن الجند المعروف بالأندب وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرية وأبو عبد الله ابن أبي الحضال الذي كان يعد من أتباعهم وأكبرهم مكانة لديه، وهو ألدج

⁽¹⁾ تلخيص أخبار المغرب ص 163 - 164

من انتهى إليه علم الألب وأخوه أبو مروان⁽¹¹⁾ وهكذا تبدل بلاط يوسف بن تاشفين من بلاط يتسم بالفشونة والبسطة إلى بلاط متلق متحضر⁽¹²⁾.

أما الحركة الفكرية المرابطية في الأندلس، فلدينا معلومات مفيدة عنها، فقد احتفظت بكثير من مظاهرها العلمية والأدبية، وهي استمرار لما كان عليه الأمر خلال عهد الطوائف. وقد بذلت دولة المرابطين رعايتها لطفافة كبيرة من العلماء والأدباء الأندلسيين واستخدم بلاط مراكش والأمراء والحكام بالأندلس كثيراً منهم في مناصب الوزارة والكتابة، أسوة بما كان في عصر الطوائف، ولعل في مقدمة من ظهر من الكتّاب والأدباء في العهد المرابطي في الأندلس عبد الرحمن بن محمد أسباط المتوفى 487 هـ وظل في منصب الكتابة أعظم كتّاب الأندلس هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي الذي كان من كتّاب الدولة في عهد يوسف بن تاشفين كما ضم البلاط المرابطي عدة من أعلام الكتّاب وأئمة البلاغة منهم أبو بكر بن عبد العزيز البعلبوسي كما لمع اسم الكاتب، الفتح بن خاقان الذي اشتهر بأسلوبه البليغ المصجع ومن كتبه "فوائد العقيدان" و"مطبخ الألف" ويحيى بن محمد بن يوسف الأضراري المعروف بابن الصيرفي وهو من أعلام العصر المرابطي في البلاغة والأدب والتاريخ ومن كتبه في تاريخ الأندلس "الآثار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية" وكتاب "قصص الأئبياء وسيرة الروساء".

ويعقد الدكتور محمد مجيد السيد، فصلاً مهماً عن "الحياة الفكرية في دولة المرابطين بالأندلس، فيقول: إن عهد المرابطين كان فترة نيرة متحضرة لا تقل تقدماً وازدهاراً عن فترة الخلافة والطوائف⁽¹³⁾ وعلى الرغم من تعصب المرابطين الديني، لم يعارضوا النشاط الأدبي والثقافي أن لم يشجعوه وإن أغلب حكام المرابطين كانوا يستدعون أشخاصاً معينين للاستفادة من علومهم مخلفين عليهم

⁽¹¹⁾ عبد الواحد المرابطي، ج ١ ص 173.

⁽¹²⁾ د. السيد عبد العزيز مسلم، ج ١ ص 748 نقل عن تقي بروفانسال، الإسلام في المغرب والأندلس ص 247.

⁽¹³⁾ الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس ص 80.

المعاطيا والتعم فقد استدعى على بن يوسف بن تاشفين، الفيلسوف المتزهّد، مالك بن وهيب من الشيلية إلى حضرة مراکش وصيّره جليسه وأيّمه ⁽¹⁾. كما اهتم المرابطون بالكتاب والبلغاء الأتلمسين للإعراب عن رغباتهم ومخاطباتهم مشجعين إياهم على الكتابة والتأليف، وكان إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، نور عير طي تشجيع الكتاب والشعراء ⁽²⁾ وهكذا يمكننا القول أن الحركة العلمية والأدبية في عهد المرابطين سواء في المغرب الإسلامي أو الأندلس قد حافظت على تقدمها وازدهارها حتى بعد سقوط دولة المرابطين.

⁽¹⁾ م. ب. ص 160

⁽²⁾ م. ب. ص 161 "بذكر الشيخ بن تاشفين في صدر كتاب "لقد المعيان" - إنه أقام على تأليف كتابه هذا مدفوعاً بتشجيع من إبراهيم بن يوسف، كما يذكر ابن خلدون في مقدمة ديوانه - إنه انصرف منذ زمن بعد أن نظم الشعر لولا الأمير إبراهيم وعنه على قوله ومفادته -"

الموحدون / حاضرتهم مراكش / وأشيعلية

كانت دولة الموحدين، دولة حامية للعلوم والآداب والفنون، حيث كان مؤسسها محمد بن تومرت من أقطاب علماء عصره، فقد أقبح في دعوته لتعلم وحض على تحصيله بقوة وحماسة فقال: " العلم أعز ما يطلب والفضل ما يكتب والفن ما يظفر وأحسن ما يعمل ، وهو الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير وهو أعز المطالب والفضل المكاسب والفن الذخائر وأحسن الأعمال " (1) كما كان عبد المؤمن بن علي من أئمة علماء عصره ، ألف حوله العلماء والكتاب والشعراء فبسط عليهم رعايته وضرهم بصلاته. وكذلك كان يوسف بن عبد المؤمن بن علي من كبار علماء عصره. وكان أنبيأ متمكناً وفقيهاً ومحدثاً بارعاً شغف بالدراسات الفلسفية وقد جمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومقربه وفي مقدمتهم أبو الوليد ابن رشد وأبو بكر ابن طفيل وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر وهم من أساتذة الفلسفة والطب في هذا العصر، وكان ولده المنصور عالماً مستقبراً متمكناً من الحديث الشريف والفقه واللغة، وكان بلاطه يضم العلماء والأدباء والشعراء والأطباء والمهندسين والكتاب والمؤرخين فيجزل لهم الصلوات ويجري لهم المرتبات العالية المنتظمة (2).

وعلى الرغم من تروى الأوضاع المعاشية لدولة الموحدين في أواخر أيامها، فإننا نجد أمراءها لا يبتعدون عن أهل العلم والأدب والثقافة حتى لقد أصبحت النزعة الخمنية هي الغالبة في البلاط الموحدى سواء في مراكش أو في أشيعلية، فقد جرى خلفاء الموحدين على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير والرأى بالندفاع كبير إذا ما قورن بما كانت عليه دولة المرابطين.

(1) محمد عبد الله خان، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس من 645

(2) المعصر نفسه من 646

ويمكن أن نستفيد من الفصل الذي عقده الأستاذ محمد عبد الله عثمان عن الحركة الفكرية والعلمية خلال عصر الموحدين، حيث يورد لنا أسماء جمهرة من العلماء والفقهاء والمفكرين والشعراء و الأئماء، ممن كانوا يفتلقون إلى سلاط الموحدين أو كانوا يعيشون في ظلهم ومن تلقوا منهم الرعاية والصلات سواء من أهل المغرب أو من الأندلسيين، ويمكن أن نلاحظ تأثيراتهم العلمية والثقافية في المغرب أو الأندلس حيث كانت تستهوي علماء المغاربة الحياة في مدن الأندلس أو أن علماء الأندلس كانوا يفتلقون إلى مجالس الموحدين في مراكش⁽¹⁾.

كما اتخذ الموحدين مجالس العلم، بحضور الأئراء والعلماء، وكان لها نظام خاص، إذ ينصهر الأمير المجلس ثم خطيب الجماعة ثم قاضي الجماعة بمراكش، فريس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فيألفي الأعلام الحاضرين على الختلاف مراتبهم، ثم تبدأ المناقشة والمناظرة حول مسألة علمية يلقبها الأمير أو أحد العلماء وتناقش ثم تختم الجلسة.

⁽¹⁾ للاستزادة والإطلاع انظر: محمد عبدالله عثمان، عصر المرابطين والموحدين ج 2 ص 649 - 680

بنو مرين / حاضرتهم مراکش أو فاس

٢ شك في ان عهد بني مرين يعد استمراراً لما كان عليه عهد الموحيدين وبخاصة في الجوانب الحضارية والأحوال الفكرية والثقافية والعلمية منذ ظهور عدد من العلماء والمفكرين في مدينة فاس وفي مراكش أو في المدن والمراكز الأخرى التي أتيح لهم ان يسيطروا سيطرتهم ونفوذهم عليها ومعروف ان بعض من تسولى أمر الدولة المرينية كان من الفقهاء المتبحرين في العلم، فقد عرفت عن أبي يوسف يعقوب انه كان من متقنى العلوم الدينية وعارفاً بالحديث⁽¹⁾.

ومن الفقهاء والذين نسمع عنهم الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق السدي ولاء الأمير أبو الحسن المريني أصلاً سلطانية عدة⁽²⁾ وأرسله في سفارات لتعيزه في العلم والمعرفة، وأبو القاسم محمد بن جزى الذي كان أحد شيوخ الوزير لسان الدين بن الخطيب كما كان فقيهاً حافظاً فتنماً على التدريس مشاركة في علوم عدة عربية وفقه وأصول وقراءات وأدب وحديث، مستوعباً للأقوال، جماعة للكتيب حسن المجلس، تمتع المحاضرة⁽³⁾.

⁽¹⁾ ابن أبي زرع، الخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية ص 59.

⁽²⁾ المقرئ، تلخ الخطب من حسن الاندلس الشطيب ج 5 ص 413.

⁽³⁾ المصدر نفسه ص 414.

الفصل الثالث عشر

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

- 1- بنو مدرار: الإمارة المدرارية.
- 2- بنو رستم: الإمارة الرستمية.
- 3- الأدارسة: إمارة الأدارسة.
- 4- الأغالبة: إمارة الأغالبة.
- 5- الدولة الفاطمية.
- 6- دولة المرابطين.
- 7- دولة الموحدين.
- 8- إمارة بنى مرين.

النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية

(أ) بنو مدار / الإمارة المدراوية:

قامت إمارتهم على مبدأ الخوارج الذي يبيح لكل فرد في الدولة الإسلامية أن يحكم إذا توفرت فيه شروط وصلوها طبقاً لمبادئهم، ولكنهم أخذوا بنظام الوراثة فسي الحكم بعد قيام إمارتهم وقد اتخذ حكم بنى مدار الاستقلال عن النفوذ العباسي في بداية عهدهم ولكنهم دخلوا في تبعية الخلافة حتى وصفهم أحد المؤرخين بأنهم مجرد أعمال للعباسيين⁽¹⁾.

حكم الإمارة ستة عشر أميراً تراوحت سلطتهم بين القوة والضعف وفي عهد الأمراء الأواخر ضعفت السلطة السياسية في الإمارة نتيجة للصراع بين أسرة بنى مدار وتكبير المؤامرات بعضهم للآخر، وربما كان ذلك بسبب الانحياز إلى مبدأ أهل السنة والتخلي عن مبدأ الخوارج التقليدية.

ومن الجدير بالذكر أن إمارة المداريين، تشكل في أساسها جميعاً للخوارج في مناطق المغرب الأقصى يغلب عليه الطابع الديني المذهبي لذلك أصبحت مدينة سجلماسة بوتقة لتجمع عناصر مختلفة من قبائل المغرب وخاصة بطون قبائل مكناسة وصنهاجة النازح من مسوفة ولعنونة وزوينة وكذلك جماعات من بلاد السودان وبعض الأندلسيين واليهود، وقد ساهم هؤلاء جميعاً في عمران المدينة وإزدهارها وظهورها كمركز اجتماعي، ولا ريب في أن هجرة القبائل إلى سجلماسة واختلاطها بجماعات السودان والأندلسيين المتحضرين نسبياً ترك أثراً في أحوالها واستقرارها وأحدث تغيرات ملموسة في عاداتها وتقاليدها وأسلوب حياتها فترك معظمها هرفة الرعي واتجه نحو الزراعة والصناعة والتجارة وابتدو أن هذا النشاط خلق حفازاً للتطورات الاجتماعية وأوجد موازين جديدة للقوى الاجتماعية داخل المدينة مما أدى إلى اتساعها وإزدهار عمرانها شيئاً فشيئاً ويظهر

(1) د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 94.

بصورة خاصة أن استقرار الصفات الاجتماعية التي نزلت إليها من المشرق وخصوصاً من بغداد ونمشوق ومصر نقل إلى سكان المدينة طباع سكان المدن الكبرى المزدهرة وحظهم على ممارسة حياة الترف والرفاهية ويشير ابن الخطيب إلى أن أمير سجلماسة البسج بن أبي القاسم 508/174هـ بنى سور المدينة وقسم داخل السور على القبائل⁽¹⁾ فلزدهرت المدينة وأصبحت خاضعة لبني مدرار⁽²⁾ وأحسن ابن حوقل بمنزلة أهل سجلماسة ورفاهيتهم بقوله 'سجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل مع علم ومستر وصيانة وجمال واستعمال للمروءة وسلامة ورجلحة'⁽³⁾ أما البكري فيحدث عن غنى أهلها وكثرة أموالهم⁽⁴⁾ ويصفها المتقدم في القرن الرابع الهجري قائلاً: 'سجلماسة قصبة جليلة وأهلها قوم جيد بها علماء وعقلاء'⁽⁵⁾.

ولما كانت مدينة سجلماسة مدينة تجارية فلا بد أن يظهر فيها النفوذ الاجتماعي للفئات التي تدبر النشاط التجاري لذلك تبدو مظاهر الترف والثراء واضحة وبخاصة في عهد بني مدرار حيث بلغت أوج تقدمها الاجتماعي متمثلة في مبانيها وأبنائها المعماري وتقدمها العلمي وتتركز في سجلماسة كما في غيرها من مراكز الحضارة في العالم الإسلامي خلال هذه الفترة مظاهر الحضارة.

⁽¹⁾ أعمال الأعلام ص 143 .

⁽²⁾ البقوس، كتاب البلدان ص 359.

⁽³⁾ صورة الأرض ص 99.

⁽⁴⁾ المغرب ص 148.

⁽⁵⁾ تيسن التقاسيم ص 65.

ومعالم الزحف الإجتماعي⁽¹⁾ مثل الخدمات والقصور والمنشآت ودور العلم⁽²⁾ وكذلك بروز العلاقات الاجتماعية الجديدة داخل الأسرة أو بين العناصر والفئات التي كان يمثلها التجار والعسكرون المسلمون الذين وفدوا إليها من المدن الإسلامية الشهيرة في المشرق الإسلامي مثل البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والسكان الأصليين على اختلاف قبائلهم ونحلتهم أو بينهم وبين الأقليات من الألبان وخاصة اليهود الذين سيطروا على الحياة الاقتصادية بسبب استحوذهم على تجارة الذهب⁽³⁾.

غير أن أغلب القبائل المنضوية داخل حدود إمارة المدرايين جذبهم الاهتمام بالأنشطة الاقتصادية وبخاصة الزراعة حيث تقوم على المياه التي يوفرها نهر ملوية الذي تقع على منحدراته مدينة سجلماسة حيث يحول هذا النهر المناطق التي تحيط بالمدينة إلى سهول فيضوية صالحة للإنتاج الزراعي فكتبتوا يكثرون من الأراضي الزراعية وتوسيع رقعتها بحفر الخللجان وشق القنوات مما يساعد على الاستكثار من الفروس وخاصة النخيل⁽⁴⁾ كما احتفروا الأحواض واقتربوا فيها

⁽¹⁾ وذلك بالتحول إلى حياة الفلاح الرحل في الوادي الصحراوية وبوادي سجلماسة وأودغيت ونواحي لمطة ولزان، ففيها مياه عليها قبائل مهملة لا يعرفون الطعام ولا تربي المصطبة ولا الشعر ولا تبيتا من الحبوب والغائب عليهم الشتاء والانتاج بالشاء وقوام حياتهم بستلى والثعب فيذكر الصعيرى أن المسلمين وأتباعهم من القبائل التي هاجرت إلى المدينة نقلوا كثيرا من المهارات في الآداب العامة ومنها مهارة الطبخ تعلموها من السودانيات المسافرات في عمل الأقمشة والتسيما أصناف الحليزيات مثل الحوزليات والوزليجات والقاررات والظافات والظافات والمشبهات (السروطن السحار في غير الظفار ص 64).

⁽²⁾ ابن خوقل، المصدر السابق ص 84.

⁽³⁾ ينظر صاحب الكتاب الاستعمار في عتاجب الأمصار إلى أن سكان سجلماسة تعلموا على اليهود بسبب سيطرتهم على الاقتصاد واستحوذوا عليهم داعية الظالمين إلى عبد الله للاستقام منهم حيث أمر هذا الأخير بقتل أتباعهم ولحق أموالهم وهرق عليهم أمتهان إحدى حرفتي الثقافة أو البناء وكانت هناك العرافات من الحرف الرابطة لهن ما لبوا أن عادوا إلى مزاوله مورهم في الحياة الاقتصادية (إسجول ص 202).

⁽⁴⁾ ابن الخطيب، المصدر السابق ص 139.

المياه ترى مزارعهم ولشربهم وأغراضهم الأخرى⁽¹⁾ وبذلك أصبحت منطقة
سجلامة عبارة عن واحة مفصولة بالهيماتين والغروب وبمقبرة إلى أحيواض
تملؤها مياه وادي نهر ملوية بفرعيه الشرقي والغربي.

ويبقى ابن حوقل ضوفاً مفيداً على طبيعة النشاط الزراعي والمواسم الزراعية
في المناطق التي تدخل تحت نفوذ المدرارين ويقارنها مع الزراعة في مصر التي
كانت تتم بالارواء من شفتي نهر النيل فيشبه نهر ملوية بنهر النيل لما يزيد في
الصف فيتم الزرع حسب زرع مصر وقاتوا يزرعون مدة ويزرعون الأرض في
السنة التالية كما أن بعض الأراضي تغرق بالمياه فيتم استصلاحها فتزرع لمدة
سبع مشين متوالية⁽²⁾.

ولعل من أهم منتجاتهم الزراعية، الأعشاب والزبيب القطني⁽³⁾ والتمور التي كانت
على أنواع حيث بلغت سنة عشر صنفاً يذكر يافوت منها: العجوة والنقل ويقول
أن أكثر القوات أهل سجلامة من التمر⁽⁴⁾. كما أن لهم رطباً أخضراً مثل السلق
في غلبة الحلاوة⁽⁵⁾ كما زرعوا القمح والشعير وعرفت لديهم أنواع من الحبوب
ليست قمحا ولا شعيراً صلب المكسر لنذبة المطعم وخلقه بين القمح والشعير⁽⁶⁾
ويسمى البكرى هذا النوع من الحبوب (الصيني)⁽⁷⁾ وإلى جانب غرس الأشجار
وزراعة الحبوب ظهر اهتمامهم بزراعة القطن والكمون والكروياء والحناء⁽⁸⁾
وأنواع من الخضار والثمار والرمان وجميع الفواكه والمحاصيل بحسب فصول

⁽¹⁾ التمر، المغرب ص 148 ثم انظر كتاب الاستبصار ص 201 يقول: 'ولهم مزارع كثيرة يسفلونها من
النهر في حياض القباكين الهيماتين'.

⁽²⁾ صورة الأرض ص 90.

⁽³⁾ التمر، م. ن. ص 148.

⁽⁴⁾ معجم البلدان ج 3 ص 162.

⁽⁵⁾ ابن حوقل، المصدر السابق ص 90.

⁽⁶⁾ م. ن. ص 90.

⁽⁷⁾ المغرب ص 151.

⁽⁸⁾ الأفريسي، صفة المغرب وارض السودان (إطبعة من كتاب نزهة المشتاق) ص 98.

السنة كما اعتنوا بتربية العنابية والأغنام والأبقار فكانوا يبيعون البلاد للمراعى والزرع والمياه لورود النيل والعاشية -⁽¹⁾.

أما في مجال الصناعة فإن بعض من السكان لا يعدمون الاستغلال ببعض الصناعات البدوية، مثل صناعة النسيج التي كانت تعتمد على القطن الذي ينتج محليا وعلى الصوف الذي يصفه القبري بأنه من أجود الأصناف ويعمل منه سجالمة ثياب يبلغ ثوب منها بأكثر من عشرين متقالا⁽²⁾ لذلك اشتهر القبايس السجلماسي في بلدان المغرب والشرق والأندلس⁽³⁾ وبقيتنا بأقوت مما ذكره عن مهارة النساء السجلماسيات في صناعة النسيج وتلوقهن في صناعة الأرز فقال: (إن لثماثهم يد صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن عجيب يدع من الأرز تلوق الأرز القصيبة التي بمصر يبلغ ثمن الأرز خمسة وثلاثون دينارا وأكثر كارتفاع ما يكون من القصب الذي بمصر ويعملون منه غفارات يبلغ ثمنها مثل ذلك ويصفونها بأنواع الأصباغ -⁽⁴⁾.

وهناك حرف تتعلق بالبناء مثل الحدادة والنجارة وصناعة السكر وتكرير الملح⁽⁵⁾ وصناعة الأحذية⁽⁶⁾ إلى جانب صناعة الأوقى الخشبية من شجر يعرف (تامجالت)⁷ وهو اسم المنطقة التي كان يؤخذ منها وصناعة المصوغات الذهبية والفضية والحلي يقوم بها صناعة مهرة في مدينة سجالمة المظلمة من أهل

⁽¹⁾ ابن خرداذبة، ص 100.

⁽²⁾ المغرب ص 147.

⁽³⁾ وهذا القبايس يشبه القبايس المغربية في لونه ولونه ولثته يتوقه جودة (تطرد - الحبيب المصنعي).

⁽⁴⁾ المغرب الإسلامي ص 174.

⁽⁵⁾ معجم البلدان ص 192.

⁽⁶⁾ القشتلندي يصبح الأحمشي في صناعة النسيج ص 164.

⁽⁷⁾ التماثيل، السير ص 248.

⁸ يصفه القبري (سير معجم ورقلة طب توريك الطرقاء ويمنع منه أثبة سجالمة ومرعة) ص 196.

الذمة⁽⁷⁾ وكانت معدن الذهب والفضة تستخرج من المناجم والمحاجر في منطقة درعة⁽⁸⁾ أو من الذهب المستورد من بلاد السودان⁽⁹⁾ كما يوجد معدن الفضة بجبل مجاور لمدينة سجنماسية، ويؤكد البكري أنها بلاد مشهورة بالذهب⁽¹⁰⁾ كما يؤكد الأسططري أنها بلاد قريبة من معدن الذهب بينها وبين أرض السودان وأرض زويلة ويقال أنه لا يعرف بداً للذهب أوسع ذهباً ولا أصله منه⁽¹¹⁾.

والى التجارة تحتل املة بنى مدرار مكانة مرموقة بين إمارات ودول المنطقة بسبب نشاطها الذي كان يتركز في مدينة سجنماسية التي أصبحت على حد قول الدكتور الحبيب الجنتلي مركزاً تجارياً عالمياً في تلك الفترة، ويعزى ذلك إلى تجمع الثروة فيها ولاسيما الذهب الذي أتاح لهم مزاولة التجارة على نطاق واسع فأصبح أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالا⁽¹²⁾. وكان الاتجار بالذهب يحتل الموقلة الأولى بين تجارات المدراريين ويفهم مما جاء عند البكري⁽¹³⁾ ويفوت⁽¹⁴⁾ أن حصول السجنامسيين على الذهب يبدو أهميته دون البضائع والتجارات الأخرى حتى أصبح هذا المعدن عند سكان المدينة 'حزاف عند بلا وزن'.

ولا غرو، فإن النشاط التجاري يتمثل بجميع البضائع التي كانت تحملها القوافل التجارية سواء اتجهت إلى سجنماسية أو المنطقة فهي ولعل أهم السلع التي كانت تصدرها هذه المدينة إلى بلاد السودان وغلة والتكرور ومدينة واودغست هي

(7) (والفهم من اليهود أو الإنسلميين والفرس والعشافة) د. الحبيب الجنتلي ، المصدر السابق ص 175 .

(8) ابن القلقلي الهمداني، مختصر كتاب البلدان ص 80 .

(9) د. الحبيب الجنتلي المصدر السابق ص 175.

(10) المغرب، المصدر السابق ص 151.

(11) مآلك المآلك ص 34.

(12) المغرب الإسلامى ص 176.

(13) المغرب ص 157.

(14) معجم البلدان ص 151.

التمج والتمور والزبيب والثمار المجففة والمنسوجات القطنية والصوفية والنحاس المصنع والاحجار الكريمة والخرز والملح والحناء والماشية⁽¹⁾. أما وارداتها من اودغست فهي أشجار الصمغ ومن السودان الذهب والرقيق⁽²⁾ وفي نطاق التجارة الخارجية فيمستورد التجار المسلمانيون القطن من مدينة قصه ويحملون السكر والكمون والكرامية والاحذية الى القيروان⁽³⁾.

وتبادل نجار بنى مدرار مع بلاد الأندلس، السلع والمتاجر، فكان المندرايون يصدرون الفصح والسكر والكروم والتمور في مقابل الثياب والمطرشات القطنية والكتانية والحريزة التي اشتهرت بها قرطبة⁽⁴⁾، ونتيجة لتطور صناعة التمسيح القطني في سجلماسة فقد استوردت القطن الاشبلى الخام الشهير في جميع أنحاء العالم الإسلامي، فيضبر الحموري في ما يفيد بجودة القطن في الشيلية وتجهيزه إلى سجلماسة⁽⁵⁾ كما انه نتيجة لهذا التبادل التجاري، ان توطدت العلاقات بين الطرفين وقامت التسهيلات للتجار الاندلسيين المندرايين في جلب السلع التي كان يروى لهم المتاجرة فيها.

ويبدو أن إمارة بنى مدرار عقدت أوثق الصلات ببلاد القنقور وغانة التي كانت تعرف ببلاد الموطن الغربي واحتلت العلاقات التجارية مكانة متميزة وأصبحت سجلماسة مركز الاتصال بين بلاد المغرب الإسلامي وبين بلاد السودان حيث تتجمع القوافل في مدينة درعة عند خروجها من إمارة بنى مدرار، وعرفت " أبو الأكي " بأنها أولى المراكز السودانية التي كانت تنزلها هذه القوافل⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ القنقور، المصدر نفسه ص 158-159، الأبرسي، نزعة المناطق ص 60.

⁽²⁾ القيروان، المصدر نفسه ص 159.

⁽³⁾ د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 208.

⁽⁴⁾ د. محمود اسماعيل، الم. مصدر السابق ص 209.

⁽⁵⁾ القنقور، المصدر نفسه ص 59.

⁽⁶⁾ د. محمود اسماعيل، م. ن، ص 210.

ويستك التجار القادمون إلى الإمارة العدرارية أو الخارجون منها مع قوافلهم طرفاً برية وبحرية ولعل أهمها طريق تربط سجلماسة بمدينة وجدة، تبدأ من هذه الأخيرة إلى مدينة صاغ ومنها إلى تالبيت ثم إلى جبل بني برنيلان وقبر ومنه إلى مدينة الاحصاء ثم إلى مسلي منتهيا بسجلماسة⁽¹¹⁾، وكانت هذه الطريق تتصل بطريق أخرى في موضع معين من المشرق الإسلامي مبتدئة من بغداد والبصرة مارّة بالاتجار وحيث والرقّة وحران والرها وائل موزن وحلب ودمشق وطبرية والرملة والقسطنطين والإسكندرية ومنها برقة ثم إلى طرابلس ثم تصل إلى ناهرت عاصمة الرستميين ومنها إلى سجلماسة والطريق الثانية التي تربط إمارة العدراريين مع الإمارة الرسمية مبتدئة من سجلماسة ومنتهية بورجلان⁽¹²⁾ والثالثة بإمارة الإدراصة من مدينة فاس إلى سجلماسة أما الطرق البحرية فهي التي تنتهي عند مواني العدراريين على ساحل الأطلنطي مبتدئة من موانئ الأندلس مثل لشبيلية وشاطبة . وكان ميناء بحريّ من الموانئ الشهيرة التي دأبت على تصدير البضاعة إلى سجلماسة وتلحريّت مدينة مسورة على ساحل البحر وهي محط للسفن ومقصد القوافل بسجلماسة⁽¹³⁾ .

وتحدثت المصادر عن العملة السجلماسية وأهميتها في محيط التداول حيث اختلفت أراء الأندلس منها كثيراً واتخذوها وسيلة للتبادل وربما كان ذلك بسبب محافظتها على قيمتها النقدية أو لأنها ضربت من الذهب الإبريز الذي كان يفضلّه الأندلسيون لذلك أصبحت حركة التبادل التجاري في إمارة بني مدرار تستم بمقايضة الذهب وبخاصة في عهد الأمير الشافعي⁽¹⁴⁾ حيث ضرب البصة باسمه ونقشه وكانت تسمى الدراهم الشافعية⁽¹⁵⁾ وهي عملة طيبة للغاية⁽¹⁶⁾ وإن العملة التي ضربها

(11) البكري، المصدر السابق ص 80.

(12) البكري، المصدر السابق ص 77.

(13) م. ن. ص 87.

(14) ابن خلدون، المعراج 6 ص 131 السابق، الانفصاح 1 ص 113.

(15) م. ن. ص 270.

(16) الأندلسي، م. ن. ص 119 يوجد هناك صورة لنقش ضرب في عهد الشافعي بالله : الملك دائرية الوجه الأول : باسم الله ضرب هذا الدين سنة ستون وثلاثين وثلاثمائة (363) - محمد رسول الله - الإمام الشافعي لله أما الوجه الآخر فهو واضح ونصيب قرأته وذلك شكوك لعدم حواله وبعد ليدار آخر ضرب سنة 445هـ الوجه الأول : محمد الله - لا إله إلا الله وحده لا شريك له والوجه الآخر : محمد رسول الله - الإمام - الشافعي لله - محمد الله ضرب هذا الدين سنة خمس وأربعين وثلاثمائة (445) - محمد بن اسماعيل، المصدر السابق ص 304 ()

سنة 336هـ كان لها وزنها 19 غم وقطرها 39 علم والتي ضربها سنة 340 هـ وزنها 21 غم وقطرها 40.10 علم⁽¹⁾.

(2) بغو رستم / الإمارة الرسنمية؛

إمارة مستقلة استقلالاً تاماً عن سطوة العباسيين ونفوذهم وكان ينبغي أن تكون "الإمامة" (السلطة) فيها متدولة تطبيقاً لمبادئ الخوارج في موضوع الخلافة الإسلامية ولكنهم تشجعوا النظام الوراثي في الحكم وأوجدوا ما أطلقوا عليه مجلس الشورى² أو "مجلس المستشارين" ويكون الإمام مسلول أمامه عن تنفيذ ما ينص عليه مبدأ الشورى الذي اتخذته الخوارج الإباضيون وكان هذا المجلس يتألف من (الشراة) الخوارج وشيوخ المذهب وزعماء القبائل ووجوهها ويتكون من سبعة من رجال الإمارة وصفوا بأنهم أصحاب الصلاح والزهد والعلم وكانت سياسة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الإمارة تقوم على إرساء نظمها وإدارتها وذلك بإيجاد القوانين والرسوم التي تحكم مسيرتها كما التزم بسياسة المهالبة مع القوى الخارجية ووضع هدفاً لتحقيق المصالحات السياسية مخالف بنى مدلول وهم إخوانه في المذهب بمصاهرة أحد أشرافها وهو اليسع بن أبي القاسم.

والظاهر أن سياسات الأمراء الأوتل قد أثمرت في تقوية الإمارة وجعلتها تنظم في خطوات ملموسة فأصبحت مثابة لأهل المغرب والمشرق واستحدثت القوانين التي تنظم الأحوال الاقتصادية والعلمية والفنية والاجتماعية في الإمارة وذلك لجميع السكان والطوائف الإسلامية التي هاجرت واستوطنت فيها.

لقد تمخض قيام إمارة الرسنمين ونأسيس مدينة ناهرت حاضرة لها عن تحولات اجتماعية ملموسة في حياة السكان وبخاصة منطقة المغرب الأوسط فقد ترتب عليه الانتقال من حياة البداوة والترحال والرعي إلى حياة الحضارة والاستقرار حيث ظهرت المعالم الحضارية المتمثلة بمختلفاتهم المادية مثل دور الإمارة والقصور والمباني والضياع والمنشآت العامة مثل المساجد والحمامات

¹ Laviu A. M. H. Catalogue des monnaies Musulmano de la Bibliothèque Nationale "Espagne et Afrique" Paris-1891, P 402.

والمساجد ومراكز العبادة والقصور فكان عهد الخليفة بن عبد الوهاب من العهد الزاهرة الذي تلمع في ملكه وامتلى القصور واتخذ لها أبواباً من الحديد والنفاس القاس في البنين حتى ابتنى الناس القصور والضباب واجروا الأتجار إليها⁽⁴¹⁾ وكان الرسميون قد تآثروا ببناء منشأتهم وقصورهم بالتقاليد المعمارية العراقية والسورية فقد كان نظام البناء فيها أشبه بالقصور التي شيدها الخلفاء الأمويون في بلاد الشام⁽⁴²⁾.

إن القبائل التي ناصرت الرسميين وبخاصة لمية ولوانه وهواره وزواشه ومطماطة وزناته ومكناسه قد استقرت في مدينة تاهرت وضواحيها أما قبائل مزاته وسداتيه فكانت تتنجد من مواطنها في مواسم معينة باتجاه المدينة لإصابة الماء والكلأ كما فضلت قبيلة نفوسة البقاء في المنطقة الجبلية قرب طرابلس وعلى أية حال فإن ما ينتقل من جميع هذه القبائل المتنقلة إلى تاهرت يصيغ جزءاً من سكانها ويتحول إلى الحياة الحضرية.

وبمرور الزمن ظهر في مدينة تاهرت خليط سكاني غير متجانس وتعقيدات في طبيعة العلاقات بين سكان المدينة المنحصرين بمظاهر الشرف والبهذ وبين القبائل شاذة أمام أبوابها حيث احتفلت بطبيعتها القبلية⁽⁴³⁾. وتاهرت مثل غيرها من المدن الإسلامية المعاصرة لها برزت فيها طبقة جديدة من السكان هازت على الثراء والعقارات⁽⁴⁴⁾ وأعطى النفوذ والامتيازات في الإمارة والحكومة⁽⁴⁵⁾.

إن هذه الطبقة الاجتماعية كانت تسعى لضمان مصالحها وديمومتها وكان عليها أن تتطلع إلى السلطة وتنتزع لها صلاحيات داخلها وتعمل على تكريس نفوذها

⁽⁴¹⁾ ابن الصغير المالكي، أعيان الأئمة الرسميين من 26، نفوس، الأزهري، الرياضية من 42.

⁽⁴²⁾ لم ينقل من هذه المنشآت شياً يذكر حيث تفرجت عمارتها وأصبحت أطالاً وإن الاستنتاجات تقوم على المصادر التاريخية بهذا الخصوص.

⁽⁴³⁾ د. العبيب الخليلي، المغرب الإسلامي من 113.

⁽⁴⁴⁾ يمكن أن نطلق على هذه الطبقة الأرستقراطية كما هو الحال بالنسبة المدن الإسلامية الأخرى في حقبة العصور الوسطى.

⁽⁴⁵⁾ ابن الصغير المالكي، أعيان الأئمة الرسميين من 26-31.

وكان لهذا أثره الواضح في نشوب الثورات والانقلابات وحدثت دوامة من القوضى السياسية ومزيد من الصراع المصحوب بالموااسرات داخل سلطنة الإمارة.

وكان الانصراف إلى الحياة الاقتصادية قد ترتب عليه قيام حركة التطور الإجتماعى فادى إلى حياة مترفة وبلاغة وتحولت مدن غدامس وورجلان وودان وزويلة من مجرد قرى صغيرة مغشورة على حافة الصحراء إلى منافذ وتطور داخلية أهلة بالحركة والنشاط كما عدت مراكز حضارية تزدهر بالعلم والثقافة والسياسة والفن⁽¹⁾.

ولدينا بعض المعلومات عن التحولات الاجتماعية التى أصابت الرسميين لدى مضمار الحضارة وعن تشبههم بالمشاركة فى امتلاك القصور والضياع والمنازل والحصون واقتناء الجوارى والعلمان والعبيد والعشم والانصراف إلى حياة الترف والولع بالفنون والآداب وإقامة الأسطة والمآكل للاطعم فى أيام الأعياد والمنصب الاحتفالات والمهرجانات التى كانت تحضرها الوفود من العامة والأجناد أو من الخاصة والأمراء ورجال الجيش والبلاط أو من وفود الدول والإمارات الأخرى وسفاراتهم⁽²⁾.

ومن التطورات التى شهدتها المجتمع الرسمى ظهور المرأة على مسرح الأحداث السياسية والاجتماعية فقد كان لبعضهن دور فى الحركة والدعوة الانباضية⁽³⁾ كما أسهم بعضهن الأخر فى الحياة الفكرية والثقافية حيث كن يحضرن الدروس والمحاضرات التى كانت فى المساجد⁽⁴⁾ ومن النساء اللاتى برزن فى السياسة 'غزالة' أم شبيب بن يزيد الشيبانى و'غزال' زوجة لى البقطان محمد بن

⁽¹⁾ د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 217.

⁽²⁾ الفوسى، الأثر التاريخى ص 11، 25، 48، ابن الصعر الملقى أخبار الأئمة الرسميين ص 31-34-49-52.

⁽³⁾ التملقى، السير ص 193.

⁽⁴⁾ لقد كان فى كل مسجد قسم خاص للنساء يفصله عن قسم الرجال جدار مطروم يستر النساء ولا يوجب عليهن صوت العفرس.

أبي البقطان التي أرغمت زوجها على تقديب ابنها يوسف ولاية العهد و /دوسر
 ابنه يوسف بن محمد بن أبي البقطان التي كان لها دور معروف في الأحداث التي
 أدت بالإمارة الرستمية⁽¹⁾. أما من برز في علم الفلك والتجوم فنحن لخت عبد
 الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حيث نالها ألقابها الفلك في تتبعه واهتمامه بهذا
 العلم⁽²⁾.

وتتقارن التطورات الاجتماعية في إمارة الرستميين بالتحويلات الاقتصادية التي
 شهدتها والزراعة التي في مقدمة الاهتمامات التي تصرف الناس إليها حيث
 شهدت ازدهاراً ملحوظاً ولعل أوضح صورة للنشاط الزراعي ما يذكره الأصبغري
 بقوله: "إن مدينة تاهرت كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه"⁽³⁾ وكذلك
 ما أشار إليه المعنسي وهو من أهل القرن الرابع الهجري ومعاصر الرستميين
 قوله: "إن تاهرت عاصمة الرستميين قد أحيط بها الأنهار والتفت بها الأشجار
 وغابت في البساتين ونبت حولها الأعين"⁽⁴⁾ ويؤكد معاصره ابن حوقل أن أهل
 تاهرت اتهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وهي إحدى
 معادن الثواب والمناخية والقم والبقال ويكثر عندهم الصل والسمن⁽⁵⁾ والظاهر
 أن الاهتمام بالزراعة استمر حتى بعد زوال إمارة بني رستم فيذكر البكري في
 القرن الخامس الهجري "إن تاهرت تقع في سلج جبل على نهر يسمى (مينه)
 ونهر آخر يجري على عيون تجتمع يسمى (تانش) ومنه شرب أهلها وأرضها
 وفيها جميع الثمار وسفرجلها بلوق سفرجل الأفلاق حسنا وطعما ومشما"⁽⁶⁾ أما

⁽¹⁾ انظر لاسماتة، د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 218، محمد علي دبور المغرب الكبير ج3
 ص 109.

⁽²⁾ الشافعي، السير ص 193.

⁽³⁾ المالك والممالك ص 34.

⁽⁴⁾ الحسن الفلاس ص 228.

⁽⁵⁾ صورة الأرض ص 86.

⁽⁶⁾ المغرب ص 66-67.

صاحب كتاب الإستبصار فيؤكد المعلومات التي جاءت عند البكري أن تاهرت في منطقة بساتين كثيرة فيها جميع الثمار⁽¹⁾ كما يتحدث عن قلعة هوارا بضواحي تاهرت أنها قلعة متبعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأغاب⁽²⁾.

أما المناطق الزراعية، فاهمها منطقة الجانب الغربي والشمالي من الإمارة وتشتهر بزراعة الحبوب ومنطقة الجانب الشرقي وهي بلاد نفوسة وتمتلك بالكروم والأغاب والتين والحبوب ومنطقة جربة الشهيرة ببساتين الزيتون والتخيل والكروم ومنطقة الجنوب وهي موطن التخيل ومنطقة الواحات ومنطقة وأرجلان الكثيرة لزراع والضرع من الحبوب والتخيل ومنطقة بلاد الجريد وهي لمسطحية وغلبة تلتج التمور والحبوب والخطرة والشعير⁽³⁾ وينتفاد من إشارة النفوسى وهو مورخ مطلع نقل معلوماته عن الرسميين من مصادر متعددة أن الرسميين اختاروا موقع عاصمتهم في مكان 'جبد الهواء كثير المياه خصيب الأرض'⁽⁴⁾ والظاهر أنهم اقلنوا من هذه المياه إذ شقوا القنوات فزرعوا الكتان والمشمس وسائر الحبوب وغرسوا الأشجار وأقاموا البساتين⁽⁵⁾.

والى جانب الزراعة في إمارة فرستيين ظهر الاهتمام بالصناعة التي كانت تقوم خيرة الصانع والمهرة وأصحاب الحرف من الأصهار والأقطار السذين استوطنوا تاهرت، والعدن الأخرى فبرزت صناعة المنسوجات الصوفية والكتانية والفطوية والحربية والزراعى للمركشة وصناعة القوارير الزجاجية والوانسى الخزفية البراقة والعلونة والحلى الذهبية والفضية والوانسى النحاسى الأحمر والأصفر المنقوش والخشب المحفور والمموه والمرصع بالعاج أو الصدف والمصنوعات

⁽¹⁾ مجهول ص 176.

⁽²⁾ م. ن. ص 178-179.

⁽³⁾ بحار إبراهيم بكير، الدولة الترستية رسالة ماجستير لم تطبع بعد، الورقة 150.

⁽⁴⁾ الأجلل الرباعية ص 134.

⁽⁵⁾ البكري، المعصر الصائيل ص 68.

الحديدية بأنواعها مثل الأسلحة والأقفال والأواني والتحف المعدنية وصناعة
الافلوية والطور والأفوية المركبة والعقاقير الطبية وأنواع الصبغة ذات اللون
الزاهية⁽⁴¹⁾ وصناعة ضرب النقود والسكة من الذهب المطلوب من بلاد السودان⁽⁴²⁾.
وهناك صناعة مرتبطة بالزراعة والماشية مثل صناعة المحاريت والمناجل
والفؤوس، كما توجد معاصر الزيتون ومطاحن القمح الموزعة على الأنهار
العديدة⁽⁴³⁾.

ومن الجدير بالذكر أن وفرة المناجم والمخارج في بلاد الرستميين ساعد كثيرا
على ظهور معظم الصناعات وارتقائها وتطورها وكثرة المشغلين فيها من
العناصر غير المغربية مثل الأندلسيين والعرب المشارفة واليهود الذين كانوا
يقيمون في تاهرت⁽⁴⁴⁾ وجاء عند الدكتور الجنتاحي أن الحفريات التي أجريت في
منطقة تاهرت عثرت على قطع من الخزف والأواني نالت على وجود صناعات
يدوية فيها كما أن المدينة عرفت مصانع تنتج الأواني وما تحتاجه حركة البناء
والاسما القصور والمنازل والمباني من الخزف والمنقوشات الملونة⁽⁴⁵⁾.

أما النشاط التجاري في إمارة الرستميين منذ أخذ دوره في التحولات الاجتماعية
حيث لعب التجار الرستميون دور الوسيط التجاري بين المشرق الإسلامي والمغرب
الإسلامي طوال فترة القرن الثالث الهجري فكانت التجارة تنقل عبر الصحراء من
بغداد والبصرة وتملك الطريق نفسه الذي يؤدي إلى تاهرت وسجلماسة عاصمة
بنو مدرار كما نقل الرستميون تجارتهم إلى بلاد الأندلس حيث وصلوا إلى مراكش
المهمة مثل شاطبة ونديمير ومرسي ألفة⁽⁴⁶⁾ كما استقبلوا التجار الأندلسيين.

⁽⁴¹⁾ أبو زكريا، السيرة وأخبار الأئمة الورقة 41-42-37، المروجي، طبقات الأمازيغية الورقة 47.

⁽⁴²⁾ ابن الصغير المالكي، أخبار الأئمة الرستميين ص 12، 13.

⁽⁴³⁾ د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205 - 206.

⁽⁴⁴⁾ القفوسي، المصدر السابق ص 9.

⁽⁴⁵⁾ د. محمود اسماعيل، المصدر السابق ص 205.

⁽⁴⁶⁾ بحدار إبراهيم بكري، المصدر السابق الورقة 193-195.

ويمكن القول، إن مناطق الإدارة الرسمية أصبحت محطات لرحيل القوافل من المشرق والمغرب والأندلس على السواء ويبدو أن طائفة من التجار العراقيين كان لهم مساجدهم ومنازلهم وفنادقهم وأسواقهم الخاصة⁽¹⁾ مما يشير إلى اهتمام الرستميين بتجارة المشرق وإيلاء التجار المشاركة رعايتهم فكلّفوا لهم الحماية والأمان في طرقهم وبلاطهم⁽²⁾.

ومن مظاهر الحركة التجارية ما كان يفد من تجار القيروان إلى تاهرت وما كان يخرج من تاهرت إلى القيروان من القوافل التجارية تنقل مختلف السلع والمتاجر وذلك نتيجة للتسهيلات التي كان يقدمها الرستميون للتجار وتأمينهم على نقل التجارة وكثيراً ما أثر بعض التجار والعراقيين الأندلسيين والعدراريين والعراقيين وغيرهم الإقامة في تاهرت والعمل في أسواقها وحوانيتها.

وكان الرستميون يستوردون كثيراً من السلع والامتعة من بلاد السودان وأهمها الذهب الخام لاستعماله في ضرب النقود والعملة أو لاختلاطه حالياً وكذلك ريش النعام وجلود الحيوانات والأبنوس كما استوردوا السلع الأندلسية عن طريق الموانئ في تنس ومستغانم ووهران وكاتوا يصدون الثياب الفطنية والكتانية والحريرية التي كانت تشتهر بها قرطبة⁽³⁾ كما تصدر إلى السودان المنسوجات الصوفية والكتانية والحريرية والأواني الزجاجية والخزفية والأسواق والتحف المعدنية والعطور والبحور والأفاوية⁽⁴⁾ إضافة إلى المنج والتحابس والتودع⁽⁵⁾ كما خرجت قوافل الرستميين إلى بلاد الأندلس حاملة الفصح والعاج والجلود المصنعة التي كانت تحصل عليها خاصة من السودان وغلّة⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ د. محمود اسماعيل، المصدر نفسه ص 209.

⁽²⁾ يحر إبراهيم بكير، المصدر نفسه الورقة 175.

⁽³⁾ ابن الصغير الملقب ص 18.

⁽⁴⁾ الطومسي، الأذهار الرياضية ص 137.

⁽⁵⁾ الطغلندور، صبح الأعشى ج 5 ص 164.

⁽⁶⁾ د. السيد عبد العزيز سالم ج 2 ص 577.

ويشير الأسطخري إلى الطريق التجارية التي كانت تربط كلا من تاهرت وسجلماسة وكانت مسافته بينهما تقرب من خمسين مرحلة⁽¹⁾ وهذه الطريق كانت تعج بالقوافل من كلتا العاصمتين وهي محملة بالسلع والمنتجات لغرض تبادلها. ولا غرو فإن نشاط التجار الرسميين ترك آثاراً اجتماعية في مدينة تاهرت وتجد كثيراً من التفاصيل عند المؤرخين والجغرافيين عن مظاهر العمران والرفاهية وتنوع الحضارة في هذه المدينة ونخص منهم ابن الصغير المالكي الذي يشير إلى أن أهل تاهرت "علت وجوههم سيماء الحضارة والرفاهية وبست من محياهم آثار التبعة والغنى"⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن منطقة ورجلان ومدينة ورجلان في الصحراء كانت من أكبر القواعد التجارية في الإمارة الرستمية وتتركز تجارتهم مع السودان فيذكر النفوسي بهذا الصدد قائلاً: "وكان أكثر المسافرين لتجارة السودان في ذلك العهد من أهل مدينة ورجلان وهواره"⁽³⁾ كما أن قبيلة هواره من أكثر القبائل التي تولت النشاط التجاري في شرق طرابلس وفي المغرب الأوسط وفي الصحراء وفي تاهرت وفي جبال أوراس وفي المغرب الأقصى وقد تخصصت في التجارة مع بلاد السودان⁽⁴⁾ فضلاً عن أن أهل جيل نفوسه وهم رعايا في الإمارة الرستمية قد تولوا مهمة النشاط التجاري مع السودان. أما تجارة الرستميين مع مصر فقد كانت هواره ونفوسة وبعض القبائل الأخرى تتولاهما فقد كانت تجوب صحراء سرت نافذة البضائع التجارية بين المدن الرستمية في المغربيين الأثني والأوسط وبين مصر⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ المالكي والمالك ص 37، 38.

⁽²⁾ لغير التهمة الرستميين ص 13.

⁽³⁾ الأزهري الرياضية ص 174.

⁽⁴⁾ محمد علي بوز، تاريخ المغرب الكبير ج3 ص 348 (جاء أن قبيلة هواره تشكلت مدينة اعطار) وجعلتها مركزاً لتجارتها مع السودان.

⁽⁵⁾ محمد علي بوز، المصدر نفسه ص 351.

(3) الأدارسة / إماراة الأدارسة:

إماراة مستقلة، وهي تمثل آمال العلويين في إقامة كيان سياسي لهم طالما افترقوا في المشرق الإسلامي بعد أن خذلهم العباسيون غداة إسقاط دولة الأمويين هناك، إذ كانوا يطمحون لتكوين دولة ترتكز على مقومات سياسية وإدارية وقد حققوا أهدافهم حيث برزت إمارتهم في المغرب الأقصى، وهي تتخذ في الإجراءات العباسية التي كانت تستهدف القضاء عليها وتصفية أمراتها.

كان نظام الحكم في إمارة الأدارسة وراثياً، حيث تولاها عشرة أمراء جميعهم من سلالة إدريس بن عبد الله، وبعد وفاة إدريس الثاني تولى ابنه محمد لتقسم الإمارة إلى أصقال (وحدات إدارية) لكل عمل منها دواوين وكتّاب وجباسة. وقد تمتعت إمارة الأدارسة بالسيادة والقوة والمنة واستطاعت أن تبسط سيطرتها على أغلب القبائل المغربية في منطقة المغرب الأقصى ومنها أوربة وضمدنة وزلائكة وزوارة ولواتة وسدراتة ونظرة ومكنة وضمارة، لذلك يمكن القول أن قيام الإمارة يمثل في جانبها الاجتماعي اتجاهًا يبلور صيغة لحركة جديدة ذات طابع قومي- إذا صح التعبير - فقد قامت على جهود هذه القبائل وكان نصيبهم لدعوة الأدارسة قد تم بانتصارهم منطلقين من مبدأ أحقية العلويين وهم آل البيت في خلافة العباسيين لأنهم ورثوا باعتقادهم على النبوة وأسس الحكم وقد أفضت حركة الأدارسة إلى حركة ذات طابع معنوي وأصبح لحكمهم آثار مهمة في كيان المجتمع، إذ اعتمدوا مثل الإسلام وشريعته ومبادئه وأفقاره فوائين أساسية تنظم حياة المجتمع والفرد وتسيره وتحولت حياة القبائل إلى الاستقرار الاجتماعي في داخل المدن وأسهمت في التحولات الاجتماعية والاقتصادية وأحدثت تطورات واضحة في ثقافتها وعاداتها.

تتميز الحياة الاجتماعية في مدينة فاس، بعدوتها، عترة الانتماسيين وعدوة القرويين، بالاستقرار والأمن والنصراف الناس إلى مزولة أعضائهم فادى ذلك إلى العمران والازدهار وقد جذبت هذه المدينة إليها كثيرا من بطون القبائل والوافدين فأصبحوا من سكانها ولعل إرساء الحكم على أسس قوية كان يشجع هؤلاء

وغيرهم على الاستقرار في المدينة، فيشير الجزائى الى ان المستقامة الأمر
إبريس بن إدريس في المغرب الأقصى، ونوط ملكه وعظم سلطانه وقوة عسكره
جعل وقود الناس إليه من سائر البلدان .⁽¹⁾

والى جانب القبائل المغربية من زناتة وأوربة وصنهاجة وشرارة فقد ضمت
فاس نحوا من خمسمائة فارس من الأريفة والأندلس وهم من العرب وأغلبهم من
القبليين الأزد والخزرج ومذليج وبنى يصب، وينكر ابن خلدون ان إدريس بن
إبريس قد سر بوفائهم عليه ونزوعهم الى بلاد فاجزل لهم ووصلهم وقربهم منه
وجعلهم بطائفة واستوزر منهم عمير بن مصعب الأزدى الملقب بالملجوم .⁽²⁾

وشهدت فاس ازدهارا في العمران في عهد يحيى بن محمد بن إدريس فهبت
فيها الحمامات والفتاك للتجار وبنيت الأرياض وأسست أم البنين فاطمة بنت
محمد الفهرى المسجد الجامع بدعوة القرويين⁽³⁾ وفى هذا الإطار تلقى الجغرافيون
ضوءا مليداً على الحياة الاجتماعية في مدينة فاس فيصفها اليعقوبى أنها كثيرة
العمارة والمنازل⁽⁴⁾ ويشير ابن حوقل الى الفتن الدائمة والقتل الذريع المتواصل
بين أهل العدوتين⁽⁵⁾ ولعل هذا المؤرخ يشير الى الأحداث والفتن التى وقعت فيها
نتيجة تدخل الأغلبية والفاطميين وأصول الأندلس بشؤونها الداخلية واستعداد
السكان بعضهم على بعض والظاهر ان هذا الوضع استمر حتى القرن الخامس
الهجرى فيذكر الإدريسي الفتن والمطبات بين المدينتين (أى العدوتين) ثم يخلص
الى القول ان أهل مدينتي فاس يقتل قتيالهم بعضهم بعضاً⁽⁶⁾ .

⁽¹⁾ زهراء الأس فى بناء مدينة فاس ص 13.

⁽²⁾ المعري ونبوي الشبلى والخزرج 4 ص 26، الجزائى، المصدر نفسه ص 13.

⁽³⁾ ابن خلدون ن المصدر نفسه ص 29.

⁽⁴⁾ كتاب البلدان ص 357.

⁽⁵⁾ صورة الأرياض ص 90.

⁽⁶⁾ نزعة المشرق ص 75-76.

وقد ضمت مدينة فاس فضلا عن القبائل الموالية للإمارة المتحضرين وبعض العرب الوافدين والأطراف والاندلسيين عددا من اليهود حتى أن الهكري يؤكد أن فاس المر بلاد المغرب يهودا يختلفون منها في جميع الآفاق⁽¹⁾ وربما ترك هؤلاء اليهود تأثيراتهم الاجتماعية نظرا لثورهم في الحياة الاقتصادية حيث أن أغلبهم كانوا تجارا أو أصحاب أموال وعطارات أو مرابين أو كانوا يزاولون أعمالا ومنها تتصل بالعمال والنفود.

ولمنا نستطيع أن نستنتج مما جاء عند بعض المؤرخين حول قيام إدريس بن عبد الله مؤسس إمارة الإمارة بفتح بلاد تامسنا وسالة وتاولا وعاسه التي كان يقرر سكنها على دين النصرانية واليهودية والمجوسية أن بعض هؤلاء ربما هاجروا إلى مدينة فاس واستوطنوها وقد أشار إلى ذلك الهكري بقوله: أن هناك قوما من قبيلة زراغة يعرفون بنى الخير وقوم زنقة يعرفون بنى برعش كانوا يدينون بالمجوسية والأخر باليهودية وبعضهم بالنصرانية يستوطنون المناطق القريبة من مدينة فاس وقد نزل بنو الخير في عهدة الغوريين وبنو برعش في عهدة الاندلسيين⁽²⁾ ولكن لا توجد معلومات تشير إلى حدوث الفوضى والاضطرابات في داخل المدينة بسبب تباين الأديان والنزعات ولعل سياسة الإمارة التي كانت تقوم على التسامح من جهة ونشاطهم في التأثير الاجتماعي والاقتصادي على أهل الذمة ونشر الإسلام بين صفوفهم من جهة أخرى كان عاملا أساسيا يحول دون ذلك.

لقد أسهمت القبائل المغربية المنضوية تحت نفوذ الإمارة إلى جانب الفئات الأخرى من السكان بعد التطورات السياسية والاجتماعية التي شهدها الإمارة بقسط كبير في عملية التحولات الاقتصادية وتكثيف التأثيرات التي أحدثها هؤلاء

⁽¹⁾ المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص 115.

⁽²⁾ المغرب ص 114.

في مجالات الزراعة فيما كانوا يقومون به بتحويل الأراضي والمناطق التي بسطوا عليها سيطرتهم إلى أراضي صالحة للزراعة وطالما نسمع عن مزاولته السكان والصرافهم إلى الزراعة والاهتمام بمتطلباتها⁽¹¹⁾ فيتحدث اليعقوبي عن التهر العظيم الذي يقال له 'فاس' وهو اعظم من جميع انهار الأرض⁽¹²⁾ وربما تكمن أهميته في الاعتماد عليه في الإرواء للزراعي ويؤكد ابن حوقل أن هذا النهر كبير غزير المياه⁽¹³⁾ مما ساعد على تحويل منطقة فاس إلى أراضي خصبة صالحة للزراعة وتبدو مظاهر الاهتمام بالزراعة فيما كانوا يقوم به فاس من العناية ببيساتينهم التي كانت تحوي أنواعا من الثمر فيقول البكري في معرض حديثه عن مدينة فاس وعلى باب دار الرجل فيها رحاء وبساتينه بأنواع الثمر وجدول الماء تغري داره⁽¹⁴⁾ ونلغ المعلومات التي جاءت عن اختيار موضع مدينة فاس وتخطيطها وينالها تليدنا في الاستنتاج ان هذه المنطقة كانت منطقة زراعية حيث جاء ان المكان الذي اختير لإقامة المدينة فيه عيون كثيرة تزيد على المسكين عينا وان مياهها تغيض على الأرض فسحة فتروى الفيض ذات الاشجار الملثة المطردة للعيون والأنهار⁽¹⁵⁾.

أما في مجال التجارة فلابد ان يكون إمارة الإدارة بحكم موقعها في المغرب الأقصى على طرق القوافل التي كانت تربط فاس بعواصم بلاد المغرب ومنها تاهرت والقيروان وسجلماسة، دور ملموس في النشاط التجاري حيث كان لها نصيب من تجارة المشرق الإسلامي التي كانت تصل من بغداد والكوفة والبصرة ومن حلب ودمشق وطبرية والفسطاط والإسكندرية. وكذلك لم نعدم وجود صلات

⁽¹¹⁾ م. ن. ص 115.

⁽¹²⁾ البلدان ص 357.

⁽¹³⁾ صورة الأرض ص 90.

⁽¹⁴⁾ المغرب ص 117.

⁽¹⁵⁾ انظر: د. السيد عبد العزيز سالم، استنتاجه الذي توصل اليه من قراءة بعض النصوص المختلفة بتأسيس مدينة فاس في عهد إدريس الثاني (المغرب الكبير ج 2 ص 490).

تجارية مع إمارات الخوارج في المغربين الأدنى والأوسط فتتميز المصادر التي انتظام سير القوافل بين فاس وسجلماسة حيث كان الطريق ممهداً بين المدينتين ويبدأ من فاس إلى صفروى فقلعة مهدى فتأوله ثم إلى وادي شعب الصفا ثم يمر عبر الجبل الكبير إلى الجنوب حيث تقع مدينة سجلماسة وكانت القوافل تترك هذا الطريق فتخرج من باب القوارة في مدينة فاس إلى سجلماسة ويؤكد المؤرخون توافد الكثيرين من التجار وطلبة العلم من فاس إلى سجلماسة ونشاط التجار المدبرين الواسع في أسواق فاس^[1].

وعلى الرغم من أن معلوماتنا عن السلع والمتاجر التي كانت تصدرها إمارة الإمارة إلى المراكز التجارية في المغرب الإسلامي أو عن طريقها إلى المشرق الإسلامي نادرة ولكن على ما يبدو أن السلع والبضائع التي كانت ترد إلى فاس هي نفسها التي كانت تصدرها تاهرت وسجلماسة والقيروان وأهمها الفستق من مدينة قفصة والمسكر والتمون والراوية والأخذية من سجلماسة وكذلك الفميج والكروم والتمر فضلاً عن الثياب والمطرزات القطنية والمنسوجات الحريرية والصوفية والكتانية كما كانت تأتيها القوافل الإحاجية وأناس الخزاف والتحف المعدنية والعطور من تاهرت وذلك على الرغم من أن العلاقات التجارية بين فاس وتاهرت كانت في نطاق محدود^[2].

وتوجد لدينا معلومات قليلة ومشتقة عن عملة الإمارة من الدراهم والديناتير ولكن الاستدلال يلقى بروفتمبال يبقى هذه المعلومات ويعززها ببيعونه واستنتاجاته فقد وجد في المكتبة الأهلية بباريس درهما ضرب في مدينة فاس سنة 189 هـ، وفي متحف مدينة طاركونف، درهم آخر ضرب في مدينة فاس سنة 185 هـ كما عثر على عملات يظهر فيها اسم إبريس الضربت في مدينتي ولبلى وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات 181 هـ ، 182 هـ ، 183 هـ واستنتج ذلك أن

^[1] ابن أبي زرع الأندلس المطبوع ج 1 ص 53، الأندلسي، ترجمة المشتاق من 10 الجزئيات، زغرا، الإس
ص 29 ثم انظر د. محمود الساعدي، الخوارج في المغرب من 208-209.

^[2] ابن خلدون، المعر ج 4 ص 422، ابن الخطيب، أصل ص 13.

كذلك أن معظم الصناعات التي تعمل اسم إدريس بن إدريس ضربت في مدينة العالية (أي عدوة الاندلسيين) في سنوات 198هـ - 207هـ - 208هـ - 209هـ - 210هـ - 214هـ⁽¹⁾ ويشير ابن خلدون إلى أن فاس كانت مركزاً لضرب المسكة وصناعتها⁽²⁾ ولكن من المؤسف لا يوجد لدينا ما يشير إلى حجمها وعياريها وقطرها ووزنها وأقياسها.

وهناك إشارات كل على وجود بعض المظاهر الصناعية في إمارة بني إدريس فنشاهد على نهر فاس ثلاثة آلاف رعي منصوبة تظعن الحنطة بشن قليل⁽³⁾ كما توجد الأرزاء لرفع المياه من النهر إلى الدور والمساكن أو إلى قنساتين والأراضي للارواء وإن هذه المطاحن والأرزاء كان يشغلها الصناع والمهرة والحرفيون وذلك بقوة جريان الماء وكان أغلب هؤلاء من القرويين أو الاندلسيين لتركوا تأثيراتهم في الحياة الاقتصادية فأنشأوا الأسواق والحوانيت وأقاموا الدور والحوانيت للبيع والشراء كما زاولوا بعض الصناعات المرتبطة بأعمال البناء والعمران.

أما المعلومات التي أوردها الجزنائي فيما يتعلق بوجود صناعة الاطرزة بواسطة أنوال الحياكة التي كانت تعمل النسيج وكذلك صناعة الصابون الذي كان يعد من أهم مستلزمات المدينة وصناعة دباغة الجلود وصناعة تشبيك الحديد والنجاس وصناعة عمل الزجاج وصناعة الورق والطابوق في مدينة فاس فسي عصر دولتي المرابطين والموحدين⁽⁴⁾، أن هذه الصناعات لابد أن تكون استمرورا لما كانت عليه في عهد الإمارة .

⁽¹⁾ الإسلام في المغرب والاندلس من 15 - 19

⁽²⁾ المغرب من 423

⁽³⁾ زهرة الأسي في بناء مدينة فاس من 33.

⁽⁴⁾ زهرة الأسي في بناء مدينة فاس من 33.

(4) الأغالية / إمارة الأغالية:

تتمثلت إمارة الأغالية في مناطق المغربين الأدنى والأوسط، وكان بنو الأغلب قد نصبهم العباسيون ولاية شبه مستقلة يحكمون ويحافظون على مناسك العباسيين ونفوذهم الروحي والمادي في تلك المناطق ويقفون ضد توسع الإدارة والخوارج بعد قيام إماراتهم. فشرعت فوقيتهم وأنظمتهم وفقاً لذلك ووجهوا جيوشهم لصد لهجمات المعتزلة التي قد تقوم بها العناصر المناوئة للخلافة العباسية أو لمبارزتهم بالهجوم على المناطق والأحياء التي تسيطر عليها تلك العناصر ولكن بعد انتهاء عهد إبراهيم بن الأغلب مؤسس الإمارة ونسولي ابنه زيادة الله بدؤوا بتجاهلون إلى حد ما مطالباتهم للعباسيين خدمة لمصالحهم التي استجذبت وذلك نتيجة للظروف والمعاملات التي كانت تلف المغرب الإسلامي وبعد أن واجهوا كثيراً من التعصبات على مدى نصف قرن من بداية تنصيبهم في المغرب وغربية وجودهم منفردين في الدفاع عن الخلافة العباسية

ويمكن القول، أن الاستقلال المحدود الأنفي الذي فرضه الخليفة العباسي هارون الرشيد لإمارة الأغالية حدوته اشتراطات الضمانات المالية والاستمرار يدفع ما أطلق عليه الجزية السنوية لبيت مال الخلافة والتزام أمراء الأغالية بتسديد هذه الإعانات وتنفيذ إجراءات الخلافة بحكم على هذه الأخيرة تقييدهم بولاياتهم وتزويدهم بشعار التقليد والخلق والإعلام مما يجعل حكم الإمارة يتخذ أسطوريا وراثيا فنولاهما أحد عشر أميراً تميز الأول منهم بالقوة والتفوق مما فتح لهم الانصراف القيام بالإصلاحات فقد اتخذوا إضافة إلى القيروان عاصمة لهم، ومدينة القصر القديم العباسية¹⁴ أنقلوا إليها بعد اكتمال بنائها مسلحهم وعددهم وسكنوها مع عبيدهم ورجالهم وأصبحت دارهم ومستقرهم¹⁵ وهذا لا يعني إهمال القيروان فقد لحقت لهم حضارتان تتألفان اجتماعيا وثقافيا.

والظاهر أن تغلب بنو الأغلب لحاضرة جديدة، لم يغير في البناء الاجتماعي لمدينة القيروان حيث لا توجد لدينا معلومات عن هجرة مؤثرة منها إلى العباسية

¹⁴ ابن الأثير، الكامل ج 4 ص 96

سوى ما وقع اختيارهم على بعض الجماعات والفئات والعناصر التي تؤيدهم سياسيا بل يمكن القول، ان القيروان احتفظت بكيانها الاجتماعي كما زاد في مكانتها اتخذها حاضرة للأغلبية ومركزا سياسيا واقتصاديا حتى وصفت لها أم بصار وقاعدة أنظار، وكانت اعظم مدن المغرب قطرا وأكثرها بشرا وأوسعها لعمالا⁽¹⁾.

وحسب المعلومات التي بين أيدينا فإن القبائل المغربية لا يشكلون نسبة عالية من السكان لإمارة بني الأغلب على الرغم من أنهم يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب الإسلامي وإشارة ابن عذاري إلى طاعة القبائل المغربية لإبراهيم بن الأغلب⁽²⁾ تدلّ على دخول هذه القبائل تحت نفوذه حينما تم خروجها عليه في أميان أخرى مما يجعل استقرارهم الاجتماعي متأثرا إلى حد كبير بمواقفهم السياسي، ولكن من الملاحظ ان المشاركة هم الأكثرية في سكان مدينة القيروان.

ان الأغلبية ينتمون إلى عرب بني تميم مما يوفر فرصة لهؤلاء في ان يحتلوا مكانة لا تدانيها مكانة العناصر والقبائل الأخرى، ثم ان الصراع بين العناصر المؤيدة للأغلبية من عرب المشرق وبين عناصر من قبائل المغرب، فتح الأغلبية بضرورة الاحتفاظ بعناصر احتياطية في الجيش يمكن استخدامها عندما تحسب معارضة العناصر المعادية أو الدلاع لوراثتهم الذين ذاقوا الآخرين من سياسة الولاة العباسيين القائمة على التمييز والاضطهاد.

غير أن العرب الذين ألفوا في مدينة بلزمة وبعضهم كان من أعقاب العرب الفاتحين وهم قيسيون وبعضهم الآخر من العرب الشاميين الذين دخلوا البلاد في الحملات العسكرية التي كانت ترسلها الخلافة العباسية لإخماد حركات المعارضة

⁽¹⁾ إبراهيم، لزجة المشتاق ص 110 .

⁽²⁾ همان المغرب ج 1 ص 92.

ضد الأغلبية إلى تكبات أدت إلى تصفياتهم⁽¹⁾. ويشير ابن عذاري إلى أن تصفية الجند العرب البلزميين على يد الأغلبية كان من أسباب القطاع دولة بني الأغلب إذ كان أهل بلزمة في نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين إلى أفريقية عند افتتاحها وبعده، وكان أكثرهم من قيس وكلوا يتكون كتامة فلما قُتلهم إبراهيم استطاعت كتامة ووجدت السبيل للقيام مع قفطاسيين ضد بني الأغلب⁽²⁾.

ويبدو أن ما دفع الأغلبية، قتل هؤلاء وغيرهم من عرب تميم الذين كانوا يستقرون في تونس ويتمتعون بامتيازات كثيرة، اتهم كانوا وراء الأحداث السياسية التي كانت تقوم بها عناصر من قبائل المغرب ضد حكم الأغلبية أو نتائج الأحداث التي كان يقوم بها الخارجون عليهم والتعريض ضدهم وأحياناً الانسداد معهم أو قيادتهم في الثورات التي كانت أن تؤدي بكيان إمارتهم⁽³⁾.

ولعل الجند العرب الذين استكثر منهم الأغلبية في جيوشهم كانوا يشكلون طبقة متميزة ونظامية وبعضهم كان يستقر للحرب وهم يحاولون التمسك بمصالحهم وامتيازاتهم فأعطوا ثوراتهم بوجه الأغلبية وعصائهم في القيروان والمدن الأخرى⁽⁴⁾ وأصبحوا خطراً على إمارتهم وبخاصة في عهد الأمير زائدة الله بن إبراهيم بن الأغلب حتى وصل بهم الأمر إلى درجة اتهم كتبوا إليه أن الرحل عن أفريقية وإلك الأمن في نفسك ومالك فقاتلهم زيادة الله وفضى عليهم⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ في سنة 280هـ استقدم الأغلبية منهم مبعوثاً من يقاتلهم في القيروان واجتهد لهم داراً مجيدة وأعطوا فيها ثم قتلوا جميعاً (ابن عذاري، البيان ج1 ص 123)

⁽²⁾ م . ن . ص 124 .

⁽³⁾ ابن الأثير ، الكاف ج6 ص 104 ، ابن خلدون ، المعرج ج4 ص 419 .

⁽⁴⁾ من ثورات الجند ثورة عمرو بن معاوية القيسي في مدينة الصير سنة 298هـ وثورة ماسور الطنجي بطنس سنة 299هـ وثورة عمر بن نافع في سبيبة سنة 210هـ وثورات في مدينة بلزمة وقد أثار دفع الأغلبية لهذه الثورات عرب تميم وعرب الجزيرة واليمن وباهة وضوادة .

⁽⁵⁾ ابن عذاري البيان ص 201 .

لما الفتنة الاجتماعية الأخرى في إمارة بني الأغلب فهم المشاركة الذين قدموا من خراسان وكان بعضهم جندا في الجيش⁽¹⁾ وكان يعيش غالبية هؤلاء المشاركة في القلاع البيزنطية القديمة في قابس والقيروان، وبونه وباجه ومجانه أو في القلاع القديمة بإقليم تومبدا الروماني مثل قلاع طينة وباغية والاريس⁽²⁾ وقد ترك هؤلاء تأثيراتهم في الحياة الاجتماعية وخاصة في مدينة القيروان حيث كان بعضهم من العلماء والفقهاء أو كانوا من أصحاب الحرف والمهن أو الصنائع.

وهناك في جانب الجند العرب والقبائل المغربية والمشاركة الروم القدم⁽³⁾ وهم من أعقاب سكان قرطاجنة وكانوا يقيمون في القلاع البيزنطية القديمة مثل طينة وباغية وفي مدن الجريد الصغيرة التي يبدو أنها اتخذت ملاذاً لغير العرب من أهل البلاد كما أقام بعضهم في مدينة القيروان باعتبارها حاضرة البلاد وأساساً في الحصول على فرصة عمل يعيشون منه⁽⁴⁾.

ونقرأ كذلك عن وجود الأتراك، وهم نصارى من بقايا الفينيقيين واللاتين أقاموا في إقليم الجريد ومدن قنصة وتوزر ونظفة وتلبوس والجماعة وأقامت طائفة منهم في مدينة طينة ومدينة باغية وفي السهول الساحلية⁽⁵⁾ وقد قامت سياسة بنى النعلب على التسامح معهم وفوائح البعض منهم باعتناق الإسلام فرفض⁽⁶⁾.

ويشكل العبيد السود⁷ الذين جلبوا من منطقة الصحراء أو من بلاد السودان فئة طارئة على المجتمع وقد اتخذ أمراء الأغلبية بعضهم حرساً لهم أو جنداً كما أن هناك "العبيد البيض" وهم الصقالبة الذين حملوا من صقلية وسردانية وقوريسية

⁽¹⁾ من المعروف في الماضي أنه بن الطراف الفقيه الذي قاد الحملة إلى صقلية في عهد الأمير زيادة الله بن إبراهيم كان خراسانياً.

⁽²⁾ د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب العربي ج 2 ص 417.

⁽³⁾ البيهقي، البلدان ص 138.

⁽⁴⁾ د. السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق ص 419.

⁽⁵⁾ م. ن. - ص 420.

⁽⁶⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 122.

ومما طأ وقد سعى هؤلاء بالتفاني ولعبوا دوراً مهماً في إماراة الأظالية من التاجين
الاجتماعية والاقتصادية⁽¹⁾.

ولعل أهم مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية في القيروان خلال هذه الفترة هو
الثراء فقد تجمعت لدى السكان الثروة الذهبية التي كان الحصول عليها ميسوراً
بواسطة الاتجار وكانت هذه المظاهر واضحة في الأسرة الحاكمة وفي بعض الفئات
الاجتماعية وفي طليعتها فئة التجار كما ظهر ذلك في بناء المنازل الرفيعة وفي
التفنن في اللباس والمائل .

وكان المجتمع القيرواني مقسماً إلى فئات اجتماعية علي رأسها فئة التجار التي
كانت فئة بارزة في المجتمع ومحافظة اجتماعيا ويلاحظ أن عدداً من علماء
القيروان كانوا من هذه الفئة إذا اشتغلوا في ميدان التجارة فحازوا على أموال
كثيرة. وهناك فئة الجند وفئة العلماء الذين تعرض عدد كبير منهم إلى الاضطهاد
نتيجة لمواقفهم في مسائل تتعلق بالدين والحياة العامة وفئة أهل الذمة من اليهود
والنصارى التي استقرت في القيروان والظاهر أن فئة الرقيق أو العبيد كانت تشكل
الدعم الأساسية لإماراة الأظالية حيث يبرز دورها في الحياة الاقتصادية فهم القوة
المنتجة الأولى⁽²⁾ ودورها يشبه إلى حد كبير دور طبقة العمال في الوقت الحاضر.
أما الفئة الأكثر عدداً في مجموع السكان فهم طبقة العامة (الفقراء) أو طبقة

⁽¹⁾ فإن بعضهم يشرف على دار السكة فحظت أموالهم على الصلات كما تثلث أسماء البعض منهم
على النقوش الخزفية والعمارات ومن هذه الأسماء المسجلة اسم مسرور الخادم مولى الأكبر ربيعة الله
بن إبراهيم واسم خلف الثاني ونصر وفتح الله تثلث جميعها على قبة المغرب بباص الزيتونة (د. السيد
عبد العزيز سالم، المصدر نفسه ص 428)

⁽²⁾ وقد تعدد اختصاصهم لتعمل عمل الجوّاري في المنزل للخدمة والرضاغة وتربية الأطفال ولشؤون
الطبخ والنظف وجلب الماء وهناك فئة منهم خصصت للزواج وتلك فئات العاديين والتجارين والقبائل
وأصحاب المهن والصناعات المختلفة في كثير من أقاليم الحياة العامة إنظر للاستزادة لـ د. الطيب
الجنحاتي، المغرب الإسلامي ص 42).

السود وهي تتألف من عناصر العيد والإجراء أو النازحين من الريف كما ضمت إليها عددا من النخبة المثقلة وهذه الفئة قد نالها في عهد الأغلبية من التيسر والحرمان ما جعلها وراء الطلب الانتفاضات السياسية والدينية والحركات الاجتماعية في القيروان⁽¹⁾ .

أما الأحوال الاقتصادية التي تميزت بها منطقة المغرب الأدنى في عهد الأغلبية فيزودنا المؤرخ والجغرافي، اليعقوبي بمعلومات مهمة عنها وبخاصة فيما يتعلق بالزراعة والصناعة والتجارة مما يساعدنا على معرفة عوامل الازدهار الإجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي اتم به عهد الأغلبية والظاهر أن قيام إمارة الأغلبية في هذه المنطقة قد رافقه نوع من الاستقرار السياسي والاجتماعي الذي دفع كثيراً من السكان إلى مزاولة الزراعة والاهتمام بمطالباتها فظهرت المناطق الزراعية التي حددها اليعقوبي وأهمها المنطقة الواقعة بين فمودة والساحل حيث اليمساتين والقرى المتصلة ثم منطقة بلاد الجريد جنوب مدينة فمودة ومنطقة بلاد باجة الخصبة إلى الشمال منها⁽²⁾ . وقد أبدى اليعقوبي دهشته لمظهر الخضرة وكثرة الأشجار في هذه المناطق وخاصة الأولى منها وأهم أشجارها الزيتون والتخيل والكروم⁽³⁾ أما المنطقة الأخيرة فكانت متخصصة بزراعة الحبوب وخصوصاً القمح وكذلك الفواكه وقصب السكر وأشهر مدن هذه المنطقة هي "جسولا" التي تقع بالقرب من القيروان وأغلب زراعتها قصب السكر الذي كان ينتج كميات وفيرة⁽⁴⁾ ومدينة تونس التي وصفت بأنها أغنيى شراً وأغنى فاقة من جميع مدائن إفريقية فمن ذلك اللوز الغريب والزمان الضعيف والأترج الجنبل والتين الجارمي والمفرجل

(1) المصدر نفسه ص 85-94.

(2) السكان ص 349.

(3) م. ز. ص 350.

(4) البري، المغرب ص 40.

المتاهي والغاب الرفيع والبصل القلوري⁽⁴¹⁾ ومدينة قصبة التي كانت أكثر بلاد المغرب استنقا ثمرها مثل بيض الحمام وفيها أنواع الفواكه والتمر⁽⁴²⁾. وهكذا أصبحت الزراعة من الضرورات التي تتطلبها الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى فالمحصولات الزراعية والغذائية مثل الحبوب والثمار والكروم والزيتون والتمر وغيرها كانت سلعاً للتجاريتين الداخلية والخارجية وليس أول على ذلك من المعلومات والإشارات التي جاءت عند بعض المؤرخين⁽⁴³⁾ والجغرافيين والبلدانيين⁽⁴⁴⁾.

كما نقرأ عن وجود بعض الصناعات المتقدمة في منطقة المغرب الأدنى التي تيسط إمارة الأغالية سيطرتها عليها، منها صناعة السفن في تونس حيث استمرت دار الصناعة التي أمر بإنشائها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لغرض تكوين أسطول بحري دفاعي لمواجهة الأخطار المثلثة من الإمبراطورية البيزنطية وقد استعن بأقياط مصر الذين كانوا يمتلكون الخبرة والدراية في صناعة السفن⁽⁴⁵⁾ وقد

⁽⁴¹⁾ م. ز. ص 41.

⁽⁴²⁾ م. ز. ص 47.

⁽⁴³⁾ ابن خلدون، التلويح المغرب، ابن الأثير، الكامل ابن خلدون، العز، ابن الخطيب، المحلل الأعظم، المقر، تلح الطيب.

⁽⁴⁴⁾ البوطي، البلدان، ابن حوقل، صورة الأرض، الإصطخر، الملك والممالك الكبرى، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب، المقدس، الحسن التلميم.

⁽⁴⁵⁾ يذكر البكري بناء المسلمين للسفن في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في مدينة تونس (إرشيد) فقد كتب الخليفة إلى أبيه عبد العزيز وكان إليها على مصر حشاك أن يوجه إلى مصر تونس الف ليطي من أقياط مصر باقتهم وأولادهم ويوصلهم إلى تونس وذلك في حسان بن النعمان راء أن بني لهم دار الصناعة لتكون قوة وعدة للمسلمين التي أكثر السدور وأن يصنع بها المراكب ويجاهد الروم في البر والبحر وأن يقر منها على سائل الروم فيسلبوا عن قيسروان سائر المسلمين وتعصبتا لشدهم فوسن ليطي في حسان بن النعمان وهو مقوم بتونس فأمر البحر من مرسى راس إلى دار الصناعة وجو البحر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتهما في المغرب (ص 38-39).

تطورت هذه الدار وتوسعت في صنع المراكب الحديدية التي استخدمت في التوسع البحري⁽¹⁾.

والى جانب دار الصناعة في تونس وقعت الإضافة إلى قيام صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن التي كانت تعتمد على الحديد الذي كان يجلب من مناطق استخراجها في مدينة مجانة⁽²⁾ أما دار الصناعة في مدينة سوسة فلا يقدم لنا البكري تفاصيل كثيرة عنها سوى أنها كانت لتصليح السفن أو كانت مرافقاً لرسو المراكب والسفن الحربية والتجارية للتأكد من صلاحيتها لركوب البحر⁽³⁾.

وكذلك نسمع عن صناعات كانت تقوم على الحديد مثل صناعة السيوف ولحم الخيل والآلات والعهد الحديدية المرتبطة بالبناء والعمران مثل أبواب البوابات والمنازل والمنشآت والقصور والمساجد وأبواب الأسوار والحصون والمحارس والخانات وآلات القطع والحفر وبعض أنواع من الأسلحة. والظاهر أن المحفز لهذه الصناعات وغيرها توفر الحديد والفضة والكحل والزنك والرصاص⁽⁴⁾ حيث قامت صناعات مختلفة مثل صناعة التحف الذهبية والفضية والنحاسية إذ اقتنى منها الأمراء والوجهاء في قصورهم وبخاصة التحف والسروج المفضضة والتجمل المذهبة والسيوف المحلاة وصفوف الأنية من الذهب والفضة⁽⁵⁾.

أما صناعة الزجاج الذي كان مظهراً من مظاهر المدنية واستلزاماتها فهناك ما يشير إلى وجودها في مدينة القيروان، ونهض حي الزجاجيين في المدينة لبيعاً على إدهار هذه الصناعة وكذلك صناعة الخزف المتأثرة بالثقافة العراقية

⁽¹⁾ ومنها الاستيلاء على جزيرة صقلية حيث أصبحت جزءاً من البلاد الإسلامية في عهد الأمير زيادة الله إبراهيم بن الأغلب.

⁽²⁾ البكري، المصدر السابق ص 349.

⁽³⁾ البكري ص 34.

⁽⁴⁾ البكري، المصدر نفسه ص 350.

⁽⁵⁾ ابن عذاري، المصدر السابق ص 138، 148.

والمشرقية، حيث كان الصناع العراقيون يستخدمون الفزينة واجهات محاريب المساجد وأبواب القصور بزخارف التزيينات الخزفية ذات البريق المعنى⁽¹⁾.

وكان لمدينة الفيوان تراثها في صناعة المنسوجات الحريرية الرفيعة والحرير⁽²⁾، كما إن الحياكة في مدينة سوسة كانت كثيرة، وكان يزل بها غزل بياض زنة المثلل منه بمنفادين من الذهب، وكانت متوججات متينة الفيروان من المنسوجات ترسل إليها لإجراء عملية الفسرجة وجمعها ناصعة البياض⁽³⁾، وعرفت مدينة طرابلس بنوع من الأكسية تسمى الكساء الطرابلسي⁽⁴⁾ وهناك صناعة المسجدة المحلية التي اشتهرت بها الفيوان وبعض المدن الأخرى حيث كانت هذه الصناعة استمرار منذ العهد الروماني.

ومن الصناعات المتخصصة التي كانت تعتمد على الإنتاج الزراعي صناعتان أولاهما صناعة زيت الزيتون يستخرج من الزيتون الذي كان ينتج في المناطق الساحلية وفي الأقاليم الزراعية، يوضح اليكزي إن أشجار الزيتون والنخيل تغطي السهول الرملية (بالقرب من مدينة صفاقس الحالية) ففي هذه المنطقة الساحلية بمائتين وأربع متصلة كل منها تضم معصرة للزيت⁽⁵⁾. أما الصناعة الثانية فهي صناعة التبييض أو الشرايب باستخلاصه من القروم التي تنكث زراعتها جنوب إقليم قفورة وقسطنطينية⁽⁶⁾، فضلا عن صناعة السكر من القصب الذي تنتجه مدينة

⁽¹⁾ الشرقى، المصدر السابق ص 35.

⁽²⁾ م.ن. ص 36.

⁽³⁾ م.ن. ص 37.

⁽⁴⁾ م.ن. ص 47.

⁽⁵⁾ م.ن. ص 24، 26.

⁽⁶⁾ وكان أمراء الأغالية يعتمدون على شرايه ومنهم محمد بن الأغلب، بن إبراهيم وزيادة الله بن عبد الله.

جولاً وإنتاج الصل الجيد ، وإجراء تونس بصناعة آنية الماء من الخزف التسي كانت تعرف بالريحية⁽⁴¹⁾ .

أما صناعة السكة والنقود، فقد ارتقت في عهد الأغلبية، وكانت تضرب في دار لضرب أو دار السكة في القيروان وفي العباسية، ويلاحظ أن السكائير الذهبية حافظت على وزنها وحجمها وعيارها طوال عهد الأغلبية، أما الدراهم الفضية فكانت تضرب صخاها أو أجزاء من قطع معدنية صغيرة⁽⁴²⁾ .

وتشكل التجارة في الأجزاء التي تهيمن عليها إمارة الأغلبية من المغرب الأدنى، حجر الزاوية في النشاط الاقتصادي فقد كانت القيروان مركزاً للتجارة العالمية ونقطة لقاء بين المغرب والمشرق الاسلاميين من جهة وبين التجارة (المتوسطة) وقوافل التجارة الصحراوية من جهة أخرى⁽⁴³⁾ حيث استقبلت قوافل التجارة من سائر أنحاء المغرب ومن مراكزها في تاهرت ومجلماسة وفاس وقرطبة وأودغست فضلاً عن بلاد المشرق الاسلامي وبلاد السودان . ولم تكن العلاقات السياسية غير الوثيقة بين هذه الدول والإمارات، لتحويل دون توطيد صلاتها التجارية، فمن جهة ترتبط القيروان بخط سير القوافل الخارجة من تاهرت إلى القيروان وهما والمسيلة وألفة وطينة وباغلية ومجدة وسيببة⁽⁴⁴⁾ كما يربطها خط آخر يخرج من مجلماسة إلى تاهرت ثم إلى القيروان⁽⁴⁵⁾ . أما التجارة التسي كانت تحصل عليها إمارة الخوارج الرستميون والمدرايون وإمارة الأدارسة، من الأندلس، فينقلها التجار إلى القيروان بواسطة القوافل التي اعتادت السير على الطرق المعتادة، ومن جهة كافية، فإن نصيب القيروان ومدين المغرب الأدنى

⁽⁴¹⁾ وهي شديدة البياض ورقيقة وشغافة ليس لها نظير في جميع القطار وعامة الأمصار (م . ن . ص 41).

⁽⁴²⁾ ابن حنّان، البيان ج 1 ص 120-121.

⁽⁴³⁾ منقولة نسبة لبلد المتوسط (بحر ازم).

⁽⁴⁴⁾ العيبب الجمعني، المصدر السابق ص 61.

⁽⁴⁵⁾ الجبري، المصدر السابق ص 143-146.

⁽⁴⁶⁾ الأسطوري، الملك والمملكة ص 37، 38.

الأخرى كبير في تجارة المشرق التي تأتي من بغداد والبصرة فضلاً عن توسط الصلات التجارية بين بغداد وحاضرة العباسيين وإمارة الأغلبية، تلك الصلات التي كانت تعكسها علاقات التحالف بين الطرفين وتجلت القيروان من التجارة الخارجية بكونها إحدى مراكزها، بصناعات وسلعا كثيرة، فتحصل من سجنامة على السكر والكمون والفراوية والاحذية وعن طريق تاهرت وسجنامة تحصل على السلع السودانية التي كانت تزداد أهميتها على البضائع والمواد الأخرى، أما الثياب الفظنية والكتانية والحريرية والأنسجة المعطّزة فكانت تذهب إليها من قرطبة التي نالت فيها شهرة واسعة⁽¹⁾.

والتظاهر أن تجار القيروان، كانوا نشطين في نقل تجارتهم بين مراكز التجارة في العالم الإسلامي، فكانوا يفتتحون إلى عواصم دول المغرب ومراكزه التجارية المهمة فضلاً عن بغداد ومدن المشرق، ويشير ابن الصغير المالكمية إلى حريسة المتاجرة التي كان يخطى بها تجار القيروان في أسواق تاهرت، حيث كانوا يلبون إليها بأعداد كثيرة⁽²⁾.

ونذكر البضائع والسلع التي كانت تصدرها القيروان وأهمها الزيتون وزيت الزيتون والآلات المصنعة من الذهب والفضة والسيوف ولحم الخيل وبعض المنسوجات السوسية والسجاد والتبذ والآلات الحديدية المستعمدة في صناعة السفن والمراكب ولكن التجارة التقليدية للتجار القيروانيين هي تصدير فسق مدينة قنصة الذي ينتشر بأفريقية ويحمل إلى مصر والأندلس وسجنامة وأثواب مدينة طراب⁽³⁾ وتمور مدينة توزر، وتتسرب تجارة هذه السلع إما برا أو بحرا⁽⁴⁾ عن طريق موانئ تونس وموسسة اللتان تمتلكان مراسي مهيبة على ساحل البحر أما في نطاق التجارة المحلية، فيتمود نشاط في تبادل المحصولات الزراعية وبعض

⁽¹⁾ الجبري، صفة جزيرة الأندلس ص 21.

⁽²⁾ أخبار الأئمة الرسنبيين ص 13.

⁽³⁾ والملاحظ أن القاء الطرقي كانت تخلص به التجارة إلى مصر (الجبري، المصدر السابق ص 47).

⁽⁴⁾ الجبري، المصدر نفسه ص 34.

المصنوعات المحلية ويشير البكري إلى تزويد مدينة جلولاء لمدينة القيروان بخصب السكر وأصناف كثيرة من الفواكه والبقول⁽¹⁾ ومدينة سوسة بكثير من الأمتعة والتمر والحب والفواكه⁽²⁾ ومدينة قسصة بالتمر وأنواع الفواكه والتمر⁽³⁾.

وتعكس أسواق القيروان وأسواق المدن الأخرى، صورة عن النشاط التجاري الذي يسود في إمارة الأغلبية وعن حركة التطور العمراني في منطقة المغرب الألسي ومن أسواق القيروان، السوق الكبير الذي يسمى سباط القيروان وسوق اليزاين وسوق الصراجلين وسوق الضرب وسوق الجزارين وسوق الزحاجين وسوق النحاسين وسوق القطانين وسوق الدجاج وسوق الغزل وسوق الخرازين وسوق الأحد وحواشي الزهانة⁽⁴⁾.

وهكذا يبدو التأثير الذي تركه الأغلبية في الحضارة العربية الإسلامية واضحا وجليا فيما خلفوه من معالم حضارية فكرية ومادية، وقد لعبت القيروان التي اتخذوها حاضرة ملكهم دورا أساسيا في ترسيخ المفاهيم الحضارية وغدت مركزا مشعا من مراكز العلم والثقافة والاقتصاد والتطور الاجتماعي فضلا عن كونها دائرة لسياساتهم وقاعدة لجيوشهم وقوتهم العسكرية، لقد اهتموا الاهتمام بإنشاء المدن التي أصبحت محطات علمية، كما أنشأوا العمران الكبير التي احتلت مكانة بارزة في تاريخ الحضارة الإسلامية مثل المسجد الجامع في القيروان وجامع الزيتونة في تونس والمسجد الجامع في سوسة وحصنوا المدن وأقاموا لها الأسوار وحفروا المراجل وأسبوا نوافذ الأسطول الإسلامي.

لقد قدم الأغلبية صورة واضحة عن الاستقلال الذاتي وعن ارتباطهم بسياسة التحالف العرلة مع الخلافة العباسية التي كانت تقوم على إرثه لطبيعة ظروف المغرب الإسلامي فعملوا في إطارها بعيد سياسي فترسخت إماراتهم وتعددت أركانها وتوطد حكمهم.

⁽¹⁾ البكري، المصدر السابق ص 32 .

⁽²⁾ م . ن . ص 34-35 .

⁽³⁾ م . ن . ص 47 .

⁽⁴⁾ د. المحيبي الجعفاني، المصدر السابق ص 67-68 .

(5) الدولة الفاطمية:

قامت الدولة الفاطمية على القضاء بعض الإمارات والدويلات في مناطق المغرب الأوسط والأقصى، وقد افاد الفاطميون من نظمها ورسومها وذلك بعد قيام دولتهم. وكان عبيد الله المهدي اتخذ الإجراءات التي تضمن توطيد سلطته السياسية والإدارية ومنها تلقيه أمير المؤمنين وهو لقب الخلفاء العباسيين دون غيرهم، وتعيين بعض رجاله في مناصب مهمة في الدولة مثل العشرطين والمنظمين لبنت المال وتسمية القضاء للقيروان ورقادة وجعل القضاء مستقلاً عن سلطته ونفوذه وتنظيم ديوان الكتابة والرسائل وديوان الخراج وديوان الحجابة وتعيين العمال والولاة والجبابة والسعاة في عموم منطقة دولة الفاطميين وفي منطقة قابس وتقييد الموالى وأبناء العبيد وأمثالهم في ديوان العطاء واستحداث الدور لضرب النقود والسكة.

ويبدو أن عبيد الله المهدي قد استأثر بما يطلق عليه في الوقت الحاضر بالسلطة المطلقة في الحكم، فسعى إلى تجريد أبي عبد الله قائد جيوشه ومؤسسه الحركة الفاطمية من سلطاته وإبعاد رجاله عنه ثم الإجهاد بتصفيته مبرراً ذلك بأنه كان يسعى إلى إفساد هبة الإمام المعصوم وهبة الدولة والإحاطة به، كما جرد بعض بطون كتامة ممن عهد إليهم وقائف في الجيش والدولة من مناصبهم.

ويمكن القول أن عبيد الله المهدي، استطاع أن يحول الحركة الفاطمية من دعوة سرية إلى نظام دولة تقليدية مستقرة لها رئيس وموظفون رسميون وتقاليده ورسوم وأنظمة وبخاصة فيما يتعلق بالتوابع الإدارية، حيث عهد إلى أنصاره من القبائل أن تقوم بالمحافظة على استتباب الأمن والقضاء على الاضطرابات وتحقيق الاستقرار كل في منطقته وذلك من خلال تولي مناصب القضاء وتنظيم السدواوين والحياة الاجتماعية والاقتصادية بتعيين المحترمين والجبابة والمحصلين ومراقبة الأسواق والإشراف على التجارة واصحاب العنابر.

وعلى الرغم من أن التنظيمات الاجتماعية في القيروان هي استمرار لما كانت عليه الحال في عهد الأغالية الرستميين والمسراريين، غير إن هناك بعض التطورات بعد استحداث مدينة المهدية، فقد ظهرت فيها طبقة جديدة حاكمية كونتها قبيلة كنانة من ملات من بطون قبائل عجيصة وزواوة وزوينة حيث كانت تنتقل بين المهدية ومدينة زوينة، وغفراً عن تميز المهدية بالقصور والمنشآت التي زودت بالمونجل وصهاريج المياه والأهراء وتحصينها بأسوار متينة لها أبواب حديدية، كما عرفت بالأسواق والأرباض والحمامات والفنادق وكذلك مدينة المسيلة أو المحمدية التي جعلها الفاطميون مأوى للزاحين من الأتلس لأغراض سياسية واجتماعية.

أما المدن والمناطق التي كان ورثها الفاطميون عن الأغالية وأهمها رقادة ونونس وفرطاجنة وطرابلس وتنس وبرقة، فقد تحركت لتتخذها بطون قبيلة كنانة وبعض القبائل الأخرى المناصرة لهم موطناً لها فبنيت فيها القصور والبيوت والمنشآت وعمرتها فكانت لها فيها أهل وثرية وجماعة⁽¹⁾.

وكان الفاطميون وجهوا اهتمامهم لإعاش الحياة الاقتصادية، فلم يكد يتم لهم الاستيلاء على أجزاء من المغرب الأدنى وبعض المغربين الأوسط والأقصى حتى استطاعوا أن ينشروا الثراء والرخاء بين رعاياهم لأنهم وطئوا أنفسهم على خلق حضارة تتألف حضارة العباسيين، بل ينبغي أن تتفوق عليها في جميع الميادين وخلال حكمهم المغرب تقرأ كثيراً من النصوص التي تقدم صورة حلية عن هذا الرخاء والعلى الذي كان عليه الناس والذي تجسد فيما بعد في الإزدهار الزراعي ونظم الري والنشاط التجاري وقيام الصناعات وتعددها واستقرار النظام النقدي وليس أول على أهمية الأحوال المالية لدى الفاطميين من توليه عبيد الله المهدي في بداية تأسيس الدولة وقيامها لابي جعفر الخزري على بيت المال وابي القاسم

⁽¹⁾ ابن خلدون- المصدر السابق ص 167

بن القديم لديوان الخراج وإلى بكر الفيلسوف المعروف بإبن العمودي لديوان
السكة والعمودي بن حياصة لديوان العطاء⁽¹⁾.

وفي نطاق النشاط التجاري، فقد ورث الفاطميون عن الأغلبية لمس هذا النشاط
وتتاليه ومؤسساته في بلاد المغرب، فقد آلت إليهم القيرون التي كانت مركزا
للتجارة العالمية ونقطة التقاء للطرق التجارية الداخلية والخارجية إلى بلاد
المشرق والأندلس، كما ورثوا موانئ تنس وسوسة القنات كاتنا ترتيطان بعلاقات
تجارية بحرية مع موانئ الأندلس والإسكندرية وكذلك ما ورثه الفاطميون من
أساطيل بحرية تجارية عن الأغلبية حيث أصبحت من ممتلكاتهم.

وبموجب القول أن النشاط التجاري لمدينة القيرون والمراكز التجارية الأخرى
خلال العهد الفاطمي في المغرب هو استمرار لما كان عليه في أواخر عهد الأغلبية
مع بعض الفروق التي يمكن القول بزيادة هذا النشاط وتوسع المراكز الاقتصادية
وتوطد العلاقات التجارية بعد أن أسس الفاطميون مدينة المهدية فأصبحت ميناء
وقاعدة لتجارهم مع الإسكندرية وبلاد الشام والعراق وصقلية والأندلس⁽²⁾.

وأخيرا فلا غربة إذا ما أتركنا عمق التأثيرات التي تركها الفاطميون من
جوانبها الاجتماعية والاقتصادية، لقيام الدولة الفاطمية في المغرب وانتقالها إلى
مصر هو أهم الأحداث السياسية في القرن الرابع الهجري حيث أمنت سلطانهم على
معظم بلاد المغرب ومصر وبلاد الشام والجزيرة الإفريقية وكان لهم دعاء ميثسون
في كل صقع وناحية⁽³⁾.

⁽¹⁾ ناصر خسرو، سفرنامه، ص 77، 79، 91، 103.

⁽²⁾ قال البحرى، أنها موانئ لاسكن الإسكندرية والشام وصقلية والأندلس ومرسعا منظر في حوض مسك
سبع ثلاثين مرسعا على طرفي المرسى (المغرب ص 30).

⁽³⁾ ابن القديم، الفهرست ص 189.

(6) دولة المرابطين:

انظر قيام دولة المرابطين في المغرب بتأسيس مدينة مراكش عاصمة لها فقد أصبحت مركزاً سياسياً ولعبت دورها في توجيه الأحداث السياسية، والظاهر من نظم المرابطين وتقاليدهم ورسومهم هي استمرار لما كانت عليه لدى الدول والإمارات التي فوض المرابطون أركانها، فلم يكن غريباً أن نرى المرابطين بعد تولى علي بن يوسف بن تاشفين يشيدون إمبراطورية كبرى تستند إلى القوة وفواتين، استطاعت أن تشرعها أو تستمدّها من شرايع كانت سائدة في المنطقة.

ونلاحظ بعد ظهور مراكش والمدن الأخرى التي أسسها المرابطون، بدأت تظهر صورة الحياة الاجتماعية المدينة، إذ تبدلت حياة أغلب القبائل التي كان معظمها منفصلاً إلى حياة مستقرة وذلك بعد أن وضع المرابطون الأساس لحركات إصلاحية بين القبائل والبطون وذلك بتشجيعها على الإقامة في المدن والحوضر وبخاصة بعد أن تحولت حركتهم الدينية إلى حركة سياسية، كما على المرابطون بإدخال الإصلاحات والتعمير للمدن وبذلك فهم يقدمون صورة واضحة عن اهتماماتهم في الانتقال إلى أساليب جديدة في الحياة الاجتماعية والمدنية، فبشير ابن أبي زرع إلى احتلال يوسف بن تاشفين مدينة فاس فبادر إلى تحصينها وتهديم ما يفصل بين المدينتين بحيث جعلها مدينة واحدة ثم مورها وشرع في إنشاء المساجد في أحوارها وأزقتها وشوارعها فإذ اكتشف زقاقاً لا يقوم فيه مسجد علق أهله، وبني فيها الحمامات والفنادق والأرجاء وأصلح أسواقها⁽¹⁾.

لقد كان للمرابطين الفضل في قيام تجمعات عمرانية مهمة مثل مكناس وتلمسان ومراكش وبمرور الزمن اكتسبت أهمية اقتصادية كبيرة، حيث أصبحت مراكز تجارية تربط بلاد المغرب بالأندلس من جهة وبلاد المغرب والأندلس بالشرق الإسلامي من جهة أخرى وكانت مدينة مراكش تضم عناصر مختلفة من القبائل المغربية والسودانيين الأندلسيين وقد ازدادت نفوسها في عهد علي بن يوسف بن

⁽¹⁾ الأندلس المغرب يروى لفرطاس من 91 ثم انظر: ابن خلدون، المروج من 380، د. السيد محمد العزيز سالم، المصدر السابق من 704.

تأشقين، حتى أن سليمان عبد الغنى ماله لا يبالغ كثيرا في أن عدد سكانها قد بلغ نحو المليون⁽¹⁾ وعلى الرغم من أن قبائل صنهاجة وهم لمتونة وجدالة وسوفا ولمطة يشكلون الغالبية في عدد السكان ولكن العرب المشاركة تزايد وجودهم في هذا العهد حتى أقيمت لهم جامعة قوية في تلمسان تتحكم في الطريق إلى المغرب الأقصى، وبهذا يكن من أمر فإن الاستقرار والازدهار الاقتصادي أدى إلى نمو سكان العاصمة مراکش حتى أنها احتوت على مائة قبيلة⁽²⁾.

ومن المفيد أن نشير إلى انقسام مجتمع مدينة مراکش في عهد المرابطين إلى فئات ثلاث رئيسية، الفئة الأولى التي انحصرت فيها السلطة وتمثل في يوسف بن تاشفين وأولاده وأحفاده من بعده وقد تمتعت هذه الفئة بالتراسة والسيادة ليس في مجتمع مدينة مراکش، بل في جميع المجتمع المغربي واستأثرت قبيلة لمتونة بالمناصب المهمة بالمدينة فاكتمسوا الأموال وحازوا رغب الرجال وكثروا في كل مكان وساعدتهم الوقت والزمان⁽³⁾.

والفئة الأخرى تتمثل في الكتلة التي نسميها المصادر "العامة" وهم من أهل المدن والحوضر، أما الفئة الثالثة فهي المتفرقة من القبائل الضائعة والمتجولة في خارج المدن ومضارب البراري والصحراء.

وظهرت المرأة في الحياة الاجتماعية في دولة المرابطين، وكانت السيدة زينب زوجة يوسف بن تاشفين تتمتع بمكانة عظيمة وتشارك في شئون الدولة المختلفة كما برزت نعيمة بنت يوسف بن تاشفين طالبة للعلم وحافظة للشعر وقد اتخذت الكتاب وظهرت أمامهم في غير حياء ولا خجل⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ بعض الموسوم، بعض ملتح الحياة الاجتماعية في مدينة مراکش في عصر المرابطين والموحدين، مجلة الدار، العدد الثالث / السنة الثامنة عشر 1986 / ص 176.

⁽²⁾ م. ن. ص 180.

⁽³⁾ م. ن. ص 177 نقل عن ابن عذاري، البيان المغرب ج 4، ص 25.

⁽⁴⁾ ابن عذاري، البيان ص 26.

وكان المرابطون يعمرون اهتماماً بسبل الحياة لمكان المدن، بتوفير المياه اللازمة للشرب والدواب فاحتفروا الآبار وأنشأوا الصهاريج الكبيرة وعملوا السفايت واستغلوا مياه العيون كما شقوا الطرق وعبروها وبثوا القصور للأمرء وكبار رجال الدولة⁽¹⁾، إلى جانب ذلك فقد حرص المرابطون على عقد مجالس العلم يحضرها الأمرء والطماء والأبناء ورجال الدولة، كما أوجدوا مجالس لبحث مشكلات الدولة والحياة الاجتماعية التي يواجهها الناس، وذلك أيضاً مجالس الوعظ والمجالس العامة التي كان يعقدها الأمرء وكبار رجال الدولة في قصورهم ويحضرها الأبناء والشعراء وكان للفقهاء والطماء، المكافحة الخاصة لدى أمرء المرابطين حيث جعلوا منهم فئة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة وأصبح لهم دور بارز في الحياة السياسية والاجتماعية العامة وسيطروا سيطرة تامة على مقاليد الأمور، وهذا يعكس صورة الحياة الاجتماعية لهذه الفئة المهمة في المجتمع المرابطي.

أما عناصر السكان من غير المسلمين في دولة المرابطين، فهناك جماعات منفردة من النصارى واليهود في بلاد المغرب، وقد عاشوا في ظل التسامح الديني يباشرون أعمالهم المختلفة وخاصة في مجال التجارة والصناعة، والظاهر أن المرابطين لم يتعرضوا لهم ولظقوسهم وحراباتهم الدينية لسوء فيما عدا بعض الحالات التي أساء فيها هؤلاء تصرفاتهم فصب عليهم المرابطون جام غضبهم فعاقبهم واغتصوا العهود منهم⁽²⁾.

إن الاهتمام الذي كان يوليه المرابطون في اصلاح اسواق المدن، سدل على تنشيطهم للحياة الاقتصادية ووضع الأساس لها، فقد وصف الأتريسي مراكش في

⁽¹⁾ ولعل هناك بعض التهمة من برهن الحجاب عن وجودهم في الطرقات العامة أو في الاسواق وقد ذكر التويري ما يشير إلى أن محمد بن تومرت .

⁽²⁾ كان علي بن يوسف بن تاشفين يتخذ بين حين وآخر إجراءات إخراج اليهود من مراكش لئلا فيما يسمح لهم بالعمل بها تهاوا وذلك لأنه كان يخشى أن يقدروا بالمسلمين إسلاماً بعد الفلاس ملكه . (المصدر السابق ص 182) .

عهد المرابطون بأن وأسواقها مختلفة وسلعها نافعة⁽¹⁾ مما يوضح لنا النشاط التجاري في دولة المرابطين، كما قامت في المدن الجديدة التي أسسها المرابطون وكذلك في المدن التي وقعت في مناطق نفوذهم صناعات أصبحت بضائع تجارية ينقلها التجار إلى الأقاليم وكانت الأصال التجارية في مراكش قد انضمت إلى فسمين، التجار الذين اقتصروا بالتجارة الخارجية وكنوا بسنودون إن بسنودون إلى الدول والأقاليم المجاورة والبعيدة مختلف أنواع السلع والبضائع وتجار التجزئة الذين كانوا يبيعونه بضائعهم في متاجرهم وحوانيتهم وقد زادت أهمية التجار والتجارة بالاعتلال مراكش مكانتها في بلاد المغرب الأقصى⁽²⁾.

أما نقود المرابطين وسنكتهم، فقد أكد ابن عذاري، أنه في سنة 464 هـ، ضرب الأمير يوسف بن تاشفين، السكة بدراهم مدورة زنة قدرهم منها، درهم وربع من الفضة سكة من حساب عشرين درهماً للأوقية، وهو الدرهم الجوهري المعلوم في تلك الحقبة، كما ضرب أيضاً الدينار الذهبي باسم الأمير أبي بكر بن عمر وذلك في دار السكة في مدينة مراكش⁽³⁾.

وقد كثرت سبعا إلى هذا الإجراء حالما أتموا بناء مراكش وأقاموا دار السكة فضربت فيها دراهم فضية ودينار ذهبية، يبدو أن المرابطين كانوا يبنون محاولاتهم لكي يرفعوا من قيمة نقودهم فيزيدون وزنها وعيارها ويتجملون في حجمها لكي يغطوها حلة مطلوبة تفرض وجودها ونضاهي العملات في البلاد الإسلامية الأخرى.

أما الروايات التي يسوقها بعض المؤرخين والكتاب التي تغزو سبب خروج المرابطين من الصحراء يرجع إلى عوامل اقتصادية تقوم على رغبة المرابطين في

⁽¹⁾ زنة الملتقى ص 55 .

⁽²⁾ وجد اسم تاجر من الأسطورية مات في ميناء العربية الأندلس سنة 519 هـ حيث كانت الأندلس تحت نفوذ المرابطين، وكان مسافراً على أحد فروع التجارة ما يدل على أنه مات أثناء سفره وهو يملك تجارة من الأصيلة الظاهرة ذات الشهرة العالمية (حسن إبراهيم حسن - تاريخ الإسلام ج 4 ص 409)

⁽³⁾ البين المغرب ج 4 ص 131.

التحكم في طرق التجارة الشمالية والتمتع بأراضي المغرب الخصبة، فإن الغلبة صحيحة إلى حد ما وذلك إلى جانب العوامل الأخرى وذلك على الرغم من أن الطريق التجاري الصحراوي المعتمد بين أودغست جنوبا ومجلماسة شمالا، كان طريقا معروفا منذ القدم، وكذلك كانت قبائل صنهاجة التي حملت راية المرابطين ودعوتهم تعيش في مناطقها الصحراوية وتقليد احوال الجذب والقط⁽¹⁾.

(7) دولة الموحدين:

قامت فكرة الموحدين لتأسيس دولتهم السياسية على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر² ووجوب الاعتماد في استفتاء الأحكام على القرآن والسنة باعتبارهما شريعة المجتمع دون غيرها وموافقة آراء أبي الحसन الأشعري "مذهب الأشعرية" سوى مسألة الصفات فتهم وافقوا المعتزلة في نظرها.

وضمن هذه التوجهات، فقد خالفوا المرابطين في آرائهم لتتولى أمر الحكم في الدولة السياسية وتنظيماتها الإدارية والعسكرية، ولكنهم قطعاً قد ألفوا كثيراً مما كانت عليه الدول والامارات السالفة عليهم في بلاد المغرب من رسوم وقوانين وضعية مع التمسك بما يرون أحقيتهم في الخلافة دون غيرهم من المسلمين لانهم - على حذر عمهم - من أكثر المسلمين إيماناً وأصحةم مذهباً، مما جعل علاقاتهم بالخلافة العباسية متردبة لتجاوزهم على سلطتها الروحية التي تحكم العالم الإسلامي فضلاً عما عرفوا به من تنظيمات خاصة بهم، فقد رتبوا مؤسسة السلطة السياسية على شكل هرمي يبدأ بالقمة التي يمثلها أهل العشرة وفي مقدمتهم محمد بن تومرة ثم أهل الخمسين ويليهم أهل السبعين ثم العامة وأخزهم أهل الألف. وهذه الطبقات مؤلفة من رجال القبائل والعناصر والأقوام التي انضوت تحت سيطرتهم وكان لهذا التلويح الهرمي في المنظمة شروط وقوانين وأحكام تصدده. وكان لأهل العشرة أو لأصحاب العشرة السلطة المطلقة في تصريف شؤون الدولة

⁽¹⁾ د. حسن إبراهيم حسن، المصدر السابق ص 418. د. أحمد مطار نهادي، في تاريخ المغرب والاندلس ص 276، سليمان عبد الغني مائة، المصدر السابق ص 181.

والجيش والرعية. فمنهم الخلفاء والأمراء والقادة وأسحاب الدوابين وكبار الموظفين، ولم يكن للفقهاء والعلماء ذلك الدور البارز في رسم سياسة الدولة والسيطرة على مقررتها ومقاليده الأمور فيها كما كان الحال عليه أيام دولة المرابطين.

شهدت مراكش في عهد الموحدين تقدماً، فقد اهتموا بها اهتماماً كبيراً من المنشآت وقصدها الناس من كل مكان حتى اكتظمت المدينة بسكانها واضطر خلفاء الموحدين على توسيعها فضمت عناصر سكانية مشابهة وفي مقدمتها القبائل المغربية الموالية وهي العناصر الغالبة في سكان المدينة، وكانت قبيلة المصاعدة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين، تستأثر بالنفوذ الاجتماعي والسياسي في المدينة لأنها كانت من أكبر قبائل المغرب وقد احتلت مركز الصدارة في المغرب الأقصى وأصبحت لهم منزلة كبيرة لدى الموحدين ويأتي العرب المشاركة ليمثلوا العنصر الثاني من السكان، وقد بدأت صلة الموحدين بهؤلاء منذ عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي، حين أذاع بين الناس نسبة العربي⁽¹⁾، وقد حرص الموحدون على تشجيع هؤلاء للهجرة من أفريقيا إلى المغرب الأقصى فاستقر كثير منهم حول مراكش وشاركوا في الحياة الاجتماعية، كما كان بعضهم جنداً في جيش الموحدين فألقواهم بعض الأراضي وألقوا عليهم النفقات الواسعة⁽²⁾ والتي جلبت قبيلة المصاعدة وبعض القبائل الأخرى المساعدة والعرب المشاركة، فهذه أجناس أخرى صغيرة من السودانيين والروم والصفالية إذا استخدم الموحدون منهم في جيوشهم، كما شاركت الجوارى السودانيات في الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش حيث عرف عتقهن مهارت في طهي الطعام وإعداد⁽³⁾، ومن العناصر الأخرى التي سكنت مراكش الأتراك الغز فالتزم بعضهم إلى الجيش وصارت لهم الأقطاعات والمرتبات الشهرية والانتفاعات⁽⁴⁾، وكان لقبيلة كومية أيضاً مكانها في المجتمع الموحد، فقد تولي بعض أفرادها "الوزارة".

⁽¹⁾ ابن أبي زرع، الأتيس المطرب ص 183 .

⁽²⁾ ابن عذاري، المصدر السابق ص 162 .

⁽³⁾ كتاب الاستيعار في عتق الأمصار ص 216 .

⁽⁴⁾ ابن الأثير، القائل ج 8 ص 296 .

يستخلص من ذلك أن الموحدين استحدثوا من فئات السلاطة الحلقية ، مسلما اجتماعيا جديدا ، أرسى قواعده محمد بن تومرت ، فقد اهتم من استجاب لدعوته بمكان الصدارة في الدولة فقد لقبائل هرغة وهناتة وجنفسية وهزرجة وورجة وكوفية ، كثيرا من البر والكرم فضلا عن العطاء المنظم ، وبذلك ظهر المجتمع في عهد الموحدين في أربع عشرة فئة ، أونها أهل الجماعة وآخرها فئة "الغرات" وهم الموالى⁽¹⁾، وتتمتع هذه الفئات بحسب سلمها الاجتماعي بالامتيازات والاعطيات والمراتب ، كما إن علماء الموحدين كانت لهم منزلتهم الخاصة بهم وكذلك القضاة ورجال القضاء حيث كانت لهم كلمتهم المسموعة لدى الخلفاء والأمراء والقادة .

ولم يكن الموحدون بما وجدوه في البلاد من القصور والمنشآت العامة يلزموا عليها ومن أشهر قصورهم قصر الحجر الذي شيده علي بن يوسف بن تاشفين وقصر الخليفة عبد المؤمن بن علي كما شهدت مراکش إنشاء العديد من المساجد منها المسجد الكبير الذي أنشأه يوسف بن تاشفين والمسجد الجامع الذي أقامه عبد المؤمن بن علي والمعروف بجامع "الكتبيين" وأسوا كذلك المدارس التي ألحقت بالقصور لتخريج الحفاظ والقراء والمحدثين. وسعوا أيضا إلى بناء البيمارستانات المستشفيات ومنها البيمارستان في مدينة مراکش الذي اشرف على تشييده عبد المؤمن بن علي وكذلك إقامة الحمامات العامة والفنادق والأسواق المسقفة.

أما الاحتفالات الدينية فمن أهم مناسباتها صلاة الجمعة والاحتفال بقدم شهر رمضان والاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى وكذلك الاحتفالات والمهرجانات

⁽¹⁾ الموالى تعني السادة أو العبد على المواء والقصود هنا العبد أو الإماء (يرى بعد أهل الجماعة ، أهل الخمسين وأهل السبعين ومعهم الطلبة وهم علماء الموحدين والعلماء وهم سفار الطلبة ثم أهل الدار (قراء البيت الموحدي)

ثم أهل هرغة (قبيلة محمد بن تومرت) ثم أهل تومرت ثم قبيلة كاسيوه أو حديموه ثم أهل حفيصة وأهل حلفاء ثم تليها القبائل التي ناصرت الموحدين في البداية وليست من قبيلة مصمودة ثم الجند وأهل الصلار (أهل غلاري ، البيان ص. 154 ، سليمان عبد القلي ماله ص 178) .

المصرفية التي كانت تتضمن استعراض الجند والساكن قبل الخروج إلى الحرب إضافة إلى الاحتفالات بالوفود والمفراء والمبعوثين ورسد الملوك والأمراء والقادة أو عند الانتهاء من تشييد أحد المساجد أو الجوامع أو القصور أو المدارس أو لدى العفو عن المسجونين والمحبوسين.

ومن المظاهر الاجتماعية ارتداد الناس للعادات والمعتزات ومنها الحديقة الكبرى التي أمر بإنشائها وخرسها الخليفة عبد المؤمن بن علي والبستان الكبير بمراكش الذي كان خصيصا للأمراء كما أقيمت وسط هذه المعتزات البرك التي شبه ما تكون بالمساح في الوقت الحاضر.

وعلى الرغم من إن خلفاء الموحدين وأمرائهم وبخاصة الأوائل منهم كانوا عزولين عن متع الحياة ومباهجها مما يحول دون ممارسة الرعية لها وبخاصة فيما يتعلق بالقضاء والموسيقى ولكن التأثيرات التي تركتها الأندلس في هذا الجانب أصبحت مجالس القاء والموسيقى والطرب تعقد في قصور الحكام والأمراء.

ويولى الموحدون اهتمامهم بالتواخي الاقتصادية فقد تميزه مراكش في عهدهم بنشاطها التجاري حيث أصبحت لا تقل شهرة عن المراكز التجارية الذائعة الصيت مثل القيروان وناهرت وسجلماسة وأودغست وغيرها ويتوضح حجم هذا النشاط التجاري مما ورد عن كارثة الحريق الذي شب في سوق مراكش سنة 607 هـ حيث ذهبت أموال جسيمة لا تحصى للتجار السواردين والقباطين والفاصين والدائين وأدى إلى افتقار طبقة كبيرة من ذوى اليسار والثروة⁽¹⁾ وينقل ابن عذاري، إن الخراج بلغ في عهد الموحدين مائة وخمسين بغلا من إفريقيا وحدها عدا بجاية وأعمالها وتلمسان وأعمالها وإن عبد المؤمن بن علي وجه همه لتشجيع الزراعة وإصلاحها وتنظيم الحياة الاقتصادية يساعده في ذلك اتساع رقعة دولة الموحدين واستتباب الأمن فيها واستقرار الحياة الاجتماعية وتشجيع التجارة والصناعة⁽²⁾ لذلك فإن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته دولة الموحدين يجد موارده من الأندلس الغنية بثرواتها فضلا عن بلاد المغربين الأوسط والأقصى.

⁽¹⁾ محمد بن إبراهيم حسن ج 4 ص 416، سليمان عبد القلي ماله، المصدر السابق ص 181 .

⁽²⁾ ابن خلدون، المصدر السابق ص 33.

لقد ضمت مراكش العديد من أصحاب الحرف والصناعات الذين كانوا فيما بعد طوائف عدة وكان معظم هؤلاء الحرفيين قد استغنى الموحدون على حياتهم لدى دخولهم مراكش للاستيلاء عليها وانتزاعها من المرابطين الأحرص عبد المؤمن بن علي على حياة الحلفاء والتابعين منهم لاحتياج الدولة إليهم⁽¹⁾ وخاصة في إنتاج الأسلحة والبناء والتشييد ونشر الثقافة وغيرها من مظاهر العمران⁽²⁾.

(8) إمارة بني مرين:

قامت دولة بني مرين بعد الانهيار الذي منيت به دولة الموحيدين حيث فقدت نفوذها وسلطتها في بلاد المغرب والأندلس فتمكنوا من مؤسساتها الإدارية والسياسية والعسكرية أعلنوا استقلالهم فيما كانوا يحكمونه وديرونها من أملاك دولة الموحيدين المرابطية الأطراف.

ويمكن القول أن قوانين الموحيدين ورسومهم ونظمهم وشراعتهم ظلت سارية المفعول في دولة بني مرين الذين يمثلون في واقعهم ورثتهم السجاسيين والإداريين فقد اتخذوا من مراكش عاصمة لهم بما يسرى فيها من تنظيمات سياسية وإدارية كان الموحدون أوجدوها واحتوها لدولتهم وكانت البداية الحقيقية لبني مرين كدولة سياسية وإدارية في منطقة المغرب الأقصى وهي تلعب دورها المهم على نطاق المغرب الإسلامي في عهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق السدي مسيطر على مراكش سنة 668 هـ ولما كانت الدولة المرينية قد بسطت سيطرتها من برقة شرقاً إلى منطقة السوس الأقصى والمحيط الأطلسي غرباً فلقد لها أن تعتمد ما كان سائداً في حكمها وإدارتها في هذه المنطقة المتسعة الأجزاء وبخاصة فيما يتعلق بالدواوين وإدارة الجيوش والموظفين والعمال وأعطيتهم ومراتبهم والقطاعات التي كانت تمنح لهم وكذلك بتعيين القضاة والجبابة وتنظيم إدارة المدن والحواسر والحياة الاجتماعية ويزولنا ابن الأحرار بمعلومات مفيدة عن أحوالها الاجتماعية وذلك من خلال الحديث عن مدينة فاس فيشير إلى أن بني مرين اهتموا

⁽¹⁾ سليمان عبد الحفي. المصدر السابق ص 182.

⁽²⁾ د. حسن إبراهيم حسن ج 4 ص 417-418.

بفأس اهتماما خاصا واعتنوا بأمرها وبنوا مدينةً أُنشِئت فيها سميت 'المدينة البيضاء' وعُرِفَت فأس الجديدة' إذ اتخذوها دُورا للإجارة⁽¹⁾ وكانوا أقاموا أسوارها وجامعها وأسواقها⁽²⁾ واخُتِطت الفس فيها الدور والمنازل وأُجريت فيها المياه إلى القصور وأُنشِئت القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادي البخار وقنطرة مَريِن⁽³⁾ كما بُنيت في المدينة الجديدة الأسواق والحمام العظيمة والقصور للوزراء وعمرت بالأسواق والمدارس والقناطر⁽⁴⁾ وأُجريت فيها المياه عن طريق وادي الجواهر وغدير الحمص⁽⁵⁾ ووضعها ابن الخطيب بأنها كالصباح أفق للغرر الصباح فيها منابت الروح المعفّرة ومجالس الحكم الفصل ودواوين الكتاب وخزائن محمولات الكتب وخزائن الحجاب وعنصر الأمر العجائب⁽⁶⁾ أما ابن أبي زرع فيُلقي ضوءا مضيئا على المدينة الجديدة فأس في عهد بني مَريِن فيقول: جمعت مدينة فأس بين عذوبة الماء واعتدال الهواء وطيب الثرىة وحسن الثمرة وسعة المعمرات وبها منازل مونة وبساتين مشرفة ورياض مورقة وأسواق مرتبة منسقة وحيون منهمرة ونهار متدفقة منحجرة وأشجار ملطلة وجنات دائرة بها مجتمعة⁽⁷⁾ وبذلك يشير هذا المؤرخ من طرف خفي إلى ازدهار الزراعة حيث تتخلل الانهار ديارها وبساتينها وجناتها وشوارعها وأسواقها كما يذكر ابن الخطيب ما يدل على هذا الازدهار فيقول: 'وقد تَطَرَّفَ الناظر المقتون دواحي الشجر بها وغلبت الزيتون زيتنها بعصر وخيرها لا يقصر وفواكهها لا تحصى ولا تحصر⁽⁸⁾ كما إن هناك بعض الصناعات التي كانت تقوم على حطب البلوط والفهم وكذلك القامة دور

⁽¹⁾ روضة السنين في دولة بني مَريِن ص 19.

⁽²⁾ ابن أبي زرع، التَّجْدِيدُ المصنوع في تاريخ الدولة المربوية ص 186، 187.

⁽³⁾ م. ن. ص 99.

⁽⁴⁾ ابن الأثير، روضة السنين ص 20.

⁽⁵⁾ م. ن. ص 20.

⁽⁶⁾ مشاهدات إسحاق الدين بن الخطيب ص 112.

⁽⁷⁾ التَّجْدِيدُ المصنوع ص 528. ثم تَطَرَّفَ الخزانة، روضة الاس في بناء مدينة فأس ص 25، 26.

⁽⁸⁾ مشاهدات ص 118.

لصناعة القوارب والسفن الصغار المعروفة (بالحبالات) ووجود بعض الصناعات المحلية التي كان يزاولها الصناع والحرفيون والأجراء المنصوبة على الأتجار تطحن الحبوب ويخرج منها حمل أغلها والذرها ورمالاتها¹⁴.

ومعذاً فإن عهد بني مرين يعد استمراراً لما كان عليه عهد الموحدين فيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية من تجارة وزراعة وصناعة وكذلك بما يختص بالأحوال الاجتماعية وعناصر السكان في المدن ومظاهر أحوالها والحياة العامة في الحواضر وبخاصة في مدينتي مراكش وفاس وأحوال القبائل وخطتها ومساكنها.

والظاهر إن بني مرين نقلوا كثيراً من مظاهر الحضارة الأندلسية إلى بلادهم وخصوصاً ما يتعلق بمظاهر العمران والعناية بالزراعة ومتطلباتها فاستقبلوا الأندلسيين الماهرين والحاذقين والمهتسين والتابعين وذوي الخبرة في الصناعة، وكذلك العلماء والفقهاء والمدرسين وأصحاب الفن، ولقد درجوا في ذلك على ما كان يقوم به الموحدون في هذه الجوانب.

¹⁴ ابن أبي زرع، المصدر السابق ص 529 .

المصادر والمراجع

- 1- المصادر الأولية.
- 2- المراجع الثانوية.
- 3- البحوث والأطراح.
- 4- المراجع الأجنبية.

المصادر والمراجع

أ-المصادر الأولية:

- ابن الأثير، عز الدين محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت 630 هـ / 1232م)
1-الكامل في التاريخ (بيروت - 1966)
ابن الأثير، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاة (ت 658 هـ / 1258م)
2-الحلة السراء (القاهرة - 1963)
البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت 279 هـ / 892م)
3-فتوح البلدان (القاهرة - 1956)
الباروني، قنطوسي سليمان بن عبد الله (ت 559 هـ / 1940م)
4-الأزهار الرياضية في ألغة وملوك ج 2 .
5 -مختصر تاريخ الإباضية (تونس - 1958)
الجزائري، أبو الحسن علي (ت أولخر القرن الثامن الهجري)
6-كتاب زهرة الأس في بناء مدينة فاس (الجزائر - 1923)
ابن حزم الأندلسي، علي بن أحمد بن سعيد (ت 456 هـ / 1063 م)
7-جمهرة أعلام العرب (دار المعارف بمصر - 1962)
ابن حوقل التصبيعي، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلني (ت 367 هـ/ 977 م)
8-صورة الأرض (بيروت - 1938)
الحمدي، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأثري
(ت 488هـ/ 1892 م)
9-جنوة المفتس في ذكر ولاية الأندلس (القاهرة - 1966 م)
الحيمري، أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (ت القرن التاسع الهجري)
10-صفة جزيرة الأندلس (قطعة من لروض المعطار في خبر الاقطار
(القاهرة 1937)
ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ / 1405 م)

- 11- العبر وديوان السيد والخبر (مصر - يولي 7 أجزاء)
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت 681 هـ / 1282 م)
- 12- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (مصر - 1310 هـ)
- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (توفي في حدود 300 هـ)
- 13- الممالك والممالك (باعتناء دي غريه (بريل، لندن - 1889م)
- الدرجيني، أبو القاسم أحمد (ت منتصف القرن السابع الهجري)
- 14- طبقات الأفاضل (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 12561 خ)
- الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت 690 هـ / 1296 م)
- 15- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (تونس - 1230 هـ)
- الرفيق القيرواني، إبراهيم بن القاسم (توفي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري)
- 16- تاريخ أفريقيا والمغرب (تونس - 1988)
- أبو زكريا، يحيى بن أبي بكر (ت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)
- 17- المعيرة وأخبار الأئمة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 19030 خ)
- السلوي، أحمد بن خالد الفاضلي (ت 1319 هـ / 1901 م)
- 18- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (دار البيضاء - 1954)
- الشماعلي، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (ت 928 هـ / 1521 م)
- 19- السير (القاهرة - الطبعة الحجرية)
- ابن شاهين الظاهري، غرس الدين خليل (ت 873 هـ / 1468 م)
- 20- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق بالممالك (باريس - 1894م)
- الأصططري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد القارسي (ت 341 هـ / 952 م)
- 21- ممالك الممالك (القاهرة - 1961)
- ابن الصغير المالكي (ت نهاية القرن الثالث الهجري)
- 22- أخبار الأئمة المستميين (باريس - 1958)
- أبو عبيدة، مسلم بن أبي كريمة (ت أواخر القرن الثاني الهجري)
- 23- رسالة في أحكام الزكاة (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 21582ت)

- أبو عبيد البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ / 1094م)
- 24-المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (الطبعة الأوروبية -1857 م)
- عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (ت نهاية القرن الرابع الهجري)
- 25-رياض النفوس في طبقات القروان وإفريقية (القاهرة-1951)
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن القرشي المصري (ت 276 هـ/889م)
- 26-فتوح مصر والمغرب (القاهرة - 1961)
- 27-فتوح إفريقية والأندلس (الجزائر - 1947)
- فضل الله المصري، شهاب الدين أحمد بن فضل الله (ت 742 هـ / 1341م)
- 28-ملك الأمصار في ممالك الأمصار(نشر أحمد زكي باشا)(القاهرة/ 1924)
- أبو القدا، إسماعيل بن علي بن عبد الدين صاحب حناء (ت732 هـ/1331 م)
- 29-المختصر في أخبار البشر (القاهرة - 1325م)
- 30-تقويم البلدان (طبعة باريس - 1840)
- القزويني، أبو عبد الله زكريا الأنصاري (ت 628 هـ / 1230م)
- 31-آثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر دار بيروت - 1960)
- لسان الدين بن الخطيب محمد (ت 940 هـ / 1533 م)
- 32-أعمال الأعلام، القسم3 (دار الكتاب، الدار البيضاء - 1964)
- مجهول (من أهل القرن الثالث الهجري)
- 33-أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أسرارها (مريد - 1867م)
- مجهول (من أهل القرن السادس الهجري)
- 34-الإستبصار في عجائب الأمصار (الأسكندرية - 1958)
- محمد بن أحمد بن تميم العرب (ت 333 هـ / 944 م)
- 35-طبقات علماء إفريقية (باريس - 1915)
- محي الدين عبد الواحد بن علي المرافشي (ت 647 هـ / 1247م)
- 36-المعجب في تلخيص أخبار المغرب (القاهرة - 1949)
- المعري، أحمد بن محمد (ت 1041 هـ / 1623م)

- 37- فتح الطيب من غصن الأندلس الرطب (القاهرة - 1949)
 المقدسي البشاري، محمد بن أحمد (ت 375 هـ / 985 م)
 38- احسن التعليل في معرفة الأقاليم (لندن - 1907)
 النعمان، أبو حنيفة المغربي (ت 636 هـ / 973 م)
 39- رسالة افتتاح الدعوة وابتداء الدولة (بيروت - 1970)
 الوسيطي، أبو الربيع عبد السلام (ت 471 هـ /
 40- سيرة أبي الربيع بن عبد السلام (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 911م)
 يعقوب، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح (ت 284 هـ / 897 م)
 41- كتاب البلدان (لندن- 1891م)
 42- التاريخ (النجف - 1358 هـ)
 ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الرومي القبادي (ت 626 هـ / 1228 م)
 43- حجوم البلدان (بيروت - 1957)

مصادر مضافة أخرى:

- ابن أبي دينار، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم (ت 1092 هـ / 1681م)
 44- المونس في أخبار إفريقية وتونس (المكتبة العتيقة ، تونس - 1967)
 الأريسي، الشريف أبو عبد الله محمد (ت 558 هـ / 1162م)
 45- صفة المغرب وارض السودان ومصر (قطعة من كتاب نزهة المشتاق في
 المفرق الأفاق - لندن - 1894م)
 ابن أبيك الدوادري، أبو بكر بن عبد الله (ت حوالي 736 هـ / 1335م)
 46- العرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية (كتاب كنز الدور وجامع الغرر
 القاهرة - 1972)
 ابن عذاري المراكشي، أبو عبد الله محمد (ت 695 هـ / 1295م)
 47- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (أربعة أجزاء)
 الأول والثاني تحقيق خ. من كولان وإيفي بروفتسل- دار الثقافة- بيروت- 1929

ب-المراجع الثانوية:

اسماعيل أحمد

48-نبذة في تاريخ الصحراء القصوى (باريس - 1911)

د. إحسان عباس

49-العرب في صقلية (القاهرة - 1959)

أدم مترز Adam Mitiz

50-الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري(مجلدان: ترجمة

الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة وبيروت - 1967)

الدكتور حسن إبراهيم حسن

51-تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ج3 (القاهرة - 1965)

52-تاريخ الدولة الفاطمية (للقاهرة - 1958)

الدكتور حسن أحمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف

53-العالم الإسلامي في العصر العباسي (إدار الفكر العربي-1977)

54-قيام دولة المرابطين (للقاهرة-1957)

حسن حسني عبد الوهاب

55-ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية (3 أجزاء تونس-1965،

1966)

الدكتور الحبيب الجلعاني

56-المغرب الإسلامي (تونس - 1976)

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

57-المغرب الكبير ج2 (العصر الإسلامي) لقاهرة-1966)

عثمان لكعك

58-مرآة الثقافة في المغرب (للقاهرة - 1958)

الدكتور محمود اسماعيل

59- الخوارج في المغرب الإسلامي (بيروت-1976)

الدكتور محمد حمدي المنياوي

60- الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي (القاهرة-1970)

الدكتور موسى لقيال

61- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية (الجزائر-1979)

الدكتور محمد علي ديوز

62- تاريخ المغرب الكبير (القاهرة-1943)

فاسيلي بارثولد .W. Barthold

63- تاريخ الحضارة الإسلامية (دار المعارف مصر - 1958)

ليفى بروفنسال Leve-Provençal

64- الإسلام في المغرب والأندلس (القاهرة-1958)

ج- البحوث والأطاريح:

بحار إبراهيم بكير "أطروحاته للماجستير المرسومة" الدولة الرسمية

(جامعة بغداد -1983) .

د.سوادي عبد محمد، بحثه " باضية البصرة وتأثيراتها الفكرية والسياسية في

باطنية المغرب في القرن الثاني الهجري / مجلة

كلية التربية / العدد 8 / جامعة البصرة-1982.

وبحثه " نثر الفكر الأندلسي بالتحركة العلمية في المشرق

الإسلامي مجلة عالم الفكر / المجلد الثالث عشر /

العدد الثاني / دولة الكويت-1982

د.سليمان عبد الغني مائكة، بحثه " بعض ملامح الحياة الاجتماعية في مدينتي

مراكش في عصر المرابطين والموحدين / مجلة

الدائرة العدد الثالث / السنة الثانية عشرة المملكية

العربية السعودية - 1986.

1. Andre Julien, Histoire De A Frique du Nord (Paris-1951)
2. Farhy, Dr.A.Persian dansty in North Aeria, The Rustamides, The Islamic Review (England- 1962)
3. Hopkins Medieval Moslem government in Barbary untile the 6th cetury of Hijra (London,1958)
4. Heyed, W. Hostoire du commerce du levant au Mogen-Age {
5. Marcais, La, Berberie Musulmane et orient au Mogen-age (Paris, 1946)
6. Lewcki, melanges Berberes Ibadites Revue Des et udes Islamiques Année cahier (Paris-1930).
7. Prescott, History of Ferdinand and Isabella the catholic (London sounechehn)
8. Terasse, Historie du Moroco, des orlyines A, Letablissenient du protectorat Francais (casablanca-1949).

الخرائط والمصورات والمخططات

- 1- مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى
- 2- خريطة الإمارة الرستمية
- 3- خريطة إمارة الأغالبة
- 4- خريطة إمارة الأدارسة
- 5- خريطة الدولة الفاطمية



مخطط حملة عقبة بن نافع في المغرب الأقصى



الإمارة الرستمية

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1 بيروت 1979)



الحدود القصوى لإمارة الأدراسة

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1، بيروت-1975)



الحدود القصوى لإمارة الأغالبية

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1، بيروت-1979)



حدود الدولة الفلسطينية في أقصى اتساعها

(نقلًا عن الموسوعة العسكرية ج 2 ط 1، بيروت - 1979)

شجرات النسب والسلالات الحاكمة

1. بنو مدرار 140-354هـ/757-965م
2. الرستميون 144-283هـ/761-947م
3. الأزارمة 172-375هـ/
4. الأغلبية 184-296هـ/
5. الفاطميون 297-541هـ/909-1171م
6. المرابطون 448-541هـ/1056-1147م
7. المرحونون 524-667هـ/

١- عبد الرحمن بن راشد 144-171 هـ

عنه منسوبة أول مرة الرسمية وذلك سنة 160 هـ

في الخطبة عبد الرحمن بن صالح المصفاوي

140-144 هـ سنة التأسيس للمسلمون في هذه الدولة

٢- عبد الوهاب 171-211 هـ

٣- فتح 211-240 هـ

٤- أبو الفضل محمد 240-281 هـ

٥- أبو هاشم يوسف 281-294 هـ

٦- أبو الفضل بن أبي الفضل 294-294 هـ

فترة حكم القاطنين الدولة الرسمية 294-316 هـ

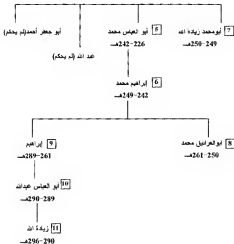
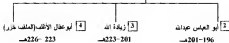
٧- أبو يزيد (صاحب المعاز) وهو أيضا نزار قام

بفترة القاطنين ودعى للأيوبيين (الأتراك)

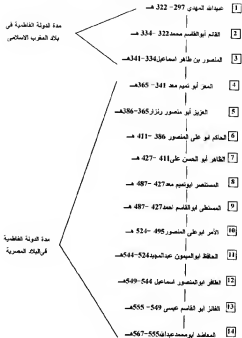
الأغلبية 184-296هـ

[1] إبراهيم بن الأتارب بن سالم الشامي 184-196هـ

مؤسس إمارة الأغلبية في مدينة القروان



الفاطميون 297-541هـ/909-1171م

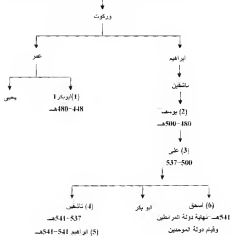


567 هـ نهاية الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين الأيوبي

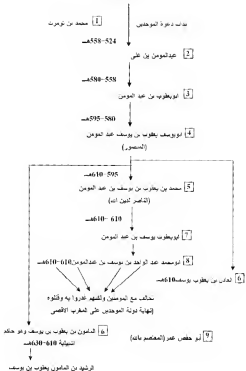
العرب بطون

448-541 هـ / 1056-1147 م

(شملت المغرب الأقصى وجزء من الجزائر والأندلس ورتلتك)



المرحلون



قباذل المغرب الإسلامي

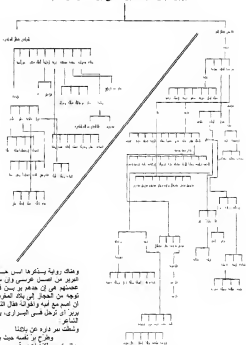
1- تقسيم ابن خلدون "التقسيم الاجتماعي المدني"

" كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) "

2- تقسيم ابن حزم الأندلسي "التقسيم العام"

" كتابه (أنساب العرب) "

بر بن قيس عيلان بن ماضع بن كنعان بن حام



وهناك رواية يستخرجها ابن خزيمة
الغزيري من السجل غزيري وأن نسب
عقبتهم هي أن بعدهم بن بن السنين
نوحه من الحجاز إلى بلاد المغرب بعد
أن انضم مع أبيه وأخوته فقل القيس
بر بن بن نوح قيس السراي، يقول
الشاعر:

وشطت نهر داره عن بلادنا
وخرج بر نفسه حيث بعدا
والزيت بر لثة اعجوبة
وما كان بر في الحجاز باعصا
(أشباح العرب من 148)

تقسيم ابن خزيمة الأتلسي - أصباغ العربية

الملحق

- 1- الملحق الأول كتاب الخليفة العباسي المستنصر بالله إلى معز الدولة.
- 2- الملحق الثاني بنو عبد الحق.
- 3- الملحق الثالث كتاب المعتمد بالله يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين.
- 4- الملحق الرابع كتاب أبي يعقوب يوسف بن تاشفين إلى أبي القاسم ابن عباد.
- 5- الملحق الخامس من وثائق الموحدين.

الملحق

الملحق الأول

كتاب الخليفة العباسي المستظهر بالله، في معز الدولة العباسية وزعيم جيوشها
المغربية على يد يوسف بن تاشفين احسن الله توقيق:

اما بعد :

الحمد لله مقدم على كل مقال، ونال كل فعال، وهو ذو المن والفضل الكبير
المتعال، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المويد بالتنزيل الذي كتف عن الامة
لغة واستنقذ من الظلالة الامة، وحسى به من المحارم ما كان مباحا واقرح به
من القلوب زنادا لورى بعدما كان شعاعا وليس الدين بعدما كان سالعرا من
البسطة جناحا وعلى ازواجه وذريته ما عقب مساء صباها وخص العباس بن عبد
المطلب عم النبوة ووارث الخلافة وشقيق الابوة العموم الظاهر الظاهر الاوائل
والاولخر بالصلاة المستهلة العباد، المتصلة الاسماء ومواهب الله على امير
المؤمنين حسان ومناحه لديه كوامل لغتس وجذاب الاسلام مربع وباع الحق
وسيع ورياض العدل اريضة وحيون الحق عريضة ونظرة لرعايا على ما تقتضيه
فصداها ومرادها ويقل عنهم نيا الالام اذا رفق حدها واتصور لرائبه آف والتظفر
لجيوشه حلف، واعداه لتسيوف حصائد ولتحقوف طرايد - وشكره لله تعالى ما
ولاه شكر موئن بالمزيد وشاهد بصنع لا يبيد.

وعرض بحضرة امير المؤمنين كتابك، الموضح الاخلاص، السرية لمطبوخة
بطباع الدين، المعربة عن تمسك بطاعته بحب الله العنن، الهائلة سحائبها من
سماء سيرتك، المضنية مصابيحها من اخلاص طريقك واما ما نهيتنا من توفير
الاجناد ومنابرتك على الجهاد ولدفع ادناس الكفرة فيما يليك من البلاد فانك
وطائفك من حزب الله (وحزب الله هم الغالبون) فاتخذ التقوى عما ذلك والحق
منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك وتجرد للدفاع عن الاسلام والمسلمين
وحطم عدوك في نحور اعداء الله الكافرين واعلن بالدعاة لأمير المؤمنين على
المنابر، تكن الظاهر بالاعداء والظاهر، والسلام عليك وعلى من قبلك من اهل

الطاعة سلام يهديكم إلى المظالم المحمود ويكتفكم بظل الرحمة العمدودة ورحمة الله وبركاته.

تفلا عن كتاب: الحقل الموشية في ذكر الأخبار المرافشية المؤلف أنطلسي من أهل القرن الثاني عشر الهجري (تحقيق د. سهيل زكار والأستاذ عبد القادر ززامه/ دار الرشاد الحديثة - تدار البيضاء - الطبعة الأولى 1979 / ص 87-88)

المحقق الثاني

بنو عبد الحق *

منهم من نرج ومنهم من عز وخلف

قال القاضي الكاتب أبو علي السليتي: يرجع نسبهم إلى بني مرين، وينسب ملايين يرجعون إلى زناته وزناته من أولاد جنان يحيى بن ضريس بن زحيك ابن عستان، وقد كان جماعة من العلماء ممن له اعتناء بهذا الشأن ينسبونهم لمر بن قيس المذكور وأجاز كتابه إتهم عرب صرخاء وإنما تبربروا بالمجاورة والمخالطة للتبرير قال ابن رشيق: إن التبرير باجمعهم من ولد جالوت، إلا قبيلتي صنهاجة وزناته فلنهما ينسبان إلى حمير .

أصل بني مرين من أحوال تلمسان، قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته على قديم الزمان - وكان وطنهم ما بينها وبين تاهرت من شرقها بجاورهم فسي السكنى من زناته بنو بغيراس وبنو تاجين وبنو مغراوة وبنو راشد، وغيرهم وكان غالبيتهم الفرسان.

قال ابن رشيق: أصل زناته من الشام وكانت دارهم بفلسطين ومملكتها جالوت فلما قتله داود عليه السلام جاءت البربر إلى المغرب فالتشسروا إلى السوس الأقصى - وقد وقع ذكر البرابر فالتشير إلى طرف من أصول أصلهم من جهة زناته وغيرها على جهة الانكصار.

وأعيان البربر هم: هوار ومغلية وضرية ومغراوة وبنو يفرن وبنو مريع وسدانة ومسطانة ومزوزة ونفزة وبنو خيدامة وولهاصة ولواتة ومدبونة ومعطاطة وكثامة ومزاته ولمطة ومدبونة وعجيسة ومكناسة وزواوة وصدفورة

وزهيلة ومسادة وزولجة ومغرة ومصودة وغبارة وبنوزروال وبنو سعيد وبنو
 سلجوم وبنو يازين وبنو خالد وبنو مرموشة وبنو شراهيل وبنو رتجين ولعابية
 وغير هؤلاء هم يطون كثيرة وتفرعوا لطريقا عريضا، ليس هذا الموضوع محل
 بسط القول، ونقصى الأنباء، إنما بنى فيه على الاختصار وإطراح التظويل.

تفلا عن كتاب: الحائل الموشية في ذكر الأهلدار المراكشية المؤلف أندلسي
 مجهول من أهل القرن الثاني عشر الهجري / ص 185-186).

الملحق الثالث

كتاب المعتمد بن عباد يستصرخ يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، فمن
 إشانه وخطه ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
 تسليما

إلى حضرة الإمام، أمير المسلمين وناصر الدين محي دعوة الخلافة الإمام أمير
 المسلمين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين.

من القائم بعظيم أقدارها الشكر لإجلالها المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها
 اللاتذ مجرمها المنقطع إلى سمو مجدها المستجير بالله وبطولها محمد بن عباد.

سلام الله الكريم يخص الحضرة العلية المعظمة السامية ورحمة الله وبركاته.
 وكتب المنقطع إلى كريم سلطاتها من اثبيلية غرة جمادى الأولى سنة تسع

ومبشرين وأربعمئة وآله أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين، إنا نحن العرب في
 هذه الأندلس قد تلتفت قبالتنا وتفرق جمعنا وتغيرت ألساننا بقطع المادة عنا من

معيننا، تصرنا شعوبا لا قبائل، وأشتتنا لا قرابة ولا عشائر، فقلل ناصرنا وكثر
 شامتنا وتوالى علينا هذا الحدو المجرم اللعين الفتش وأناخ علينا بكلكنه ووطننا

بقدمه واسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس
 ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاموا لغطوا، إلا أن الهواء

منهم عن ذلك، وقد ساءت الأحوال ونقطعت الأسال - وأنت أيدك الله ملك المغرب

إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد وعلت بهم لأمر الله تعالى المرافي والمصاعد وعن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذي طابت منه العاصر والمعاد واشتق من تبعه الخليفة من أوراق نصارة وعفاره فتنها المعاد، وزهد في الدنيا الفانية ورغب في الآخرة الباقية فقم الراحب الزاهد.

وبعد كتابنا، كتب الله تعالى لنا حظوظاً من رضاه تزكو وتتوفر واستعملنا وإياكم بكل ما تهيأ به لإخراج الفوز لديه ويتيسر من حضرة مراكز حرسها الله تعالى ودين الله عز وجل عال مسماء ومصعده والتوحيد حال بالظهور جبهده ومقلده والسعي معدل في ابتغاء من الله تعالى موافقه وسدده والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الألسنة تكرره وتردده وتستدعي به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من شكره ويحمده وإلى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه إسماعلكم وجعل في طاعته التي تعد بها خلقه اصداركم وإبراهيم فإنه سيقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما نعلمنا به بركم ووفينا عرفلكم أننا نوجب لمنصبتكم الذي أبرز في ملتكم على المناصب وأقر لرتبتكم فيه أهل بينكم بالشغوف على ما تر ما لهم من المراتب فأنتم عندنا لذلكم بالكرمة الخصيلة ملحوظان وبالعناية الجميلة محظوظون نؤكد من أسباب المواصله لكم ما حققه ان نؤكد ونجدد من عهود الحفاة يتم ما شئناه ان يجدد ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبا وتردد وفي سالف هذه الأيام تصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله تبيين الذي كان قد وصل بقتابكم إيلينا انصرافاً لم يعد منا فيه بر وإكرام ولم يبق فيه اعتناء به واهتمام كما أنه في العدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام لم نزل نتعهد به بالإحسان والانتظام وتحمل كتابنا إليكم نعرضها بما اختار من انصرافه وتوخياً في ما أثره من ذلك لإسعافه وما قصر له في حالي مقالته ورحيله ولا عدل به عن خطي البر على أوضح طرقه والله تعالى يرشد في كل الأحوال لأنكى الأعمال لديه وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بعنه ومتى سنج لكم أسعافكم الله تعالى بتقواه

أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين بهذا الموحدين اعزهم الله من ترونيه
برسم ما يصلحهم ويجر بهم على معاد قواينهم فتخيروء من أهل العقل الراجح
والسمت الحق ومن يستلذ في النزاهة على واضح السنين ومن يتميز في
الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم
مستجماً للصفات المذكورة متحلياً بالخلال المشكورة حسن في كل ما يستخدم
واتسنى له بذلك اجزل الخير وأوفره وأتم تقون بهذا المقصود في ما تطعون من
اختياركم حتى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد وتعتمدون فيه أجمل معتد
وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب
وتختلفون فيه من المساعدة الصغرة فيكم عن كرم الضرايب وتلهفون إلى بذله
من المكارمة المناسبة لمالككم في نحلتمكم من فائدة المناصب مما نطأني به صدق
مصافقكم ونلتوخي فيه ما لا يعدل عن موافقتكم جزاء لبركم بأمانته واعتناء بما
يقضى لولائكم بدوامه واتصاله بحول الله تعالى وقوته وهو سبحانه ييسر لنا لنيل
الحسنى والزيادة من فضله وبأخذ ما في ديننا وديننا على أقوم سبيله ويجعلنا
وابلغكم بما يمنحنا من التوفيق في أول رعي من حزب الحق وأهله بعنه وكرمه لا
رب سواه وكذب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين
وسمعة

عن الرسالة المحفوظة في مكتبة الفاتيكان الرسولية برومه برقم
(A.A.I.XVIII(1802) وهي الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها التي تحتفظ
بها مكتبة الفاتيكان.

فهارس الكتاب

صفحة	المفهرس	الإهداء
3		
7-5	تقديم	
8	متنخل	
16-9	المقدمة ، نطاق البحث - تطلبل المصادر	

الباب الأول:

الأحوال العامة في بلاد المغرب

37-19	الفصل الأول- جغرافية بلاد المغرب
50-39	الفصل الثاني - الفتح الإسلامي لبلاد المغرب
62-51	الفصل الثالث - عصر الولاة

الباب الثاني:

لقيام الإطارات والدول وأحوالها

وعلاقتها السياسية والإدارية

77-63	الفصل الرابع - إمارة بني مشرار في المغرب الأقصى
102-79	الفصل الخامس - إمارة بني رستم في المغرب الأوسط
115-105	الفصل السادس - إمارة الأدارسة في المغرب الأقصى
131-117	الفصل السابع - إمارة الأغالبة في المغرب الأدنى
150-133	الفصل الثامن - الدولة الفاطمية في بلاد المغرب
160-151	الفصل التاسع - دولة المرابطين
169-161	الفصل العاشر - دولة الموحدين
184-171	الفصل الحادي عشر- إمارة بني مرين والإمارات المحلية في

المغرب الإسلامي

الباب الثالث:

تلخيص حضارة المغرب الإسلامي

185-205	الفصل الثاني عشر - الحضارة الفكرية والثقافية
207-259	الفصل الثالث عشر - نظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية
261-269	المصادر والمراجع
271-275	الخرائط والمصورات
277-285	شجرات النسب والسلالات الحاكمة
287-290	القبائل المغربية
291-299	الملاحق
300-340	الفهرس

هذا الكتاب

يسلط دراسة منحصصة ببعض جوانب الجزء « العربي من العلم الإسلامي، الذي بدأ في بداية القرن الثامن الهجري - الرابع عشر من القرن السابع الميلادي، ولعل هذه الدراسة تثير رغبة وربما عند ذوي الميول فيه لتقديم صورة أكثر تفصيلا. وهذا يمكن قراءة الكتاب بأبوابه الثلاثة ولصونه الثلاثة عشر بما يتضمنه عن أصول المغرب العلمي، الجغرافية، الفتوح الإسلامية وقيام الإمارات والدول وتلخيص أخصارته الفكرية والثقافية والفقه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، تلك تسليح الكتاب بعدة من المصادر والمراجع الواسعة والمتنوعة وخلص من خلالها إلى نتائج مهمة نلها تعين القارئ على التحقق من معنا فيه وبذلك فإن هذا العمل الذي اتسم بالموضوعية والتوثيق والمنهجية التاريخية وكذلك بالتبسيط غير المعتاد يجعل هذا الكتاب بمثابة تناول كل قارئ مهما كانت عمومية معارفه حول تاريخ المغرب المتصل بمضمونه.

